التفسير الوعظي لسورة المائدة

تأليف

الدكتور محمد محمود الطرايرة

قدم له

الدكتور منصور أبو زينة

التفسير الوعظي لسورة المائدة

التَّفسير الوَعْظي لسُورَةِ الْـمَـائِدَة

الدكتور محمد محمود الطرايرة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٦٥٠ / ٢ / ٢٠٢٠)

رقم التصنيف : ٢٢١،٥٥

المواصفات : / سور القرآن / / تفسير القرآن/ / الوعظ والإرشاد / / القرآن الكريم

الطبعة الأولى ١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

للتواصل مع المؤلف

+962 79 617 69 69

m-Tarira@hotmail.com

د-محمد الطرايرة

عمان - الأردن

التفسير الوعظي
لسورة المائدة

تأليف

الدكتور محمد محمود الطرايرة

قدم له

الدكتور منصور أبو زينة

الطبعة الأولى
2020

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لكتاب التفسير الوعظي لسورة المائدة

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَنْ والاه.

أمَّا بعد، فإنَّ القرآنَ الكريمَ حَبْلُ الله الممدود، ولِواءُ الحقِّ المعقود، ونَبْعُ الخيرِ المورود، ولا يزالُ عَطاؤُهُ غَضًّا طَرِيًّا، يَرْوِي كُلَّ وارِد، ويَهْدِي كُلَّ شارِد، ولا يزالُ العلماءُ يَنْهَلُونَ من مَعينِه العَذْب ما يشفِي العَليل، ويَهْدِي السبيل، ولا غَرْوَ فالقرآنُ نورُهم ودُسْتورُهم، وجليسُهم وسميرُهم:

نِعْمَ السَّمِيرُ كتابُ الله إنَّ لـه ... حَلاوَةً هِيَ أَحْلَى من جَنَى الضَّرَبِ

بِهِ فُنونُ المَعاني قد جُمِعْنَ فما ... تَفْتَرُّ مِن عَجَبٍ إلَّا إلى عَجَبِ

أَمْرٌ ونَهْيٌ وأَمثالٌ ومَوْعِظَةٌ ... وحِكْمَةٌ أُودِعَتْ في أَفْصَحِ الكُتُبِ

لَطائفٌ يَجْتَلِيها كُلُّ ذِي بَصَرٍ ... ورَوْضَةٌ يَجْتَنِيها كُلُّ ذِي أَدَبِ

وقد وَصَفَ المولى سبحانَه القرآنَ في عَدَّةِ مواضع بأنَّه (مَوْعِظَة)، من ذلك قولُه جَلَّ جلالُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقولُه سبحانَه: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:٣٤].

ولذلك كانَ حَرِيًّا بالمُفَسِّرِ أنْ يَعْتَنِيَ بالجانب الوَعْظِيِّ في القرآن، وأنْ يُجَلِّيَه خِلالَ تفسيره للآيات؛ من أجل أنْ تأخُذَ النفوسُ المؤمنةُ التقيَّةُ حَظَّها الوافرَ من مواعِظِ القرآن، فَتَحْمِلَها خشيةُ الله سبحانَه على امتثال أوامرِه، واجتنابِ زواجرِه، وتَتَبُّعِ ما يُحِبُّ ويَرْضَى.

وقد وَفَّقَ اللهُ تعالى أخانا الفاضل الدكتور (محمد محمود الطرايرة) إلى سلوك هذا السبيل؛ مَدْفوعًا بما يتلَمَّسُه من حاجة الدعاة والوُعَّاظِ والخُطَباء إلى هذا اللَّوْنِ من التفسير، الذي من شأنِه أنْ يُعِينَهُم على تدبُّرِ الآيات، وتأمُّلِ معانيها، والاستقاءِ من مواعظها، والاستنارةِ بأنوارِها؛ من أجل اتِّباعِ هداياتِها، وتقويمِ سُلوكِهم على أساسِها. فأصدَرَ الدكتور (الطرايرة) أوَّلا كتابَه: (التفسير الوعظي

لسورَتَيْ الفاتحة والبقرة)، وها هُوَ يُصْدِرُ اليومَ هذا الكتاب (التفسير الوعظي لسورة المائدة)، وقد أخبرَني أنَّه يعكُفُ أيضًا على إصدارِ التفسير الوعظيِّ لكلٍّ من سورة آل عمران، وسورة النساء.

ومِثْلُ هذه الكُتُب يستفيدُ منها القارئُ في ثقافَتِه، والخطيبُ في خُطْبَتِه، والكاتِبُ في مَقالتِه، والواعِظُ في مَوعظتِه؛ ذلكَ أنَّ المؤلِّفَ في تفسيرِه للآيات الكريمة لا يُفَوِّتُ فُرْصَةً في توجيهِ الموعظة الحَسَنَة المتَّصِلَةِ بمعاني الآيات، بأُسْلوبٍ سَلِسٍ نافِذٍ إلى القُلوب، ويَشْفَعُ موعظتَه المُؤثِّرَةَ بما يُؤَيِّدُها من أحاديثَ شريفة، ومقولاتٍ للسلف مأثورة.

وتَظْهَرُ في تلكَ اللَّفَتاتِ الوَعْظيَّةِ هِمَّةُ المؤلِّف، وهَمُّه الإصلاحيُّ، وحِرْصُه الدَّؤوبُ على الدَّعوةِ إلى الخير، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، وبَثِّ رُوحِ التفاؤُلِ والأَمَلِ في هذه الأُمَّة، نَحْسَبُه كذلك، واللهُ حسيبُه، ولا نُزَكِّي على الله أحدًا.

ولا يَخْفَى على مُطالِع هذا الكتاب أنَّ المُؤَلِّفَ قد رَجَعَ إلى أَوْثَقِ كُتُبِ التفسير؛ لِيَسْتَقِيَ منها مادَّتَه التفسيريَّة، من رواياتٍ وأقوالٍ ومَعانٍ مُتَعَدِّدَة، ثم صَاغَ ذلكَ كُلَّه بأُسلوبٍ وَعْظِيٍّ مُتَدَفِّقٍ رَقْراق. ويَعْرِضُ في تفسيرِه لبعضِ المسائل المُسْتَجِدَّةِ في عَصْرِنا، ويمُرُّ بها مَرًّا سَريعًا، ويَمَسُّها مَسًّا رَقيقًا، ويُبَيِّنُ مَوْقِفَ الشرعِ منها بإيجازٍ دقيق.

ويَحُثُّ المؤلِّفُ القارئَ على تدبُّرِ الآيات التي يُفَسِّرُها، والتأمُّلِ فيما وَراءَ الكلماتِ من مَعانٍ ودلالاتٍ وإشارات، ويَرْبِطُ بينَ الآيةِ ونظائرها في السُّوَرِ الأخرى، في إشارةٍ جَليَّةٍ إلى أهميَّةِ تفسير القرآن بالقرآن، وأنَّ خَيرَ ما يُفَسِّرُ القرآنَ هو القرآنُ نفسُه، فما أُجْمِلَ في موطِنٍ فُصِّلَ في موطنٍ آخر، وما أُطْلِقَ في موطِنٍ قُيِّدَ في موطنٍ آخر، وإذَنْ فلا يُمْكِنُ الاجتزاءُ بالآية دونَ نظائرها، وبالجُمْلَةِ دونَ مَثيلاتِها من هذا الكتابِ الكريم.

ومن خلال خِبْرَتي في تخصُّص (التفسير)، شَعَرْتُ أثناءَ القراءةِ في هذا الكتاب بانسِيابِ الكلامِ وتدَفُّقِه، وسُهولَتِه مع دِقَّتِه، وهَمِّ المؤلِّف وصِدْقَ عاطَفَتِه؛ فأسألُ اللهَ تعالى للمؤلِّفِ وكتابِه النَّفْعَ والقَبول في الدنيا، والأجرَ الجزيلَ في الآخرة، وأنْ يرزُقَنا وإيَّاه حُسْنَ الفَهْمِ لكتابِه، وصادقَ الإيمان بعقائدِه، وصالِحَ العَمَلِ بأحكامِه ومواعِظِه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥].

واللهُ وحدَه وليُّ التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

د. منصور محمود أبو زينة
أستاذ التفسير وعلوم القرآن – جامعة اليرموك

٢٣ جمادَى الآخرة ١٤٤١هـ
١٧/ ٢/ ٢٠٢٠م

مقدمة المؤلف

الحَمْدُ لله الذي أكْرَمَنا بالإسْلامِ، وشَرَحَ صُدُورَنا لِتِلاوةِ القُرْآنِ وفَهْمِهِ، وأَعَدَّ لِمَنْ صَدَقَهُ في ذلك الدرجاتِ العُلا في الجِنَانِ.

أَحْمَدُه على نِعَمِه التي لا تَنْقَطِعُ، وآلائِهِ التي لا تَنْقَضِي. سُبْحانَهُ، ما يفتحُ للنَّاسِ مَنْ رَحْمَةٍ فلا مُمْسِكَ لَها.

وَأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على الرَّحْمةِ المُهداةِ، سيدِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، البَشِيرِ النَّذيرِ، الذي اصْطَفَاهُ رَبُّنا مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ، وجَعلَهُ رسولًا للنَّاس أجْمَعِينَ، صَلواتُ رَبِّي علَيه وعلى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرينَ، وعلى أصْحَابِهِ حَمَلَةِ الشَّرعِ ومَصَابيحِ الهُدى، وقُدواتِ المُؤمنينَ الصَّالحينَ، وبعدُ:

فَهذا تفسيرٌ لسُورَةِ المائدة، قَصَدْتُ مِنْهُ تقْريبَ عباراتِ التّفسيرِ مِنْ عُمومِ النَّاسِ، لا سِيّما أنَّ عددًا من كُتب التَّفسير فيها لُغةٌ عاليةٌ وصعبةٌ على أكثرِهم، فحَرَصْتُ على انتقاءِ العباراتِ القريبةِ من الأفهامِ، والاهتمامِ بتفسيرِ المَعنى بأكثرَ من مُفردةٍ وعبارةٍ.

وَهذا التَّفسيرُ ينْتفعُ به كذلك صِنفٌ من طلبةِ العِلمِ والدُّعاةِ إلى الله تعالى، مِمَّن تصدّرَ لمَجالسِ الوعْظِ والإرشادِ في مُختلفِ مُؤسّساتِهِ.

وفِكْرته كذلك تقْتصرُ على تقديمِ آياتِ الله تعالى على هَيْئةِ مواعظَ، تَنْفعُ قارِئها وحافِظَها، عن طريق توضيحِ المقصودِ منها، وبيانِ السِّياق الذي جاءتْ فيه، وذِكْرِ سَببِ نُزولها إن وُجدَ، ثمَّ محاولةِ ربْطها بالواقعِ الذي نعيشهُ دونَ تَكلُّفٍ أو إسْهابٍ في ذلكَ.

وَهذا التَّفسيرُ أَسْمَيتهُ وَوَسَمْتُهُ بعُنْوانِ: «**التَّفسيرُ الوَعْظِيُّ**»، مُسْتمِدًّا ذلكَ من عددٍ من آياتِ القرآن العظيمِ الَّتي بيَّنتْ أنَّ الله تعالى أنزلَ كتابَه، وذَكَر فيه ما ذَكَرَ، ليكونَ تَذْكرةً للنَّاسِ وموعِظَةً لعلَّهُم يَهْتدون، وذلك كقولِ الله تعالى: ﴿ **فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة ٦٦]، وقولِه: ﴿ **هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران ١٣٨]، وقولِه: ﴿ **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [هود ١٢٠]، وقولِه: ﴿ **وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [النور ٣٤]، وقولِه: ﴿ **طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ** ﴾ [طه ١-٣]، وقولِه: ﴿ **كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ** ﴾ [عبس ١١-١٦]، وَغيْرِ ذلكَ من الآياتِ الدّالةِ على أنَّ القرآنَ موْعظةٌ لمَنْ كانَ له قلبٌ، أوْ ألْقى السمْعَ وهوَ شهيدٌ.

وَمنْ تأمَّلَ حالَ كثيرٍ منْ أهلِ الشَّهواتِ والذُّنوبِ، مِمَّنْ غَفَلتْ قلوبُهُم، ولم تَسْتقِمْ جوارِحُهم، وَجدَ أنَّ وصولَ مواعظِ القُرآنِ لهُم مِفتاحٌ من مَفاتيحِ هِدايتِهم، ورُجُوعِهم إلى طريقِ الاسْتِقامةِ والهُدى، ذلك أنَّ كثيرًا منهُم يُحِبُّ الله تعالى ويُحِبُّ سماعَ كلامِه، وعندَهُ شغَفٌ وشوقٌ عجيبٌ للعيشِ معَ معانِي الآياتِ وظِلالِها، بأسلوبٍ يكونُ قريبًا منهُ ومنْ فُؤادِه، وقد كانَ هذا سببًا من أسبابِ الخوضِ في هذا العِلم، فإنِّي لا أعلمُ واعظًا للنَّفْس أَجْودَ وأقربَ وأحْلى منْ كلامِ الله جلَّ في عُلاه.

وقد حَرَصْتُ على تَفْسيرِ القُرآنِ بالقرآنِ، وذِكْرِ الأحاديثِ الخادمةِ لفهْمِ الآيةِ، وأخْذِ المَوعظةِ منْها، والمرورِ على مُجملِ أقوالِ أهلِ التَّفسير والفقهِ إنْ لَزِمَ.

وكانَ منْ منْهجِي في ذِكْرِ الأحاديثِ ألّا أذْكُرَ حديثًا إلَّا راجعتُ كلامَ أهلِ التَّخصُّصِ فيهِ تصحيحًا وتضْعيفًا، ثمَّ حَرَصْتُ على ذكرِ الصَّحيحِ منْها غالبًا، مشيرًا إلى الأحاديثِ الَّتي حصلَ فيها خلافٌ أو كانتْ ضعيفةً، حالَ ذِكْرِها.

وَجُلُّ هذا التَّفسيرِ قائمٌ على مراجعَ ثابتةٍ لا أخْرُجُ عنها إلَّا إذا احْتجْتُ، وهيَ كتابُ «تفسيرِ القرآنِ العظيمِ» لابنِ كثيرٍ، وتفسيرُ «التَّحريرِ والتَّنويرِ» لابنِ عاشورٍ، وتفسيرُ «أضْواءِ البيانِ» للشَّنقيطيِّ، وكتابُ «أَيْسَرِ التَّفاسيرِ» لأبي بكرٍ الجزائريِّ، وكتاب «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السَّعدي، وتفسير «المنار» للشيخ محمد رشيد رضا رحِمَهمُ الله جميعًا.

ولا يفوتني أن أشير إلى أن فكرة التفسير الوعظي ليست بِدْعا من القول، فإنَّ التفسير الوعظيَّ دأبُ غالب المفسرين في تفسيرهم، وهو جزءٌ من التفسير الموضوعي للمتخصصين في هذا الشأن.

بل إنَّ عددًا من أئمة التفسير قد خصُّوا مواعظ القرآن بتفسير مستقل، فكانت فكرة هذا الكتاب وهذا العنوان مسبوقة بجهد هؤلاء الأعلام.

ومن هذه التفاسير تفسير «تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم» لابن بَرّجَان، وهو الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي الإفريقي المتوفى سنة ٥٣٦ للهجرة.

ومن هذه التفاسير كذلك تفسير «روح البيان» للشيخ إسماعيل البروسوي، واسمه إسماعيل حقي بن الشيخ مصطفى الاستانبولي الآيدوسي الحنفي أبو الفداء، وقد اختصره الشيخ الصابوني وسمَّى المختصر: «تنوير الأذهان من تفسير روح البيان للبروسوي».

وَلا يفوتُني قبلَ أنْ أترُككم وآياتِ القرآنِ، أنْ أشْكرَ كُلَّ منْ أعانَ على إخراجِ هذا الكتابِ، سائلًا الله تعالى أنْ يتقبَّلَ منهُم ويُكرمَهم بمَا هوَ أهْلُه، حريصًا على عدمِ ذِكْرِ أسْمائِهم؛ فإنَّ ذِكْرَ الله تعالى لهُمْ في المَلأِ الأعْلى يكفيهِم.

سُورَةُ الْـمَـائِدَة

سُورَةُ الْـمَـائِدَة مَدَنِيَّةٌ، سُمِّيَتْ بذلكَ لاختصاصها بذكر قِصَّة الْـمَـائِدَة الَّتِي سَأَل الْحَوَارِيُّونَ نبيَّ الله عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يدعوَ الله أنْ يُنَزِّلها عليهم.

أخرج الإمام أحمدُ بسند حسَّنه بعضُ أهل العلم عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ سُورَةُ الْـمَـائِدَة وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْمِلَهُ، فَنَزَلَ عَنْهَا».

وسورةُ المائدة بالجملة أَرْشدت أهلَ الإيمان إلىٰ معالم طريق عبوديَّتهم للربِّ جلَّ وعلا، فجاءت بتشريعات في مختلف أبواب العلم والدِّين، واستطردت في بيان عقائد النصارىٰ، وموقفِ شريعة الله عَزَّوَجَلَّ منها، فَضْلًا عن ذكر عداوة اليهود لأهل الإيمان والصلاح، ولا يكادُ القارئُ المتدبرُ لهذه السُّورة إلا ويزدادُ بصيرةً مع كلِّ حرف فيها، كما هو حال جميع كتاب الله تعالىٰ، بل تُكرم هذه السُّورة صاحبَها بتسلية تُعطي قلبَه أُنْسًا وطمأنينةً عجيبةً من نوعها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾

توجيه الخطاب لأهل الإيمان من أول السُّورة فيه إشارة إلىٰ أنهم مَعْنِيُّون بما فيها من عقائدَ وأحكامٍ، وأنهم مَظِنَّـةُ الاستجابة لأوامر الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ الخطاب الربانيَّ قد يلامس قلوب أهل التَّقوىٰ فيسارعون في الطاعة ويتسابقون في الخيرات، وقد يلامس قلوب غيرهم فيكون ثقيلًا عليهم ويتباطؤون في تلبية نداء الله لهم.

جاء النِّداء الربَّانيُّ هنا يأمر بالوفاء بالعقود، يعني: لا تنقُضوا العهود التي بينكم وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا تُخِلُّوا بها ولا تَغْدروا، وكذلك العهودَ التي بينكم وبين النَّاس.

الله تعالىٰ شرع للناس دينًا يحوي كل ما ينفعهم من عقائد وتشريعات وأخلاق، وبيَّن للناس كيف يعبدوه، وبيَّن لهم ما أحلَّ وما حرَّم، وأخذ الميثاق علىٰ من آمنَ وصدَّقَ أن يُخلص العبودية لله وحْده، ويطيعَه فيما أمر.

ولقد كان نبينا ﷺ يُبَايِعُ الْمُؤْمِنِينَ إذا جاءوه ليكونوا جنودًا لهذا الدين، يبايعُهم على أَنْ لَا يُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وعلى اجتناب ما يُسخط الله تعالى من القتل والزنا والسرقة وغير ذلك، وكان يبشِّرُهم بالأجر العظيم والمثوبة الكبيرة لمن وفَّى بعهده مع الله وأطاعَه فيما أمر.

وكأنَّ الأمر بالوفاء بالعهود مع الله تعالى هنا في افتتاح السورة، يُؤْذن بجملة من الْأَحْكَام الَّتِي شرعها الله لنا لتكون عَقدًا بيننا وبينه، وهذا يُثيرُ فينا حرصًا على معرفة ما يريده الله منا ليرضى عنا، فإنَّ رضاه غايةُ ما يرجوه المؤمنون الذين نادتهم الآية الكريمة.

أهل الإيمان لا يُقبل منهم إلا توفيةُ ذلك الميثاق، ولا يصلحُ أن يكون حالُهم كمنْ قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرَّعْد: ٢٥]، ولا يصلح أن يكون حالهم كحال من ذكره الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

والآيةُ بعمومها تأمر أهل الإيمان بالوفاء بعقودهم وعهودهم مع الناس كذلك؛ مسلمِهم وكافرِهم، صغيرِهم وكبيرِهم، ذكرِهم وأنثاهُم، سواء أكان عهدُهم في عقود البيوع والمعاملات المالية، أم كان في باب الأنكحة وما يتْبعها من حقوق وواجبات، أو كان في باب المصالحات والمعاهدات مع غير المسلمين.

وقد أخرج أبو داود والترمذي وغيرهما، واللفظ للترمذي عن عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ الْمُزَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا صُلْحًا حَرَّمَ حَلَالًا، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا، وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ، إِلَّا شَرْطًا حَرَّمَ حَلَالًا، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا».

﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾

قدَّمتِ الآية ذِكرَ ما امتن الله علينا به من المباح تأنيسًا لقلوبنا، ولتطمئنَّ نفوسُنا بأحكام شريعة ربنا، وحتى يعلمَ أهلُ الملة أن دائرة المباح موفورةٌ وواسعة، وأن فيها من صلاح الحال ما فيها، مع استحضار وجود دائرة المحظور والمحرم ليستقيمَ حال الناس وتُضمنَ حمايتُهم من غيرهم، بل من أنفسهم أحيانا فإنَّ الإنسان ظلوم جهول.

والبهيمةُ هي كل حيوان له أربعة قوائم، والإباحة في الآية مقصورة على بهيمة الأنعام، وهِيَ: الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، والتي هي غالب طعام الناس.

وليست الأنعام هي التي أبيحت فقط في شريعتنا، بل ثمة أصناف من الحيوانات جاءت الأدلة الشرعية بإباحة أكلها، كالسمك والجراد ولحم الخيل والدجاج والأرنب والحمار الوحشي وغيرِ ذلك.

﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أُحلت لنا بهيمة الأنعام إلا ما يُتلى علينا في القرآن هنا، وإلا ما جاءت به سنة نبينا عليه الصلاة والسلام، وقد جاءت الآية الثالثة في السورة هنا وبينت لنا أنواعًا من الأنعام حرمتها الشريعة لا لذاتها ولكن لأسباب أخرى، كأن تكون هذه الأنعام ميتة أو ذُبحت لغير الله، أو ماتت منخنقة أو مَوْقُوذَة أو متردية أو نطيحة.

كما جاءت سنة نبينا ﷺ بالنهي عن أَكْلِ كُلِّ ذي نابٍ من السباع وكُلِّ ذي مِخْلبٍ من الطير.

ومن المستثنيات المَتلوَّة علينا والمذكورة في الآية، قولُ الله تعالى:

﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ يعني: لا تصطادوا وأنتم مُحرِمون للحج أو العمرة، فإن فعلتم ذلك فقد خالفتم أمر الله، وقد أجمع الفقهاء على أن المُحْرِم إذا اصطاد صيدًا فإنه يحرم عليه الأكل منه، ويحرم كذلك على غيره عند جمهور فقهاء الأمة.

ومعلوم لديكم أن الإحرام للحج والعمرة يبتدئُ من إنشاء النية من الميقات المكاني، وقد يعقد بعضهم النية قبل وصوله إلى الميقات، وهو صحيح على تفصيل عند أهل العلم.

فإذا نوى المعتمر أو الحاج وشرعَ في أعمال النسك فلْيَعْلم أن الصيد من محظورات الإحرام، وهذه مسألةٌ لها أحكامها التي اعتنى بها الشرع مما سيأتي بيانُه وتفصيله في أكثرَ من موْضعٍ من هذه السورة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ لا يكون في ملكوت السماوات والأرض إلا ما أراده الله سبحانه وقضى به وحَكَم، وهو سبحانه يعلم ما يُصلح الخلق وما يُسعدهم، فَأَقْبِلوا على الاستجابة لأمره، ولا تنقضوا العهود معه ولا تنكثوها، واثْبتوا على عهدكم فإن الموعد الجنة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢ ﴾

نداءٌ ثانٍ للمؤمنين الذين إذا سمعوا نداءَ ربِّهم أقبلوا عليه بسمعهم وقلوبهم، وأَقْبلت جوارحُهم وانقادت، يرجون في كل ذلك رحمةَ الله ويخافون عذابَه، ويفقهون أن رضا الله عنهم خيرُ زادٍ لهم في الدنيا والآخرة.

نداءٌ يخبرهم أن هذا الدين فيه شعائر، أي: علاماتٌ ظاهرةٌ عَظَّمها ربنا جلَّ في علاه وأمرنا بتعظيمها، وجعلها أَمَارة من أماراتِ التوحيد والعبودية وجَمْع قلوب المسلمين، وهي شعائر قد تتعلق بالمكان كما هو الحال مع مكةَ والمدينةِ والمسجدِ الأقصىٰ والصفا والمروة، وقد تتعلق بالزمان كشهر رمضانَ وأيامِ الحج وعاشوراء وغيرِها، وقد تتعلق بالأشخاص كالأنبياء عليهم صلوات ربي وسلامُه، وقد تتعلقُ بالعبادات كمناسك الحج والصلاة والأذان وغيرها.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة:١٥٨]، وقال ربنا سبحانه في هَدْي الحجِّ: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ﴾ [الحج:٣٦]. والبُدْنُ هي الذبائح التي يَذبحها الحجيجُ في حَجهم.

والمطلوبُ أن نعظم هذه الشعائر علىٰ حالها، فلا نحرمَ حلالها ولا نحلَّ حرامها، ولا نأذنَ لأنفسنا أو لغيرنا أن ينتقصَ من قدْرها بحال، فإن تعظيمَها علامةٌ علىٰ تقوىٰ القلوب وتعلُّقِها بالخالق جل وعلا. قال الله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحَجّ: ٣٢].

ولعلكم رأيتم من يغمزُ ويلمزُ بهذه الشعائرَ ويسعىٰ لإسقاط هَيْبتها من القلوب، ورأيتم من يتخذُها هزوًا في كلامه ليضحكَ الناس، ويصرفَ وجوههم إليه، معتذرًا عن ذلك بأنه إنما يخوضُ ويتسلىٰ ويلعب، فاحرصوا علىٰ ألسنتكم أن تخوضَ في ذلك، واحفظوا أسماعكم عن كل ما فيه هُزْءٌ من شعائر الله، وذكِّروا من يفعلُ ذلك وانْصحوه وأَرْشِدوه.

﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ أي: ولا تحلوا الأشهر الحرم: ذُو القَعْدة، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ.

والأشهُرُ الحُرُمُ لها مكانَتُهَا عندَ العَرَبِ وكذا في الإسلام، كما هو الحالُ في حُرْمَةِ البيتِ الحرامِ، وقد جاء ذِكرها فيما أخرجه الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال في حجة الوداع: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ الله السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُم، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدة، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَر الَّذِي بَيْنَ جُمادى وَشَعْبَانَ»، وإليها أشار قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التَّوْبَة:٣٦].

والمقصود: لا تجعلوا قتال أعدائكم في الأشهر الحُرُم حلالًا، واجتنبوا المحارم والآثام تأكيدًا في هذه الأشهر، يعني: عَظِّموها واعلموا أنَّ الظلم والإثم فيها أشدُّ من غيرها من الشهور.

والعلماء على أن تأكيد اجتناب المعاصي في هذه الأشهر باق لم يُنسخ، واختلفوا: هل بقيت حرمة القتال فيها أم نسخت؟

والجواب أنهم أجمعوا على وجوب ذلك إذا هجم العدو على بلاد المسلمين، وأجمعوا على قتال أهل الكفر إذا بدأوا قتالنا في الأشهر الحرم وانتهكوا حرمتها، أو قاتلونا في الحَرَم، أو حال إحرامنا لحج أو عمرة، فإنَّ الحُرُمَاتِ قِصَاصٌ، ولئلا يستغلّ أعداءُ الأمّةِ حُرْمَةَ هذه الأشهُر فيُقَاتِلُونَا ويَقْتُلُونَا، كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وأخرجَ أحمدُ عن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ يَغْزُو فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يُغْزَى، فَإِذَا حَضَرَ ذَاكَ، أَقَامَ حَتَّى يَنْسَلِخَ». (يعني: إذا غُزِي؛ قاتَلَ ودافعَ عن الإسلامِ والمسلمينَ حتّى ينْدَحِرَ الغُزَاةُ).

وأما أن نبتدئهم نحن بقتالٍ في هذه الأشهر، فقد أجازه جمهور أهل العلم من الحنفية والشافعية والحنابلة، وذهبوا إلى أن الآية هنا منسوخةٌ رُفع حكمُها، وقد نسختها الآيات الآمرةُ بقتال المشركين كافة، والآمرةُ بقتالهم حيث وجدناهم.

وذهب بعض الفقهاء ورجَّحه غير واحد من المحققين إلى أن التحريم باق لم يُنسخ، فلا يجوز ابتداءُ القتال فيها، إلا فيما ذكرناه من قبل.

﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ الهدي ما يهديه الحاج أو المعتمر من الإبل أو البقر أو الغنم إلى بيت الله الحرام، تعظيمًا لله، وإحياءً لشعائر ديننا الحنيف.

وقد كان من عادتهم إن أرادوا ذلك أن يضعوا قلادة فِي أَعْنَاقِهَا، لِتَتَمَيَّزَ بِهِ عَمَّا عَدَاهَا مِنَ الْأَنْعَامِ، وَلِيَعْلَمَ من رآها أَنَّهَا هَدْيٌ إِلَى الْكَعْبَةِ فَيَجْتَنِبَهَا.

ومن ثمراتِ وَضْعِ القلائد على رقابها أن يتشجعَ من يراها ويأتيَ بمثلها، ويهديَها لفقراء الحرم.

الآية هنا تخاطب أهل الإيمان بألا يترُكُوا ذلك، فإن بقاء إهداء الأنعام وتقليدِها، فيه حفظٌ لمصالح سكان الحرم ولمن يأتي بيت الله ممن اسْتَجَابَ الله فِيهِمْ دَعْوَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ قَالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَـٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾

آمِّين البيت الحرام أي: قاصدينه للحج أو العمرة أو التجارة أو غير ذلك، والآية هنا تأمر بإعطائهم الأمان الكامل حال سيرهم إلى المسجد الحرام وحال طوافهم وسعيهم وإن كانوا مشركين، فلا قتالَ ولا منعَ ولا إيذاءَ لهم.

وهذا التوجيه الرباني إنما كان قبل نزول قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التَّوْبَة:٢٨]، فقد كان أهل الجاهلية يقصدون البيت الحرام للحج والعمرة قبل الإسلام، وكذلك في الإسلام حتى جاء منعهم من ذلك.

والأمن والأمان يبقى لأبناء المسلمين الذين قصدوا بذهابهم إلى هناك تحصيل فضل الله تعالى عليهم من المغفرة والرزق، وقصدوا الفوز برضوان الله تعالى عنهم وإكرامهم بما هو أهله سبحانه.

﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ لما منعت الآيةُ السابقة المُحرم من الصيد حال إحرامه، أكدت هنا أن هذا المنع يزول إذا تحلَّلَ من إحرامه، وهو الذي يكون بحلق الشعر أو تقصيره في العمرة، ويكون في الحج عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ بِفِعْلِ أَمْرَيْنِ مِنْ ثَلَاثَةٍ: رَمْيِ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ الكبرى وهي سبع حصيات، وَالنَّحْرِ وهو ذبح الهدي، وَالْحَلْقِ أَوِ التَّقْصِيرِ، ومنهم من ذكر طواف الإفاضة والسعيَ بدلًا من النحر على تفصيل وخلاف مشهور، فمن فعل اثنين من هذه الأعمال أبيح له الصيد، وأبيحت له أكثر المحظورات كحلق الشعر وتقليم الأظافر ولبس المخيط للرجال وغير ذلك.

وسيأتي مزيد بيان للصيد وأحكامه حال الإحرام في تفسير قول الله تعالى في السورة هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾ [المائدة: ٩٥].

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾

قاعدة تُعدُّ من قواعد الإسلام العظيمة التي تدل على أنه دين سماوي قائم على العدل والرحمة، وأنه دين الرقي الإنساني ومكارم الأخلاق في زمن فشا فيه الظلم وعمَّ، قاعدة ينبغي لكل مسلم أن يقف معها، وينضبط بها في تعامله مع من يُبغض.

يا أهل الإيمان: لا يحملنَّكم بغضُ الكفار الذين حالوا بينكم وبين توحيد الله والعبودية في المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم بالقتل وأخذ الأموال، لا تفعلوا ذلك واصبروا على ما كان منهم.

أهل الكفر أخرجوا نبينا ﷺ وأصحابه من مكة، وصدوا عن دين الله فيها، ومنعوهم من دخولها يوم الحديبية لما جاءوا من المدينة معتمرين، ومع كل هذا تطالبهم الآية بالعدل معهم، وعدم الاعتداء عليهم.

روى بعض أهل التفسير فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِالْحُدَيْبِيَةِ حِينَ صَدَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْبَيْتِ، وَقَدِ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَمَرَّ بِهِمْ أُنَاسٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ يُرِيدُونَ الْعُمْرَةَ، فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: نَصُدُّ هَؤُلَاءِ كَمَا صَدَّنَا أَصْحَابُهُمْ، فَأَنْزَلَ الله هَذِهِ الْآيَةَ».

وتأملوا يرحمكم ربي كيف جاءت هذا الآية في سياق الصبر على إيذاء أهل الكفر وخبثِ طباعهم، جاءت لترشدَنا إلى تتبع نصوص الشرع في التعامل معهم، وعدمِ الاكتفاء بما نجده في قلوبنا من شنآن، أي: بغض وكراهية.

أقولُ: إذا كان العدل مطلوبا مع غير المسلمين، فكيف يكون حالُه في حق أهل الإسلام؟ أليس أهل الإسلام أولى بذلك وأحقُّ، فيا من تجد في قلبك شيئًا من البغض على إخوانك من المسلمين لسبب ما، سواء أكان مشروعًا أم غير مشروع، اعدلْ معهم وإياك أن تظلمهم أو أن تعتديَ عليهم، وعاملهم بما أذن الله تعالى به في ذلك وائتمر بفقه شريعتك ولا تتجاوز. أخرج أحمد وأبو داود والترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ». وقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا عاملتَ مَنْ عَصَى الله فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ الله فِيهِ».

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾

عيشوا مع أربع كلمات هنا، جاءت جامعة لكل خير ومانعة من كل شر؛ فالبر يقوم على فعل الخيرات والتوسعِ فيها، والتقوى تقوم على أفعالٍ يرجو أصحابها اجتناب سخط الله، والإثم هو المعصية والذنب، والعدوان تجاوز حدود الشرع في المعاملة.

الآية تدعو أبناء هذا الدين إلى التناصر والتعاون على الخيرات، تدعوهم إلى بذل ما يستطيعون من أجل صلاح الناس وإصلاحهم، وتأمرهم بالأخذ على يد العصاة والمُعتدين على أنفس الناس وأموالهم وأعراضهم حتى ينصرفوا عن ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم.

في حياتنا: نعين على الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف ونشر العلم وإحياء الفرائض والسنن، ونفتح للناس طرائق بِرِّ الوالدين وصلة الأرحام والصدق والأمانة والحياء والصبر وكل خصال الخير.

ولا نعين على الربا ولا على شرب الخمور ولا الفواحش، ولا الغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بالباطل، ولا نعين على فساد الأجيال وسرقة عقولها وقلوبها.

ومن أجل هذه المعاني قامت دعائم الدعوة إلى الله، وجاءت كثير من الأحكام الشرعية المبثوثة في الكتاب والسنة وكلام أهل العلم، فالخمر لُعنت فيها عشرة أصناف، تسعةٌ منهم أعانوا ولم يشربوا، والربا لعن فيه الآكل والموكل والكاتب والشاهدَيْن.

ومن أجل حرمة الزنا، أمر الشرع بغض البصر، وأوجب اللباس الشرعي على المرأة، ومَنَعها من الخروج من بيتها مستعطرة، ومَنَعَ الخلوة بالأجنبية، وهي التي يجوز الزواج منها بيوم من الأيام، وحذَّر من الدخول على النساء، وغيرِ ذلك من الأحكام التي يُفهم منها أننا نعيش بمجتمع واحد نتعاون فيه على البر، ونغلقُ أبوابَ الشرور والآثام.

أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا».

وأخرج الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، هَذَا نَصَرْتُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَاكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ».

وتذكروا وأنتم تعيشون مع مثل هذه التوجيهات، أنها لعظمها تحتاج أن يتحلَّى صاحبها بالإيمان الصادق والحكمة والصبر. أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ».

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ ختامٌ للآية يحمل وعيدًا لمن اعتدى على شعائر الله وأعان على إماتتها، ولكل من تجرأ على العدوان والذنوب وأصر عليها وجاهر بها، لكل هؤلاء: احذروا نقمة الله وعذابَه، فإن عذابه أليمٌ مهينٌ، وتسلحوا بتقواه فإن التقوى خير زادٍ ومعينٍ.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾

أحكام شرعية نافعة للناس في علاقتهم مع خالقهم، ونافعة لهم في تحقيق العبودية التي يرتضيها سبحانه، ورَبْطٌ على قلوب السائرين إلى الله تعالى من العلماء وطلبة العلم والدعاة والقابضين على دينهم، ثمَّ تَثْبيتٌ لهم أمام مكر أعداء الدين وأعوانهم وأذنابهم وأذيالهم.

وفي الآية لفتاتٌ تُظهر عظمَ هذا الدين ورعايتَه لمصالح العالمين في العاجل والآجل، فتأملوها أكرمكم ربي.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ الميتة كل حيوان مات من غير ذكاة، أي: من غير ذبح شرعي ولا اصطياد، وقد أخرج البخاري ومسلم عن رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ فَكُلُوهُ» الحديث.

حرَّمَ الإسلام أكْل الميتة لما فيها من مضرة ناشئة من الدم المحتقن الباقي فيها، والذي يعدُّ بيئة خصبة لنمو الجراثيم فيه، ولأن الميتة إنما تموت غالبا لمرض أو عِلة، ولما فيها من احتباس الدم والرطوبة التي لا تزول منها إلا بالذكاة الشرعية، وَلِأَنَّ الْحَيَوَانَ الْمَيِّتَ لَا يُدْرَى غَالِبًا مِقْدَارُ مَا مَضَى عَلَيْهِ فِي حَالَةِ الْمَوْتِ، فَرُبَّمَا مَضَتْ مُدَّةٌ أفسدت لحمه.

ولفظة الميتة في الآية تعم كل ميتة وإن كانت من الأنعام التي أبيح أكلها والانتفاع بها في الآيات قبلها.

ولم يُستثن من تحريم الميتة إلا ميتة البحر من السمك ونحوه، وكذلك أُبيح أكل الجراد، كما دل على ذلك ما أخرجه أصحاب السنن عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَرْكَبُ البَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا القَلِيلَ مِنَ المَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ مِنَ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الحِلُّ مَيْتَتُهُ».

وأخرج أحمدُ وابنُ ماجه أثرًا عنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهذا الأثر له حكم المرفوع إلى الرسول ﷺ، جاء فيه قول ابن عمر: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ، وَدَمَانِ. فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ: فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ».

﴿وَٱلدَّمُ﴾ جماهير الفقهاء قديمًا وحديثًا على أن الدمَ نجسٌ، وإن كان دم إنسان، فلا يجوز أكله ولا شربه، ويجب تطهيره إذا جاء على بدن أو ثوب أو محل.

وقد جاءت آية أخرى فَهِم منها أهل العلم أن الدمَ النجس هو الدمُ المسفوح، وهو الذي يخرج متدفقًا متتابعًا يسيل من عروق الحيوان عند ذبْحه، وفيه جاء قول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، ولفظة رجس تدل على أنه نجس.

وضرر هذا الدم نص عليه غير واحد من أهل التخصص، إلا ما ذكرناه قريبًا من استثناء الكبد والطحال من حرمة الدم، واستثنى أهل الفقه كذلك اليسير من الدم فإنه معفو عنه رفعًا للحرج والمشقة، وكذا ما بقي في عروق الذبيحة المذكاة وعظامها.

﴿وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ التنفير من الخنزير معهود ومعلوم في الشرع، فقد أخرج مسلم عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ، فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ». والنردشير: لعبة النرد التي تلهي عن الخير، وترتبط غالبًا بالقمار، وتُحدث الشحناء بين قلوب لاعبيها.

وتأملوا كيف صَوَّر قبحَ ذلك للتنفير منه بمن وضع يديه بلحم الخنزير ودمه وتلوث بالنجاسة.

وقد أجمع أهل العلم على حرمة أكل لحم الخنزير.

وذهب فقهاء الْحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ إلى نَجَاسَةِ عَيْنِ الْخِنْزِيرِ، وَكَذَلِكَ نَجَاسَةِ جَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَمَا يَنْفَصِل عَنْهُ كَعَرَقِهِ وَلُعَابِهِ.

أما المالكية فقد ذهبوا إلى طهارته وطهارة عَرَقِهِ وَلُعَابِهِ حال حياته وإن حَرُم أكْله، فليس كلُّ محرَّمٍ نجسًا، وذهبوا كذلك إلى طهارة شعر الخنزير وإن كان بعد موته.

ومن الفقهاء من ذهب إلى أن نجاسة الخنزير تُغسل كما تُغسل النجاساتُ الأخرى، ومنهم من ذهب إلى أنها تغسل ثلاثا، ومنهم من اشترط أن تغسل سبعًا كما يُغسل من نجاسة الكلب.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ الْإِهْلَالُ: الْجَهْرُ بِالصَّوْتِ، وهو ما كان يفعله أهل الجاهلية عند ذبح الأنعام، فقد كانوا يُهلون بها لأصنامهم ويَذْكرون اسْمها جهرا عند ذَبْحها.

جاءت الآية تَرُدُّهم إلى التوحيد الخالص الذي لا ينفع غيرُه: إذا قدَّم أحدُكم ذبيحةً فلا يَذكرْ غيرَ اسْم الله عليها، ولا يُعظمْ في ذلك إنسًا ولا جِنًّا ولا صنمًا، بل العظمةُ لله وحده لا إله إلا هو. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ [الأنعام:١٢١].

﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ﴾ يعني: وحُرِّمَ عليكم أكلُ المنخنقةِ، وهي البهيمة التي ماتت لأنها اختنقت، ولم تمت بالذكاة الشرعية المعروفة التي تحصل بها إراقة الدم.

واختناقها قد يكون بفعل فاعل، وقد تختنق بسبب حركتها وهي مربوطةٌ أو غيرِ ذلك.

ومن المسائل المستجدة المتعلقة بالذبح في زماننا، صعق الحيوان بالكهرباء أو استخدامُ طلقة للجمجمة حال ذبح الحيوانات الكبيرة، أو الصعقُ في الماء الذي يحتوي على تيار كهربائي للدواجن، وهذه الوسائل عند أهل العلم إن حصل الموت بها فيكون حكمُ الذبيحة حكمَ الميتة فتَحْرُمُ، وإن فُعلت قبل تذكيتها الشرعية فلا بأس بها إن كانت لإراحة الذبيحة والتخفيف عنها، بمعنى أن صعقها بالكهرباء لا يُمِيتها، وأن الطلقة لا تكون خارقة للجمجمة، وكذلك الدجاج في الماء، ولكن هذه الوسائل تسبب غيابها عن الوعي، ثم يتم تذكيتها شرعا.

على أن عددًا من أهل العلم لا يرتضي الصعق الكهربائي للحيوان، لأنه يؤلمه كذلك، ولا يضمنُ لنا يقينًا أنه لم يمُت بهذا الصعق.

﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾ هِيَ الَّتِي تُضْرَبُ وتُرمى بِشَيْءٍ ثَقِيلٍ كالحجر والخشب والعصا فتموت بلا إراقة دم.

أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه سأل رسول الله ﷺ فقَالَ: فَإِنِّي أَرْمِي بِالْمِعْرَاضِ الصَّيْدَ فَأُصِيبُ (والمعراض هو سهم طويل قريب من الرمح له ثقل)، فَقَالَ ﷺ: «إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَزَقَ فَكُلْهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ بِعَرْضِهِ، فَلَا تَأْكُلْهُ». يعني: لا بد أن يدخل المِعراض إلى بدنه ليكون حلالًا.

﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي الدابة التي تموت بسبب وقوعها مِنْ مكانٍ عَالٍ، كوقوعها من على جبل أو سطح أو جدار أو تقع في بئر، فإذا ماتت بسبب هذا التردي كان أكلها محرمًا.

﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ هيَ الَّتِي مَاتَتْ بِسَبَبِ نَطْحِ غَيْرِهَا لَهَا، يعني: ضربها حيوان آخر بقرنيه فماتت، فلا يحل أكلها.

﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ السَّبُعُ كُلُّ حَيَوَانٍ يَفْتَرِس كَالْأَسَدِ وَالنَّمِرِ وَالذِّئْبِ وَالثَّعْلَبِ والفهد والكلب، وهذه الحيوانات تفترس وتقتل بِالضَّرْبِ عَلَى الْمَقَاتِلِ غالبًا، ولا يكون معها إنهار الدم المطلوب، ولذلك كان ما وجدناه ميتًا بسبب افتراس أيٍّ من السباع له فإنه يحرم أكله وله حكمُ الميتة.

وقد استثنى النص القرآني هنا ما لو هجم السبع على ما يجوز أكل لحمه كبقرة أو حمار وحشي ونحوهما، فَجَرَحه ولم يذبحْه، ثم أدركْنا الذبيحة وفيها حياة مستقرة، فذبحناها ذبحًا شرعيًا وذكَّيناها قبل أن تموت، فهذا يبيح أكلَها، وهو ما أشار إليه قول الله تعالى هنا: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

وقياسًا على ذلك قال أهل العلم: لو أدْرَكْنا منخنقة أو موقوذة أو مترديةً أو نطيحة وفيها حياة مستقرة فذكَّيناها، فهي مباحةُ اللحم وليست محرمةً.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ النصب حجارة منصوبة كان أهل الجاهلية يقرِّبون لها وليست أصنامًا، يعني: كانوا يذبحون عندها الذبائح التي يتقربون بِهَا لِلْآلِهَةِ وَلِلْجِنِّ، وكانوا يُشَرِّحُونَ اللَّحْمَ وَيَضَعُونَهُ عَلَى هذه النُّصُبِ، وقد يستبدلون هذه الحجارة بحجارة أخرى هي أحبُّ إليهم، فَنَهَى الله الْمُؤْمِنِينَ عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ هَذِهِ الذَّبَائِحِ الَّتِي فُعِلَتْ عِنْدَها حتى ولو ذُكر اسمُ الله عند ذبْحها، فإنها ذُبحت على الأنصاب التي هي من شعارات الشرك وأهله.

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ﴾ أَيْ: حَرُمَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الِاسْتِقْسَامُ بِالْأَزْلَامِ الذي هو فعلٌ من أفعال العرب في جاهليتها، كانوا يفعلونه لمعرفة ما قُدِّر لهم وقُسم، ويستعينون به حال ترددهم في سفر، أو تجارة، أو زواج، أوغير ذلك.

والأزلام عبارة عن أعواد نحتوها وصنعوها من خشب أو غيره، ووضعوها عند مسؤول صنمهم الذي يطلق عليه سادن الصنم، وجعلوها ثلاثة: أَحدهَا: مَكْتُوب فِيهِ افْعَل، وَالثَّانِي: لَا تفعل، وَالثَّالِث: مُهمَل لَا شَيْء عليه، ومنهم من قال: مكتوب على هذه الأعواد: «أَمَرَنِي رَبِّي»، والآخر: «نَهَانِي رَبِّي»، والثالث: لا يكتبون شيئًا ويبقونه فارغًا.

فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ سَفَرًا أَوْ عَمَلًا لَا يَدْرِي أَيَكُونُ نَافِعًا أَمْ ضَارًّا، ذَهَبَ إِلَى سَادِنِ صَنَمِهِمْ، وأخذ هذه الأزلام وجعلها في كيس وحرَّكها، ثم يُخرِج واحدًا منها، فَإِذَا خرج المكتوب عليه «أمرني ربي» ذهب إلى حاجته، وإذا خرجت عبارة «نهاني ربي» لم يذهب، وإذا طلع الفارغ أعاد الاستقسام.

أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا قَدِمَ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ البَيْتَ وَفِيهِ الآلِهَةُ، فَأَمَرَ بِهَا فَأُخْرِجَتْ، فَأَخْرَجُوا صُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي أَيْدِيهِمَا الأَزْلاَمُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَاتَلَهُمُ الله، أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا قَطُّ». فَدَخَلَ البَيْتَ، فَكَبَّرَ فِي نَوَاحِيهِ، وَلَمْ يُصَلِّ فِيهِ.

قال الله عن استقسامهم بالأزلام :﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أَيْ: تَعَاطِيهِ خروج عن طاعة الله تعالى، وهو ضَلَالٌ وَجَهَالَةٌ، وفيه استعانة بغير الله، وتعلُّقٌ بما لم يجعله الشرع سببًا للنفع أو للضر، ولم يجعله طريقًا لمعرفة الخير من الشر.

ومعلوم لديكم أن الناس تتخذ طرائق محرمة لكشف الغيب ومعرفة ما ينفعهم وما يضرهم، كالتطيُّر والقراءة في الفنجان والكفِّ والكهانة وقراءة الأبراج، وهذه كلُّها من حيل الشياطين وطرائق أهل الشرك، فليحذرها أهل التوحيد النقيِّ والعقيدة الصافية.

تعالوا إلى ما نصبه الشرع وجعله شعارًا لأهل التوحيد إذا ما ترددوا في أمورهم وكانوا في حَيْرة من أمرهم، وإذا ما طلبوا السداد في رأيهم، تعالوا إلى دعاء الاستخارة بعد صلاة ركعتين، دعاءٌ يبرأ فيه قائله من حوله وقوته إلى عالم الغيب والشهادة، إلى من بيده مقاليد السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، إلى من يعلم السر وأخفى، دعاءٌ فيه التسليم لأمر الله وقدَرِه، وحكمتِه وعلمِه، إنه مفتاح إكرام الله لعبده ليفعلَ ما اطْمأنَّتْ إليه نفسه، ويعلمَ أن الخير كله فيما قُدر له وحصَل.

أخرج البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ، يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ

العَظِيم، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي» قَالَ: «وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ».

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ﴾

الحمد لله الذي أكرمنا بالقرآن وجعله بشرىٰ لأهل الإيمان في الدنيا، وأنزل فيه مثل هذه الآيات التي تعطي قائلها الثقة بهذا الدين، وبأن النصر والتمكين سيكون لأولياء الله المؤمنين العاملين، بل نجد مثل هذه الآيات تربطُ علىٰ قلوب الدعاة إلىٰ الله وتنيرُ بصائرهم وتجعلُهم أكثر تفاؤلًا وإيجابيةً.

وكأني بمن تنزلت عليهم هذه الآيات، قد طارت قلوبهم بها فرحًا، فإنها جاءت في سورة المائدة التي كانت من أواخر ما نزل، بل كانت هذه الآية مما نزل يوم حَجَّة الوداع، ذاك اليوم الذي أعزَّ الله دينَه فيه.

هذه الآية تُبشر أهل التوحيد أن أهل الكفر أيقنوا بأن دين الإسلام قد تمكن في الأرض، وأن أصنامهم لن تعود إلىٰ ما كانت عليه، تبشرهم أن الدين سيسْتحكم في القلوب، وسيكتبُ الله له القبول في الزمان وفي المكان، لن يتوقف انتشاره، ولن يفتر أتباعه عن تبليغه للعالمين، وعن بذل الغالي والنفيسِ من أجل عِزته وعزة أهله بين الناس أجمعين.

أخرج مسلم عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ».

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ﴾ طريق الجنة ليس مفروشًا بالورود، بل تجدون فيه من يصدُّ عن دين الله، تجدون أهل الكفر ومعهم أقوامٌ من أبناء جلدتنا يمكرون الليل والنهار ليسوموا أهلَ الله ألوانًا من العذاب، وليرفعوا رايات الكفر والشرك في الأرض، فلا تخشوهم ولا تخافوهم، واصبروا علىٰ مخالفتهم واثبتوا علىٰ مدافعتهم.

المؤمنون لا يخشون إلا الله، ويعلمون أنَّ النفع والضر والموت والحياة والبعث والنشور بيده وحده سبحانه، ويوقنون بأن الله تعالىٰ سينصرُ عباده علىٰ عدو الله وعدوهم، وسيشفي صدروهم منهم، وسيجعلهم فوقهم في الدنيا والآخرة.

المؤمنون يستعينون بالله وحده، ويبذلون ما استطاعوا لمدافعتهم ومكابدتهم، مستحضرين ما وعدتهم نصوص الشريعة به وبشَّرتهم، بأن هذا الدين سيبلغُ ما بلغ الليلُ والنهار بإخلاص أهله وعملِهم وجِدِّهِم وثباتِهم.

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

نِعمةٌ من نعم الله العظيمة التي أكرمنا الله تعالىٰ بها، نعمةٌ تتعلق بأغلىٰ ما في حياتنا الدنيا، إنه دينُنا الذي ارتضاه ربُّنا لنا واصطفانا له، دينُنا الذي أخبرتنا الآية هنا بأن الله تعالىٰ أتمَّ نعمتَه علينا وأكْملَه لنا.

أكمل الله تعالىٰ هذا الدين بإنزال خير كتبه، وإرسال خير رسلة عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه، وبسطَ في كتابه وعلىٰ لسان رسوله ما تحتاجه الأمة في أمور العقيدة من التعرُّفِ علىٰ الخالق بأسمائه وصفاته، وعلىٰ طرائق الإخلاص له في العبودية وتوحيده، وعلىٰ ما تَدينُ له به من الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فَلَا تَحتاجُ إِلَىٰ دِينٍ غَيْرِهِ ولا إلىٰ فكرة أخرىٰ في ذلك.

وأكمل الله لأمة الإسلام ما يحتاجونه من سياسة دنياهم، فعلمهم أن الحكم لله وحده، وأن الأمة أمة واحدة، وأن حاكمها موقوف بين يدي ربه، وأننا مأمورون بالأخذ علىٰ يده ونصرته فيما نصر الله فيه، وأن أعداء الأمة يتربصون بها ولن يرضوا عنها حتىٰ تتبع طرائقهم، وأن الله شرع للمؤمنين جهادَ عدوهم وبصَّرهم بما يحتاجونه من أحكام في جميع ذلك.

وأكمل لهم ما يحتاجونه في تعاملهم مع أبناء مِلتهم، من علاقةٍ بين الآباء والأبناء، والأزواج والزوجات، والأرحام والجيران، وكلِّ المسلمين، ثم إلىٰ ما يحتاجونه في تعاملهم مع غير المسلمين حال سِلمهم وحربهم.

وأكمل لهم ما يحتاجونه في معاشهم ورزقهم، فبيَّنَ لهم طرائق الكسب المأذون به وكذا الممنوع، ثم وجَّههم إلىٰ ما يلزم أصحاب المال منهم من واجبات ومندوبات ومباحات، وتولَّىٰ الشرع بنفسه إدارة المال بين الناس، وشرع من أجله أنظمة وأحكامًا تضمن تحقيق مقاصد ما شرع، وبيَّن كل ذلك بتفاصيله في أحكام الزكاة والميراث والوصايا والهبات والوقْف، والغنائم والفيء والخَراج، وغيرِ ذلك.

وشرع لهم نظام العقوبات ونظام القضاء، وأَجْمل في ذلك وفصَّل، فسبحان الحكيم الخبير الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. قال أهل العلم: أَيْ: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ اليَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَؤُونَهَا، لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ اليَهُودِ نَزَلَتْ لاَتَّخَذْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ عِيدًا. قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ قَالَ عُمَرُ: «قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ، وَالمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، نزلت وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ».

وأخرج الترمذي أن ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قرأ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وَعِنْدَهُ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: لَوْ أُنْزِلَتْ هَذِهِ عَلَيْنَا لَاتَّخَذْنَا يَوْمَهَا عِيدًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي يَوْمِ عِيدَيْنِ: فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ، وَيَوْمِ عَرَفَةَ».

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ وتمت نعمة ربنا علىٰ أصحاب محمد ﷺ بكمال الدين، وبنصرهم وتطويع أعدائهم، وتحقيق الأمن لهم وزوال الخوف عنهم في حَجِّهم وسائر أمرهم.

وكذا تمت نعمة الله علىٰ من جاء بعدهم بحفظ دينهم عليهم، ودخول الناس فيه أفواجًا أفواجًا، واصطفاء الله تعالىٰ منهم شهداء وعلماء ودعاة، وآمرين بالمعروف وناهين عن المنكر.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ هذا سِرٌّ من أسرار سعادة الواحد منا في حياته، أن يرضىٰ بالإسلام دينًا وتطمئن نفسه به، ولا يبتغ غيره من ضلالات أهل الأرض وتلاعبهم وتحريفهم.

أخرج الإمام مسلم عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا».

ومن ذاق هذه الحلاوة سَهُلت عليه طاعة الله، ولذَّت عينُه بها، ورضيَ بما قدَّره الخالق له أيًّا كان، وصبَر عن شهوات النفس وذنوب الخلوات، وسخَّر النِّعم فيما يُرضيه سبحانه.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

حرَّمت الآية في أولها جُملة من المطعومات حال الاختيار لما فيها من مضارَّ، ثم جاءت الآية في آخرها تُراعي مصلحةً تخصُّ حفظ النفس من وجه آخر، وتراعي أخف الضررين علىٰ من أصابته مَخْمصةٌ، أي: جوع شديد.

الآية تأذنُ لمن اضطر في هذه المخمصة إلى أكل شيء من المحظورات، كأنْ خشي هلاك نفسه، ولم يجد غير الميتة أو المنخنقة مثلًا لإنقاذ حياته، فلا حرج في أن يأكل من هذه المحرمات ما لم يكن متجانفًا لإثم، أي: مائلًا إلى الإثم بأكله زيادة عما يحتاج، فإن الضرورة تُقدر بقدرها.

وهذه رحمةٌ من الله بعباده، أنْ غفر لهم ذلك، وتجاوزَ عنهم لحاجتهم واضطرارهم، بل ذهب كثير من الفقهاء إلى وجوب الأكل من المحرمات للقادر على إنقاذ حياته بذلك إذا لم يجد غيرها، فإن لم يفعل فهو في حكم القاتل لنفسه.

أخرج أحمد وابنُ حبان وغيرُهما، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ». وفي لفظٍ عند ابن حبان عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه: « إِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يُحبُّ أن تُؤتى عزائمُه».

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

يسأل الصحابة رضوان الله عليهم النبيَّ ﷺ: ماذا أُحل لهم من المطعومات؟ قل: أُحل لكم كلُّ طعام طيب غيرِ ضار ولا مُستقذَر، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨].

هذه الآية جاءت بذكر المباحات بعد ذكر المحرمات، وقد أكرمنا الله تعالى بكرمه في ذلك وجعل المباحات فيما نأكله ونشربه أكثر بكثير من المحرمات، فالشراب كله مباح إلا المُسْكر وماكان نجسًا أو فيه ضرر.

أما المطعومات فإما أن تكون من غير الحيوان، وإما أن تكون من الحيوان، فإن كانت من غير الحيوان فلا يحرم منها إلا ما كان نجسًا أو مُضرًّا كالسُّموم والمخدرات مثلًا.

وإن كانت من الحيوان فقد أحل الله كلَّ مأكولات البحر، وحرم من مأكولات البر كلَّ ذي ناب من السباع، وكلَّ ذي مخلب من الطير، وبَعْضًا من الحيوانات المستخبثة المنصوص عليها في كتب أهل العلم.

والنص القرآني هنا جاء بقاعدة نافعة في ذلك، قال الله تعالى فيها: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾، فالأصل هو إباحة كل ما كان طيبًا، وهذا يُفهم منه تحريم كل ما كان خبيثًا، وهو المعنى الذي نصت عليه آية سورة الأعراف في صفة نبينا ﷺ الذي بشَّرت به الكتب السابقة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني: وأحل لكم كذلك صيد الجوارح التي علمتموها على الصيد لكم، حتى أصبحت تأتمر بأمركم، أي: تنزجر إذا زجرتموها، وتجيبكم إذا دعوتموها، وتذهب إلى الصيد إذا أرسلتموها، وإذا أمسكت الصيد لا تأكل منه بل تمسكه لكم.

هذه الجوارح حيوانات تجرحُ فريستها لينتفع بها الصائد أكْلًا أو بيعًا أو غير ذلك، وقد تكون هذه الجوارح من الطير كالصقر والباز والعُقاب، وقد تكون من السباع كالكلب والفهد والنمر.

ولفظة: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي: مؤدِّبين ومعلمين ومدربين. والمكلِّب هو الذي يعلم الكلاب كيف تصطاد ويؤدبها.

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: تؤدبون تلك الجوارح وتعلمونها كيف تصطاد بطرائق يسَّرَ الله لكم أن تتعلموها وتُعلموها لهذه الجوارح، وذلك لتنتفعوا بالطيبات وتسعدوا بها.

واستُدِل بالآية على جواز تعليم الحيوان وضربه للمصلحة، فإن التعليم قد يحتاج إلى ذلك.

واستطرادًا في بيان ما يتعلق بالآية من أحكام، فقد ذكر أهل العلم هنا مسألة اتخاذ الكلب للصيد، وبيَّنوا جوازها الذي دل عليه ما أخرجه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنِ اقْتَنَى كَلْبًا، إِلَّا كَلْبَ صَيْدٍ، أَوْ مَاشِيَةٍ، نَقَصَ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطَانِ». والقيراطان قدْر محدود من حسناته التي يفعلها.

والكلب يباح استعماله في الحراسة، ويجوز الانتفاع به فيما يحقق المصالح العامة، كَتَعَقُّبِ اللصوص، وإنقاذ الغرقى، وقيادة العميان، أما غير ذلك فالأصل فيه المنع.

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ من شروط جواز الأكل من الصيد أن لا تأكل الجارحة منه، فإن أكَلت منه فقد أمْسكَتْ لنفسها ولم تُمسك لمن أرسلها.

ومن العلماء من أجاز أكلها إذا كانت الجارحة من الطيور وأكلت لنفسها، وذلك لصعوبة تعليمها بألا تأكل، على خلاف جارحة السباع.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ فَقَتَلَ فَكُلْ، وَإِذَا أَكَلَ فَلاَ تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَهُ عَلَى نَفْسِهِ» قُلْتُ: أُرْسِلُ كَلْبِي فَأَجِدُ مَعَهُ كَلْبًا آخَرَ؟ قَالَ: «فَلاَ تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا سَمَّيْتَ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى كَلْبٍ آخَرَ».

وأخرج البخاري ومسلم عنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا بِأَرْضِ قَوْمٍ أَهْلِ الكِتَابِ، نَأْكُلُ فِي آنِيَتِهِمْ، وَأَرْضِ صَيْدٍ أَصِيدُ بِقَوْسِي، وَأَصِيدُ بِكَلْبِي المُعَلَّمِ وَالَّذِي لَيْسَ مُعَلَّمًا، فَأَخْبِرْنِي: مَا الَّذِي يَحِلُّ لَنَا مِنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «أَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ بِأَرْضِ قَوْمٍ أَهْلِ الكِتَابِ تَأْكُلُ فِي آنِيَتِهِمْ: فَإِنْ وَجَدْتُمْ غَيْرَ آنِيَتِهِمْ فَلاَ تَأْكُلُوا فِيهَا، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَاغْسِلُوهَا ثُمَّ كُلُوا فِيهَا، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ بِأَرْضِ صَيْدٍ: فَمَا صِدْتَ بِقَوْسِكَ فَاذْكُرِ اسْمَ الله، ثُمَّ كُلْ، وَمَا صِدْتَ بِكَلْبِكَ المُعَلَّمِ فَاذْكُرِ اسْمَ الله ثُمَّ كُلْ، وَمَا صِدْتَ بِكَلْبِكَ الَّذِي لَيْسَ مُعَلَّمًا فَأَدْرَكْتَ ذَكَاتَهُ فَكُلْ». يعني: إذا صاد كلبٌ غيرُ معلم بقرةً وحشيةً مثلًا، ثم أدركها الصائد قبل أن تموت وذكَّاها الذكاة الشرعية، فقد أباح له الشرع أكلَها والانتفاعَ بها.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ التسمية عند إرسال الجارحة أو إطلاق السهم أو الرصاصة للصيد، شرطٌ لصحة الصيد عند جمهور الفقهاء، فالحنفية والمالكية واجبة عندهم مع الذِّكر ساقطةٌ مع النسيان، يعني: يُعذر إذا نسي أن يسمي ويحلُّ الصيد، بخلاف ما لو تعمد ذلك فلا يحلُّ.

والحنابلة اشترطوها ولم يعذروا بتركها نسيانًا، فالصيد عندهم لا يحل إذا تَرك الصائدُ التسميةَ، سواء تركها عمدا أو نسيانًا.

أَمَّا الشَّافِعِيَّةُ فالتسمية عندهم سنة وليست شرطًا، والصيد مباح عندهم وإن ترك التسمية عمدًا، مع كراهة تعمد ترك التسمية على الصيد، ولكلٍّ أدلته في ذلك ، مظانها مراجعهم وكتبهم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ هذا مقصود أحكام الشريعة التي جاءت هنا في الآية كما جاءت في غيرها، ومقصودها تحصيل تقوى الله عند العبد، وذلك بالحرص على ما ينفعه بين يدي ربه، قبل أن يأتي اليوم الذي يحاسب الله فيه الناس حسابًا سريعًا على ما قدموا.

هنا وصيَّةٌ من الله تعالى للناس بأن يتقوه بالتزام ما أوجبَ وشرَعَ، واجتناب ما نهى وحرَّم، وأن يراقبوه في ذلك، وأن تتحرك قلوبهم بالتعظيم لينالوا الدرجات العلا في النعيم المقيم.

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾

في عام الوداع أظهر الله دينه وأعزه، وتمَّت نعمته على محمد ﷺ وصحبه، بل على المسلمين جميعًا بإكمال الدين ودخول كثير من الناس ممن حولهم فيه.

جاءت الآية تؤكد إظهار نعمةٍ من نِعَم الله علينا في شَرْعه وقَدَرِه، نعمةٍ عظيمةٍ لا يليق بواحد منا أن يتجاوزها أو يتناساها، ابتدأت من نزول الوحي، وتمت معالمها وأحكامُها يوم أكمل الله الدين، تلك هي نعمة إباحةِ كلِّ ما هو طيب، وعدمِ التضييق علينا في أكلنا وشربنا وحاجاتنا، وعدم التضييق في سبل تحصيلها.

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ الذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى، وهؤلاء يعتقدون تحريم الذبح لغير الله في دينهم، وتأمرهم كتبهم بذكر اسم الله على ذبائحهم، وقد علم الشرع كثرةَ اختلاطنا بهم بخلاف غيرهم، فكان التيسير الذي عهدناه في الشرع بإباحة ما ذبحوه وما طبخوه، وقد أخرج البخاري قصة قبول النبي ﷺ الشَّاة التي أهداها له يهودُ خيبر وأكْلِه منها، والتي كانت مسمومة.

وهل يباح كذلك صيد أهل الكتاب؟ والجواب أنه مباح يجوز أكله عند جمهور الفقهاء خلافا للمالكية.

وهل يلزمنا سؤالهم: هل ذكروا اسم الله عند الذبح أم لم يذكروه؟ والجواب أنه لا يلزمنا ولا يجب علينا، فقد أخرج البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: أَنَّ قَوْمًا قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَا بِاللَّحْمِ، لاَ نَدْرِي: أَذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ أَمْ لاَ؟ فَقَالَ: «سَمُّوا عَلَيْهِ أَنْتُمْ وَكُلُوهُ» قَالَتْ: وَكَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِالكُفْرِ. يعني: أسلموا جديدًا.

ولكن لو علمنا يقينًا وثبت لدينا أنهم ذبحوا بطريقة غير شرعية، فيحرم علينا أكلهم.

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ ويحل لكم أَن تُطعموهم من طعامكم الذي أَحل الله لكم، لأَن الإِسلام لا يمنع من مؤاكلة المخالف في الدين، فإرسال الطعام لهم مما أباحه الشرع، بل امتدح من يُطعم الأسير الذي يكون غالبًا منهم، كما في قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨].

ومؤاكلتهم ومخالطتهم في سبيل دعوتهم إلى الله، وشرح تعاليم الإسلام، وترغيبهم في اعتناق هذا الدين، مما لا حرج فيه ما لم تكن هناك منكرات.

أما إذا عرف عنهم التمادي في الضلال، وإعانتُهم على إيذاء المسلمين والصدُّ عن دين الله، فمثل هؤلاء لا يُؤاكلون ولا يُجالسون إلا لضرورة أو حاجة، وقد أخرج أبو داود والترمذي وغيرهما بسند حسن، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ».

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أحل الله للمسلم أن ينكح المحصنةَ من أهل الإيمان، والمحصنةُ هي العفيفة من النساء التي لا تفعل الزنا وليس لها عشيق أو صديق بالسر، ولا تسلم نفسها لأي رجل قَصَدها بالفاحشة ونحوها.

ولفظة العفيفة هنا تشير إلى ضرورة اختيار من يرضى الزوج دينها، ولا يتساهل في ذلك، ولعلكم تأملتم كيف جاءت الآية هنا بذكر لفظة المؤمنات، وهذا فيه إرشاد للمقبلين على إنشاء جيل صالح مُصلح في هذه الأمة بأن يُحسنوا اختيار أمهاتهم، وأن لا يتهاونوا ويتبعوا أهواءهم في ذلك. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ قال: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ».

وهذا الإرشاد لا يقتصر على المقبلين على الزواج، بل هو كذلك للفتاة التي تقدم إليها من يريدها زوجة له، فقد علَّمها الشرع وعلَّم وَلِيَّها أن يكون السؤال عن دين الخاطب وخُلُقه، فإن حصل الرضا عنهما فهذا خير معين لها في عطائها. أخرج الترمذي وابن ماجه بسند حسن، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ، وَفَسَادٌ عَرِيضٌ».

واستحضار مثل هذه المعاني يجعلنا ندرك قيمة الخطاب القرآني: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣].

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هذا مَلْمح آخر نظرت إليه الشريعة في الزواج، واستحضرت فيه بُعدًا من أبعاد القوامة التي جعلها الشرع للرجل بحكم ما أعطاه الله من أسباب ذلك، وهو ملمح نفيس أكرم الله بسببه كثيرًا من بنات اليهود والنصارى بالإسلام.

تأملوا كيف أذن الشرع هنا وأباح للرجل أن ينكح امرأة من أهل الكتاب، تكون عفيفة، أي: بعيدة عن الزنا، حريصة على فضائل الأخلاق التي جاءت بها كل الشرائع السابقة.

صحيح أنَّ الأصل في الإسلام هو حرمة الزواج بين المسلمين وغيرهم، ولكنه استُثني من ذلك مسألة فقهية واحدة، وهي زواج الرجل المسلم من يهودية أو نصرانية محصنة، والتي جاءت في الآية هنا، فيبقى غيرهن من باقي المِلل مُحرَّمًا وممنوعًا في الإسلام.

ولقائل أن يقول: ولم منع الإسلام زواج المسلمة من الكتابي ولم يأذن به كما أذن للرجل المسلم أن ينكح كتابية؟

والجواب أن الإسلام راعى في ذلك ما هو معلوم للقاصي والداني من أن المرأة تبع لزوجها غالبًا، وأن زواجها من غير المسلم باب عظيم من أبواب فتنتها عن دينها، فإن عاطفتها وحنوها وقلبها مرتبط بزوجها، ويخشى عليها من أن تتبع دينه، ولذلك حرم عليها النكاح من غير المسلم مطلقًا، بخلاف المسلم الذي نكح كتابية، فإن له قوة عليها وعلى التأثير بها، وهو ما وجدناه في واقعنا على الغالب.

وزواج المسلم من الكتابية حالة استثنائية اقتصر الشرع على إباحتها دون استحبابها، بل ذهب أصحاب المذاهب الأربعة إلى كراهة هذا الزواج، بل قال سبحانه: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وذلك على قول من جعل لفظة الشرك هنا عامة في غير المسلمين.

ولذلك نوجه المقبلين على الزواج دومًا إلى اختيار من يرضى دينها، ممن أقبلت على الطاعةِ في زمن الغربة العجيب الذي نعيشه، مع أخذنا بعين الاعتبار ظروفًا خاصةً قامت عند بعض الرجال أحوجتهم لنكاح غير المسلمات، ونأخذ على أيديهم في الإحسان إليهن ودعوتهن إلى الإسلام لعل الله تعالى يكتب هدايتهن واصطفاءهن لهذا الدين.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أجورهن أي: مُهُورَهُنَّ.

وهذا فيه دليل على وجوب المهر في عقد الزواج، مع أنه ليس من أركانه، فعقد الزواج الذي لم يفرض فيه المهر وحصل الدخول فيه بين الزوجين، عقد صحيح ويجب على الزوج أن يعطي الزوجة مهر مثيلاتها.

وهذا المهر فيه معنى تعويض المرأة عن قيامها على منفعة زوجها، وبَذْلها وعطائها معه، ولذلك جاء هنا بلفظ الأجرة.

والمهر علامة من علامات التفرقة بين النكاح وبين الزنا والصداقة التي تكون خارج إطار الزوجية، وهو علامة صِدْق من الزوج في طلبه، وفيه تكريم للمرأة لا يخفى، ثم إنه سبب من أسباب فرَحِها وسعادتها لإتمام استعدادها لبيتها الجديد وحياتها الخاصة بها.

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍۗ﴾

أنتم كذلك أيها الرجال: العفة مطلوبة منكم، والشرع لا يرضى للعفيفات الطاهرات رجالًا مسافحين، أي: يفعلون الزنا ويتعاطَوْنه، ويَضْعفون أمام داعيات الفحش والرذيلة.

والإسلام لا يرضى للصالحات رجالًا متخذي أخدان، أي: لهم عشيقات وصديقات بالسِّر. قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:٢٦].

تأملوا حرص الإسلام على أبنائنا وبناتنا، تأملوا قيمة الفضيلة والخلق الطيب الحسن، تأملوا خطورة ما يفعله عدد من أبناء المسلمين وبناتهم في زماننا من تهاونهم في علاقاتهم، تأملوا قيمة الأسرة التي رفع الإسلام عمادها بنفسه، وشرع لها من الأحكام والتوجيهات ما يحفظ عليها كيانها وديمومتها، وكأني بكل كلمة في هذا المقام تعطينا شيئًا من معالم التفكير النافع لصاحبه في هذه الحياة الدنيا.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

ختام للآية يحمل تذكيرًا بأصل من أصول عقيدتنا، يقول لنا: لا تظنوا أن إباحة الزواج من الكتابيات يدل على الرضا عن دينهن، فإن اليهود والنصارى كفروا بالإيمان الذي جاء به محمد ﷺ، ونسبوا لله ولأنبيائه ما لا يصح، ومن كان حاله كذلك، فإن الله تعالى لا يقبل منه عملَه، ولا يُدخِله الجنة، وإن ظنوا أنهم يحسنون صنعًا.

وختام الآية يحملنا كذلك على دعوة أهل الكفر، والحرص على إيصال التوحيد إليهم، وبذل ما نستطيعه لإنقاذهم من سخط الله وعذابه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾

نداءٌ قرآنيٌّ جاء لأهل الإيمان، وهم الذين خوطبوا في جميع نداءات القرآن التي تخص المسلمين، وكأن الإيمان هو مفتاح المسارعة في الاستجابة لأمر الله لنكون من أصحب النعيم المقيم في جنة رب العالمين، مع أنبياء الله وأحبابه ومن اصطفاهم لطاعته وشرحَ صدورَهم لمرضاته.

ديننا أكمله الله لنا، وعلمنا كل ما يلزمنا لنعبده، ولأن الصلاة عمود الإسلام وركنُه الذي لا يَتهاون فيه من عَظَّم ربه، ولأن الطهارة شرطُ صحةٍ لها، ولا تصح الصلاة إلا بتمامها، جاءت الآية هنا بأحكام متعلقة بهذه الشعيرة العظيمة.

أخرج مسلم عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ» الحديث، وأخرج مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لا يَقْبَلُ الله صَدَقَةً مِنْ غُلُول (وهو السرقة من الغنيمة قبل توزيعها)، وَلَا صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾

الآية هنا فيها فرائض الوضوء الذي لا تصح الصلاة إلا به، وهو واجب على من أحدث حدثًا أصغر، كأن بالَ أو أخرج بُرازًا أو ريحًا أو نام، أو غيرَ ذلك من نواقض الوضوء.

قال أهل العلم : الوضوء هو التعبد لله عَزَّوَجَلَّ بتطهير أعضاء مخصوصة، وله فرائض لا يصح الوضوء إلا بها، وله سنن إن فعلها كان ثوابه أعظمَ وأكبرَ.

والوضوء شعيرة من شعائر الإسلام، ومِيزة لهذه الأمة العظيمة المباركة، وهو سَمْتٌ للمؤمن يُعرف به غدًا في أرض المحشر.

هناك، يُكرم الله تعالى أهل الوضوء بنورٍ في وجوههم وأطرافهم، يختصون به بين الأمم، ويعرفهم به حبيبهم وقدوتهم وقرة أعينهم محمد ﷺ.

أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ (يعني مساحته أكبر من المسافة ما بين العقبة وعدن)، لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ، وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ، كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ».

والغرة بياض في وجه الفرس، والتحجيل بياض في قوائمها، قالَ الْعُلَمَاءُ: سُمِّيَ النُّورُ الَّذِي يَكُونُ عَلَى مَوَاضِعِ الْوُضُوءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرَّةً وَتَحْجِيلًا تَشْبِيهًا بِغُرَّةِ الْفَرَسِ، وبهذا الحديث استدل أهل العلم على أَنَّ الْوُضُوءَ مِنْ خَصَائِصِ هَذِهِ الْأُمَّةِ زَادَهَا الله تَعَالَى شَرَفًا.

وأخرج مُسْلِم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ خَلِيلِي ﷺ يَقُولُ: «تَبْلُغُ الحِلْية (أي: البياض والزينة) مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ».

وقد جعله النبي ﷺ سببًا من أسباب مغفرة الذنوب، وأخبر أن الإنسان كلما توضأ خرجت خطايا أعضائه مع قطرات الماء ، وأن من توضأ كما توضأ ﷺ ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر الله له ما تقدم من ذنبه، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة.

أخرج أحمد وغيره عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي يَقُومُ أَحَدُهُمَا مِنَ اللَّيْلِ فَيُعَالِجُ نَفْسَهُ إِلَى الطَّهُورِ وَعَلَيْهِ عُقَدٌ (أي: عقد من الشيطان) فَيَتَوَضَّأُ، فَإِذَا وَضَّأَ يَدَيْهِ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا وَضَّأَ وَجْهَهُ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا مَسَحَ رَأْسَهُ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا وَضَّأَ رِجْلَيْهِ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَيَقُولُ الرَّبُّ لِلَّذِينَ وَرَاءَ الْحِجَابِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُعَالِجُ نَفْسَهُ، مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ».

الآية تخاطب أهل الإيمان: إذا أردتم أن تقوموا لطاعة ربكم ومناجاته، وتُسارعوا لمرضاته والتلذذ بالوقوف بين يديه، فتوضؤوا كما أمرت الآية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فيها إشارة إلى أن القائم لا يريد بقيامه إلا الصلاة، وأنه قصدها بقلبه، وعقد النية لها.

والنية في الوضوء محلها القلب، ولا يصح الوضوء بدونها عند جمهور الفقهاء، خلافًا للحنفية القائلين بأنها سنة من سنن الوضوء.

﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ الغَسْل هو إسالة الماء، وهو مأمور به في الوجه واليدين والرجلين، بخلاف الرأس الذي جاء الأمر فيه بالمسح، أي: بأن تَمُرَّ اليد المبلولة على الرأس.

والوجه هو ما نواجه به غيرنا، وحَدُّهُ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ: من أعلى الجبهة أو من مَنَابِتِ شَعْرِ الرَّأْسِ إلى أسفل الذقن طُولًا، وَمِنَ شحمة الْأُذُنِ إِلَى شحمة الْأُذُنِ عَرْضًا.

﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ اليد تبدأ من أطراف الأصابع إلى المرفق، وهو محل التقاء الساعد مع العضد، ويدخل المرفق في الغسل عند جماهير الفقهاء، فيكون معنى ﴿إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ أي: مع المرافق، وذلك كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾ [النِّسَاء: ٢] أي: مع أموالكم.

﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ مسحه فرض بإجماع أهل العلم، يجزئ عند الحنفية مسحُ رُبْعه، ويجب مسحه جميعًا عند المالكية والحنابلة، أما الشافعية فيكفي مسح شعرات منه وإن كانت واحدة، ولكلٍّ أدلتُه.

والثابت في هدي النبي ﷺ كما في البخاري ومسلم عن عَبْدِ الله بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في وصف وضوئه ﷺ أنه مَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ، فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَأَدْبَرَ، بَدَأَ بِمُقَدَّمِ رَأْسِهِ حَتَّى ذَهَبَ بِهِمَا إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ رَدَّهُمَا إِلَى المَكَانِ الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ».

﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ الكعبان هما العظمان البارزان في جانب القدم في محل التقائه بالساق، ويوجد في كل قدم كعبان، ووجوب الغسل للرجلين قال به جماهير أهل السنة.

وتأملوا حركة اللام في لفظة ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ كيف جاءت بالفتح، بمعنى أنها معطوفة على الوجه والأيدي التي جاءت بالفتح كذلك، والواجب فيها الغسل كما تقدم معنا.

وقد جاءت قراءة صحيحة في لفظة ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ بكسر اللام، بمعنى أنها معطوفة على الرأس الذي يجب فيه المسح وليس الغسل، لكن هذه القراءة لم يفهم منها أصحاب المذاهب الأربعة أنها معطوفة على الرأس، ولكنها جاءت مكسورة للمجاوَرَة، أي: لأنها مُجاوِرة للكلمة المكسورة في لفظها، بمعنى أنها معطوفة على اللفظ وليس على المعنى، وهو أسلوب من أساليب العرب في لغتها، ذكر عليه أهل العلم شواهد متعددة كقولهم: «هذا جُحرُ ضَبٍّ خَرِبٍ» مع أن

لفظة (خرب) صفة للجحر فحقها أن تكون مرفوعة، لكنها كسرت لمجاورتها للفظة الضب المنتهية بتنوين الكسر.

واعلموا أن إيصال الماء لكامل القدم فرض، والكعبان يجب غسلهما كذلك عند جمهور أهل العلم، ولا يليق بمن وجد لذة في وضوئه واستعداده للصلاة، وبمن استحضر بين يَدَيْ من سيقف، أن يتهاون في تعميم الماء على القدم، وفي ذلك أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: رَجَعْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِمَاءٍ بِالطَّرِيقِ تَعَجَّلَ قَوْمٌ عِنْدَ الْعَصْرِ، فَتَوَضَّئُوا وَهُمْ عِجَالٌ (أي: مستعجلين) فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ وَأَعْقَابُهُمْ تَلُوحُ لَمْ يَمَسَّهَا الْمَاءُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ». يعني: لا تتهاونوا في إيصال الماء إلى مؤخر القدم وغسلها.

وقد أخرج مسلم عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا تَوَضَّأَ فَتَرَكَ مَوْضِعَ ظُفُرٍ عَلَى قَدَمِهِ، فَأَبْصَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وُضُوءَكَ» فَرَجَعَ، ثُمَّ صَلَّى.

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ الجنابة وصف معنوي يقوم بالبدن يمنعه من الصلاة والطواف ومس المصحف وغير ذلك، ويكون سببه الجماع وإن لم ينزل معه مني، أو نزول المني بشهوة ولو من غير جماع كالاحتلام وغيره.

وهو حدث أكبر يجب فيه الغسل، وهو المقصود بالتطهر في الآية هنا، وله ركنان: النِّية، وتعميم الماء على البدن.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾

هذا الموضع من الآية دليل على رخصة التيمم لمن لم يجد الماء وأراد رفع الحدث للعبادة، أو لمن وجد الماء ولكنْ تعذَّر استعماله وصَعُب لسبب ما، كأنْ يكون جريحًا يضره وصول الماء إلى موطن الجرح، أو يكونَ الماءُ قليلًا لا يكفي إلا للشرب، أو لا يستطيع الوصول إليه لوجود عدو، وغير ذلك.

أخرج أبو داود والترمذي والنسائي، أن النبي ﷺ قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ: إِنَّ الصَّعِيدَ الطَّيِّبَ طَهُورٌ، وَإِنْ لَمْ تَجِدِ الْمَاءَ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ، فَإِذَا وَجَدْتَ الْمَاءَ، فَأَمِسَّهُ جِلْدَكَ».

وهذه الآية هي إحدى آيتي التيمم، فالأولى جاءت في سورة النساء وهي التي سبقت في النزول، وهذه هي الثانية.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ أي: تيمموا إذا أحدثتم ولم تقدروا على استعمال الماء بسبب المرض، والمرض المقصود هنا هو الذي نخاف باستعمال الماء معه أن يموت صاحبه، أو يتضرر العضو أو يتأخر الشفاء، كأن تكون به جراحات أو دماميل أو غير ذلك.

أخرج أبو داود عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ (العِيُّ هو الجهل)، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِبَ عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ».

﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ يعني: إذا كنتم على سفر والماء معكم قليل لا يكاد يكفي لشربكم وطعامكم، فتيمَّمُوا.

﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ الغائط هُوَ الْمَكَانُ المنخفض والْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ، والذي يأتيه من يَقصدُ قضاءَ حاجتِه من بُرازٍ أو بولٍ.

والمقصود: إباحة التيمم لمن انتقض وضوؤه بخروج شيء من براز أو بول، ثم لم يجد الماء ليتوضأ، وقيسوا على ذلك كل حدث أصغر أبطل الوضوء كالنوم وخروج الريح، وغيرهما.

﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ اعلموا أن ملامسة النساء تنقض الطهارة، ويلزم مَنْ فَعَلها أن يتوضأ، فإن لم يجد الماء فليتيمَّم.

ولكن، هل المقصود بالملامسة هنا مطلق اللمس كأن يصافحَها ويلمسَ أيَّ جزء من بدنها، فيكون هذا حدثا أصغرَ يحتاج إلى وضوء لرفعه؟ أو المقصود بالملامسة هنا الجماع، فيكون هذا حدثًا أكبر يحتاج صاحبه إلى الاغتسال، وهذا التفسير يلزم منه عدم بطلان الوضوء بمجرد لمس المرأة؟

جمهور أهل العلم من المالكية والشافعية والحنابلة ذهبوا إلى القول الأول، وهو أن المراد بالملامسة هنا اللمس، إلا أنهم اختلفوا في ضابط اللمس الذي ينقض الوضوء، فالمالكية والحنابلة على أَنَّهُ اللمس الذي يكون بشهوة، بخلاف الشافعية الذين ينقض الوضوء عندهم بمطلق اللمس، سواء كان بشهوة أو بدون شهوة، عمدًا كان أو خطأً.

وأما الحنفية فقد ذهبوا إلى أن المراد بالملامسة هنا هو الجماع، وعليه: لا ينقض الوضوء بلمس المرأة وإن كان عمدًا أو بشهوة، ولكنه ينقض إذا حصل إنزالٌ للمذي لدليل آخر، وهو ما أميل إليه في الفتوى.

والقولان وما ينشأ عنهما من أحكام مبسوطان في كتب أهل الفقه وكتب التفسير المختصة ببيان الأحكام.

وعلى كلا القولين يشرعُ التيمم إذا عُدم الماء، وهو المقصود من الآية هنا.

﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾

هذا هو الحكم الشرعي المقصود ممن حصل معه حدث من هذه الأحداث، وتعذر معه استعمال الماء لرفع هذا الحدث، حكمه أن يتيمم كما بينت الآية هنا بمسح وجهه ويديه بالصعيد الطيب.

وهذا التيمم إنما يكون في الطاعة التي تشترط لها الطهارة كالصلاة والطواف ومس المصحف، سواء احتاج ذلك للطهارة من حدث أصغر كالنوم وقضاء حاجة وغير ذلك، أو احتاج ذلك للطهارة من حدث أكبر كالجنابة والحيض والنفاس.

والصعيد في اللغة هو ما صعد على وجه الأرض من أجزائها كالتراب والرمل والحجارة والأشجار، ولكن الفقهاء لم يتفقوا على جواز التيمم بكل ما علا الأرض، بل منهم من قصره بالجملة على التراب الذي له غبار يعلق باليد كالشافعية والحنابلة، ومنهم من جعل التيمم بكل ما هو من جنس التراب كالرَّمْل والحجر الأملس الذي لا تراب عليه، وهو قول الحنفية والمالكية بالجملة على تفصيل وزيادة بيان لهم في ذلك، محله ومظانُّه كتب الفقه .

والآية اشترطت هنا أن يكون الصعيد طيبًا، أي: طاهراً من النجاسة والقذر.

وكيفية التيمم تقوم على أن يضربَ بكفيه الأرض ضربةً واحدةً فيمسحَ بهما وجهه، ثم ضربةً أخرى يمسح بها اليدين إلى المرفقين مرةً واحدةً، وهذا عند الحنفية والشافعية.

أما عند المالكية والحنابلة فضربة واحدة للوجه والكفين فقط دون الساعدين.

وهنا مسألة يكثر السؤال حولها، هل يلزمنا التيمم لكل صلاة، أم يجوز أن نصلي أكثر من صلاة بالتيمم الواحد؟

الجمهور على أنه يتيمم لكل فرض، ويصلي بهذا التيمم النوافل المتعلقة بوقت هذا الفرض، كما لو تيمم لصلاة الظهر فإنه يصليها ويصلي السنة القبلية والبعدية بتيمم واحد، فإذا دخل وقت صلاة فرض أخرى فيلزمه أن يتيمم مرة أخرى، وذلك لأن التيمم إنما هو رخصة مبيحة للعبادة وليس رافعًا للحدث.

أما الحنفية فالتيمم عندهم رافع للحدث، فله أن يصلي أكثر من صلاة فريضة بنفس التيمم.

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ﴾ هذا يَدلُّ على أن شريعة الله تعالى قائمةٌ على التيسير ورفع الحرج، فلا تضيق فيها ولا مشقة، بل كل ما فيها من أحكام إنما جاء لنفع العباد في العاجل والآجل ولله الحمد والمنة.

والتيمم مظهر من مظاهر التوسعة التي طفحت بها الأحكام الشرعية حال وجود المشقة أو حتى عند مظنتها واحتمالها.

﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ غاية هذا الدين العظيم فيما شرعه من أحكام الطهارة من الغسل والوضوء والتيمم، إنما هي تحصيل طهارة الأبدان وطهارة الأنفس وغفران الذنوب، وهذا من تمام نعمة الله علينا بما شرع.

أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا تَوَضّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ، خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ بِطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ آخِرِ قطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ آخِرِ قطْرِ الْمَاءِ، حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ».

وأخرج مسلم من حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رَسُولَ الله ﷺ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُسْبِغُ الْوَضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ».

ومن تمام نعمته علينا كذلك أن اختص هذه الأمة بالتيمم تيسيرًا عليها ورفعًا للحرج عنها، كَما دل على ذلك الحديث المتفق عليه عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً».

كل ذلك لعلنا نحسن شكر الله تعالى على ما أنعم وأكرم، ونصلح أحوالنا معه، ونَلزم باب عبوديته حتى نلقاه وهو راضٍ عنا.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾

ما أجمل استحضار المؤمن لنعم الله عليه، فإن نعمه سبحانه لا تُعدُّ ولا تحصى، شرح صدورنا للإسلام وجعلنا من أهله، ووفقنا لما فيه نجاتنا من الضلالة والخسران، وأنزل إلينا خير كتبه، وأرسل إلينا صاحب الدرجة العالية الرفيعة محمدًا ﷺ، وجعلنا أكثر أهل الجنة من الأمم.

واذكروا يا أهل الإيمان كذلك ميثاق الله إليكم يوم بايعتم نبيكم ﷺ على السمع والطاعة في جميع أحوالكم، بايعتموه بميثاق أُخذ عليكم بوحي من ربكم وخالِقكم ومدبرِ أمركم جل جلاله، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لاَ نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ».

ومن تأمَّل سيرةَ أصحاب محمد ﷺ في تعاملهم مع الميثاق الذي بايعوه عليه، عرفَ صدقهم مع خالقهم وقدْرَ حُبهم له سبحانه، وعرف قدْرَ نبيِّهم وقرةِ أعينهم محمدٍ ﷺ في قلوبهم، فإنهم نصروه وآزروه في أصعبِ المواقف وأحلكِها، وضحُّوا بالغالي والنفيس، وقاموا بقائمة هذا الدين بعد وفاته ﷺ، حتى انتفع القاصي والداني بِعلمهم وبذْلهم وجهادهم، وما نحن إلا ثمرةٌ من ثمار ذلك.

ومثلنا ونحن نقرأ هذه الآيات ونعيش ظلالها، يجدر بنا أن نحمل في قلوبنا من التعظيم ما حملوه، وأن يأخذ الواحد منا على نفسه أن يكون جنديًّا من جنود هذا الدين، ومفتاحًا من مفاتيح الخير في الأرض، لعل الله تعالى يفتح على يديه القلوب والبلاد، ويكتبه عنده في ديوان الصادقين مع ربهم الباذلين للمعروف.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تحذير من أن تكون سرائرنا مخالفة لظواهرنا، ومن أن نخالف عهدنا مع الله، وأن لا نؤدي حق نعمته علينا.

ختام للآية يحمل نداء لأهل الإيمان بأن يعلموا أن مدار أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم على التقوى التي تقوم على خشية الله في السر والعلن، والحرص على الطاعات واجتناب المنهيات، واستحضار أن الله تعالى يعلم ما في الصدور، وسيحاسب عليها في يومٍ لا ناصر فيه ولا معين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ ﴾

دين الإسلام قائم على العدل، فلا ظلم فيه ولا عدوان، ونداءات آيات ربنا في ذلك كثيرة، هذا واحد منها، خاطب الله فيه أهل الإيمان الذين يترقبون نداء الله لهم ليبادروا إلى الامتثال والطاعة.

يا أهل الإيمان، كونوا قوامين على حقوق الله وحقوق العباد، واحرصوا عليها ابتغاء رضوان الله فيها، ولا تفعلوها لِأَجْلِ النَّاسِ وَالسُّمْعَةِ ولا لمصالح شخصية وذاتية، ولا تتجاوزوا فيها ما أَمَرتُكم به ونهيتُكم عنه.

يا أهل الإيمان: كونوا قوَّامين في ذلك لا قائمين، والقوَّام صيغة مبالغة تحمل تهييجًا للمستمعين ليلزموا هذا الطريق في جميع أحوالهم ولا يتركوه، وليكون ذلك طبعًا لهم، وسجية في خُلُقهم وعبوديتهم، وليقصدوا الحق ولا يعدلوا عنه، وليكونوا قوامين على الدوام، يعدلون المرة بعد المرة، هذا خير لهم عند خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم.

وكونوا شهداء بالقسط الذي هو العدل، فلا محاباةَ لقريبٍ ولا لصديق، ولا منع لشهادة الحق عن أهل الخصومة والعداوة، دُوروا مع الحق واشهدوا بما يرضي ضمائركم وإن لحقكم ضرر بذلك، وإن سخط عليكم من أراد أن يقلب الحق باطلًا، هذا خير لكم ولمن حولكم، وطاعة الله فوق كل شيء. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ أَقْوَامٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ، فَإِنَّ الْعَدْلَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، فِي كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ حَالٍ، مع الصديق ومع العدو، مع من أحسن ومن أساء، في المَنْشط والمَكْره، في العسر واليسر، العدل قاعدة ربانية لا تستقيم الحياة بدونها.

﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ العادل في قوله وفعله من أهل طاعة الله، وعَدْلُه علامةٌ على خشيته وتقواه، وهو إلى الله تعالى أقرب، بخلاف من ظلم واعتدى على الحقوق، فأكل المال، وكذب في الأقوال، ولم يعدل بين الأبناء والبنات والزوجات، وتعدى ظلمه إلى أهل الذمة والمعاهدين من غير المسلمين.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ بين كل أمر رباني وأمر آخر تجدون تذكيرًا بما لا ينفع غيره فيما نقول ونعمل، وهو دوام استحضار مراقبة الله والخوف منه والاستعداد للقائه، فإنه العالِم بما يصلحنا والخبيرُ بكل أحوالنا، وسيجازينا على فعالنا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩﴾

هذه بشرىٰ لكل من آمن بالله وأخلص في توحيده له وعبوديته، ثم أتبع إيمانه بعمل الصالحات فصلىٰ وصام وأحسن إلىٰ أبويه وأهله وأرحامه، ودعا إلىٰ الله وأمر بالمعروف ونهىٰ عن المنكر، ثم صَدَقَ الله في كل ذلك وكان من أهل الثبات حتىٰ الممات، يعده ربنا بغفران ذنوبه والتجاوز عن سيئاته، ويعده بالأجر العظيم وبفوزه بجنة عرضها السماوات والأرض، أُعدت للقابضين علىٰ دينهم المُتَبعين لما يُرضي الرب عنهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾

أما الذين غطوا عقولهم عن الهدىٰ، وكفروا بالله ووحدانيته، ونسبوا لله ما لا يليق به من زوج وولد، وكفروا برسله وكتبه، ولم يرتضوا شرع الله منهجًا وحكمًا، فقد توعدهم الله بأن يكونوا من أهل النار لا يفارقونها أبدًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾

تقدم معنا أن سورة المائدة تميزت بكثرة النداء فيها للمؤمنين، وما أجمله من نداء ينبئ عن لطف الله بهم وحُبِّه لهم.

هنا تذكير بنعمةٍ أنعمها سبحانه علىٰ النبي ﷺ وأصحابه، لما أراد قوم أن يبطشوا بهم، ويبسطوا أيديهم فيهم بالقتل والفتك والهلاك، ولكن الله حفظ وأعان وأكرم، وكَفَّ أيديَ هؤلاء الظالمين ومَنَع إيذاءهم، وقذف في قلوبهم الرُّعبَ، وسَلَّمَ المؤمنين من شرورهم، وأرْجَعهم بالخيبةِ والخذلان.

وأهل التفسير اجتهدوا في بيان من نزلت هذه الآية في حقهم، وذكروا عددًا من مواقف السيرة التي حفظ الله فيها نبيَّه ﷺ والصَّحب الكرام رضوان الله عليهم، وجميع هذه المواقف نافعة لنا وباعثة فينا اليقين وحسن التوكل مع العمل كما أراد ختام الآية هنا.

من هذه المواقف يومُ الأحزاب الذي اجتمع فيه أكثر من عشرة آلاف مقاتل للقضاء على الإسلام، وحاصروا المسلمين قريبًا من شهر كامل، وبلغ الخوف مبْلغه، وقد خانت بنو قريظة العهد مع النبي عليه الصلاة والسلام، ونفثَ المنافقون إرجافَهم وتخويفَهم بين جيش المسلمين، واستمرَّ الحالُ على ذلك حتى دبَّت الفتنةُ بين الأحزاب واختصموا، وأرسل الله تعالى عليهم جنده، وأرسل عليهم ريحًا اقتلعت خيامهم وانكفأت بسببها قدورُهم وأوانِيهم، ورجعوا على أعقابهم يجرّون خيبتهم وخِزيهم، بل قدَّر الله تعالى أن يكون مجيئهم هذا خاتمة غزوهم للمدينة، وإلى ذلك أشار قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأَحْزَاب:٩].

ويوم نُزُولِ الْمُسْلِمِينَ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَامَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، عَزَمَ أَهْلُ مَكَّةَ عَلَى الْغَدْرِ بِالْمُسْلِمِينَ ثُمَّ عَدَلُوا عَنْ ذَلِكَ، وفيه جاء قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الْفَتْح: ٢٤].

ولما عَزَمَ أَهْلُ خَيْبَرَ وَأَنْصَارُهِمْ مِنْ غَطَفَانَ وَبَنِي أَسَدٍ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ حِينَ حِصَارِ خَيْبَرَ، رَجَعُوا عَنْ عَزْمِهِمْ وقعدوا، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ [الْفَتْح:٢٠].

هذه بعض المواقف التي تصلح للتمثيل على حفظ الله تعالى لأوليائه، ولكنها ليست على سبيل الحصر، فكرم الله تعالى عظيم وواسع، والمتدبر للنص القرآني هنا لا بد أن يعلمَ أن حِفظَ الله تعالى ليس مقصورًا على من امتنت عليهم الآيات هنا، بل إن ولايته وعونَه لا تكاد تُفارق واحدًا من أهل الإيمان لو تأمَّلَ، ولكلٍّ مِنَّا أن يستحضر حفظ الله له لما كان قريبًا من الزَّلَل، ولما كان عدوُّه قريبًا منه وقادرًا عليه، والحمد لله أولًا وآخرًا.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ توكلوا واعتمدوا على ربِّكم، واتقوه حقَّ تقواه، فإنه من أصاب ذلك كَفَاهُ الله مَا أَهَمَّهُ، وَحَفِظَهُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ وَعَصَمَهُ، ورزقه نورًا في قلبه وأسعده،وما أحوجنا إلى مثل هذه المعاني في زماننا، زمانِ غربةِ المؤمنين المُتَّقين العَاملين.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

تقدمت الآيات معنا في أخذ الميثاق على النبي ﷺ وأصحابه بأن يوفوا بعهد الله وميثاقه، وقد كانوا أنموذجًا فريدًا في الوفاء بالعهد والقيام على أمر الله وشرعه.

هنا ذكرت الآية الميثاق والعهد الذي أخذه ربنا على بني إسرائيل من قبلنا، وجاء السياق القرآني يُبين ما صدر منهم من نقض العهود والغدر والخيانة، والجراءة على الله تعالى وتبديل شرعه والعبث به، ثم كيف كان عقاب الله لهم مِنْ لَعْنهم وجعلِ قلوبهم قاسيةً.

هنا موعظة بليغة للمؤمنين ليحمدوا الله أولًا أن شرح صدورهم للطاعة، وليستعينوا بالله ويحفظوا نعمه، ولا ينقضوا العهد معه، ولذلك ختمت الآية بقَوْل الله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

الله تعالى أَخذ العهد والميثاق المؤكد بالأَيْمان على بني إِسرائيل أَن يعملوا ويقبلوا بما في التوراة، بإِقَامَةِ الدِّينِ وَتَأْيِيدِ الرُّسُلِ، وَأَنْ لَا يَسْفِكَ بَعْضُهُمْ دِمَاءَ بَعْضٍ، وَأَنْ يُؤْمِنُوا بِالدِّينِ كُلِّهِ، وغير ذلك.

ثم أمر نبيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَن يختار منهم اثني عشر نقيبًا، والنقيب هو الرئيس وكبير القوم الذي يقوم على أمرهم، أَمَرَه أن يختار من كل سِبط وفخذ نقيبًا، يتولون أُمورهم، ويقومون على رعايتهم، ويأخذون منهم الطاعة لله ولرسوله ولكتابه، ففعل نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ جاءهم وعد الله بالحفظ والنصر والتأييد على عدوهم من الجبابرة، وهو معهم بعلمه وسمعه وبصره، يسمع كلامهم، ويعلَمُ ضمائرهم، ويجازي كُلًّا منهم بعمله، فمن وفى منهم غفر الله له سيئاته وأدخله الجنة.

وهذا العون من الله تعالىٰ والإكرام بدخول الجنة مشروط بأن ينصروا دين الله، فيحرصوا على إقامة الصلاة كما شرعها لهم، وإيتاء الزكاة كما علمهم إياها.

﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ ومن شروط نصرهم إيمانُهم بأنبيائهم جميعًا وبما جاؤوا به من عند الله، وكذا قيامهم على تعزير أنبياء الله، أي: نصرِهم ومنعِ عدوهم عنهم.

وكأني هنا بقول الله تعالىٰ لهذه الأمة المحمدية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]، وقولِ الله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ مِمَّا أراده الله منهم وطلبه، أن يحرصوا على الإنفاق وبذل ما يستطيعون بَذْله، وأن يجعلوا صدقاتهم هذه في جهاد عدوهم والتمكين لهم، فإن الله تعالىٰ يحب هذه الصدقات ويرضىٰ عن صاحبها.

والقرض الحسن هو المال الذي يبذله صاحبه من طيب ماله بنية صادقة مخلصة.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يقول الله تعالىٰ لهم: إن فعلتم ذلك أمحُ ذنوبكم وَأَسْتُرْهَا، وَلَا أُؤَاخِذْكُمْ بِهَا، وها هي جنات ربكم تتزين لكم بأنهارها وأشجارها، وتنتظر دخولكم ما أديتم أمر الله ووفيتم بعهده.

﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فَمَنْ خَالَفَ هَذَا الْمِيثَاقَ بَعْدَ عَقْده وَتَوْكِيدِهِ، واقترف الآثام وعصىٰ أمرَ الله ورسوله، وركنَ إلىٰ الدنيا وزينتِها، ولم يعط هذا الدين حقه، فَقَدْ أَخْطَأَ طريق الحق والاستقامة، وَعَدَلَ عَنِ الْهُدَىٰ إِلَىٰ الضَّلَالِ.

وهذا تحذير لكل سائر إلىٰ الله تعالىٰ على هذه الأرض: إياك ونقض العهود والمواثيق مع الله، وإياك أن تتخذَ دينك هزوًا ولعبًا لئلا يصيبَك ما أصابَهم.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

هذه علامةٌ من علامات فسق بني إسرائيل وخروجهم عن أمر الله تعالىٰ وعهده، وقد تتابعت الآيات في إظهار نقضهم للمواثيق وتكذيبهم للأنبياء وقتلهم، وتتابعت في بيان شدة عتوهم واستكبارهم ومخالفتهم، وحرصهم علىٰ اتباع أهوائهم وآرائهم، وهو ما يعطينا تصورًا عن شدة أحفادهم وذراريهم في تكذيبِ دعوةِ مُحمدٍ ﷺ، ومُعاداتِهم لها مَع عِلمِهِم بِصدقِها، إنَّه الحسدُ والكِبرُ واتِّباعُ الهَوَىٰ.

ولذلك بيَّنت الآيةُ هنا شِدة عقوبة الله لهم كيف لعنهم، أي: طردهم من رحمته وأبعدهم عن الهدىٰ.

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ وقساوة القلب هذه تعني عدم انتفاعهم بالمواعظ، وسهولة إقبالهم علىٰ الحرام بلا خشية ولا محاسبة للنفس ولا رغبة بالتحول عنه.

صحيح أن العقوبات هنا جاءت في معرض الحديث عن بني إسرائيل، ولكنها ليست قاصرة عليهم، ولذلك وجدنا المنيبين إلىٰ ربهم عند قراءة هذه الآيات وتدبرها، تكاد قلوبهم تنخلعُ خوفًا من أن يصيبَهم مثلُ ما أصابهم، فإنه لا يأمن مكر الله وعقوبته إلا القوم الخاسرون. اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ ومن سوء فعالهم أنهم أساؤوا التصرف مع آيات الله التي أنزلت عليهم، فحذفوا منها ما حذفوا، وقالوا علىٰ الله ما قالوا، وفسَّروا كلام الله علىٰ غير ما أُنزل.

وحتىٰ نصدق مع أنفسنا ومع كلام الله الذي أنزل علينا، يلزمنا أن نقول علىٰ الله بعلم لا بجهل، ولا نلبس ثوبًا أكبر منا، حتىٰ لا نكون مثلهم.

وقد رأينا في زماننا من يلوي عنق النصوص، ويعبث بأحكام الله وآياته ويفسرها علىٰ غير مراد الله، بل قد يكتم شيئًا منها لهوىً في نفسه.

﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ تأملوا إلىٰ أين وصل حالهم لما نقضوا المواثيق: أهملوا الْعَمَلَ بما أُمروا به في التوراة وتركوه، ولم يكترثوا بدينهم فحرَّفوا وأوَّلوا، حتىٰ نسوا من دينهم ما نسوا لِقِلَّةِ تَعَهُّدِه والِاهْتِمَامِ بِهِ.

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا أَنْ نَعْتَبِرَ بِحَالِهِمْ وَنَتَّعِظَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي مِثْلِ ما وقعوا به.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ ولا تزال يا أيها النبيُّ ﷺ تجد في أحفادهم وذراريهم الذين تعايشهم مكرًا وخديعةً، وغدرًا بك وبأصحابك، وتجد محاولةً لطمس الدين وتحريفه، وتجد عداوةً عجيبةً لأهل الإسلام وحقدًا عليهم وحسدًا لهم.

وتعلمون كيف نَقَضَت طوائف اليَهُودِ في الْمَدِينَةِ عهدها مَعَ رَسُولِ الله وَالْمُسْلِمِينَ فَظَاهَرا أصحابُهُا الْمُشْرِكِينَ فِي وَقْعَةِ الْأَحْزَابِ وأعانوهم على المسلمين، وحاولوا قتل النبي ﷺ، وكشفوا عورة امرأة مسلمة في أسواقهم، وغير ذلك.

وهنا وقفة مع الآية تنفعنا في فهم طبيعة عدونا، وحقيقة الصراع الذي يدور بيننا وبينه، وضرورة الحذر منه في كل قول وعمل، وإعداد العدة لتكون الكلمة لنا وليست له.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مع كل هذه الخصال التي فيهم، ومع بسطهم أيديهم لقتال النبي ﷺ وصحبه، ومع كثرة خيانتهم وتربصهم بالمؤمنين، يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بالعفو والصفح عن جُرْمهم، وتَرْك التَّعرُّض لما يكرهون، وعدم قتالهم ما دام بينك وبينهم عهد، فإن الله تعالى يحب أهل الإحسان، ولعل الله يهديهم أو يخرج من أصلابهم من يحمل هم هذا الدين.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن هذا الحكم منسوخٌ، بقول الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، فهذه الآية تأمر بقتالهم حتى يؤمنوا أو يدفعوا الجزية.

ومنهم من ذهب إلى أن الحكم هنا غير منسوخ، وإنما يُعمل به في أحوال وظروف مختلفة عن الحكم الثابت في آية التوبة.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾

أخذ الله تعالىٰ الميثاق علىٰ النصارىٰ بأن يوحدوا الله تعالىٰ ويؤمنوا برسله وكتبه، وأن ينصروا رسوله عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ويتَّبعوا أثَرَه، وينشروا دعوتَه في بني إسرائيل.

والآية ذكرت أنهم قالوا إنا نصارىٰ، يعني: زعموا وادَّعَوا أنهم ينصرون المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ويتابعونه علىٰ ما جاء به، ولكنهم ليسوا كذلك، وإنما كانوا كَمَنْ سبقهم من اليهود من بني إسرائيل، فقد خالفوا المواثيق ونقضوا العهود، وحرفوا عقائدهم وزعموا أن عيسىٰ إله، وكذَّبوا بنبينا ﷺ الذي أرسله الله تعالىٰ بعد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام للناس أجمعين، وتركوا متناسين قسطًا كبيرًا مما ذكَّرهم الله تعالىٰ به، أي: ما أمرهم به في كتابهم، وما أخذ عليهم من العهود والمواثيق فيه.

﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ هذه الآية تبين أن الله تعالىٰ ألقىٰ بين طوائف النصارىٰ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ العداوة وإيذاء الآخر، وكذلك الكراهية الشديدة، فتعصبت كل طائفة لرأيها وثارت بينهم الخصومات وكثر الجَدل، وكفَّر بعضهم بعضًا ولعن بعضهم بعضًا، ولَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ كما ذكرت الآية.

فلا تظنوا أن طوائف النصارىٰ علىٰ قلب رجل واحد، وأنهم مُتحابون ومتآلفون، فقد سطر التاريخ لنا عددًا من المذابح التي قام بها أبناء بعض الطوائف منهم ضد الأخرىٰ، وقتل بسبب ذلك ملايين منهم، فالعداء بين طوائف الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت وغيرهم معلوم ومعهود، وكلما حصل تقارب بينهم لسبب ما، رجعت الفرقة، وحصل التخاذل، وقامت الحرب بينهم، وكم كَانَ اخْتِلَافُهُمْ لُطْفًا بِالْمُسْلِمِينَ فِي مُخْتَلِفِ عُصُورِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ.

﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ وسينبئهم الله يوم القيامة بما صنعوا في الدنيا مِنَ الْكَذِبِ عَلَىٰ الله وَعَلَىٰ رَسُولِهِ، وَمَا نَسَبُوهُ إِلَىٰ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، مِنَ الصاحبة والولد، وسيُطلِعهم علىٰ تحريفهم للكتاب الذي أُنزل عليهم، وسيجازيهم ويؤاخذهم علىٰ ذلك.

والمطلوب منا معاشر من اصطفاهم الله لهذا الدين: لا تنقضوا عهد الله وميثاقه أيها المسلمون كما فعل اليهود والنصارىٰ من قبلكم، ولا تتفرقوا وتختلفوا كما اختلفوا.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ ﴾

خطابٌ من الله تعالىٰ لأهل الكتاب، يحملُ بيانًا لخصالهم التي يتغافلون عنها، ويجهلها كثيرٌ من أبناء الإسلام.

يا أيها اليهود والنصارىٰ، ممن كانوا زمن إنزال القرآن، وممن سيأتي بعدهم، يا من أكرمكم الله بإنزال التوراة والإنجيل، واختصكم بأنبياءَ ورسلٍ كثيرين: قد أرسلنا إليكم محمدًا ﷺ مؤيدًا بالمعجزات، يُظهر لكم ويُبيِّن كثيرًا من الأحكام التي كنتم تخفونها عن العوام، مما بدلتم فيه وحرفتم وأوَّلتم وافتريتم علىٰ الله، كإخفائكم رجم الزناة من التوراة، وتأويلكم لنصوصٍ من الإنجيل علىٰ غير مراد الله زاعمين أنه ثالث ثلاثة، وأن عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ولدُه.

وكان رَجْمُ الزَّانِي الْمُحْصَنِ مما بدلوه وغيروه وأخفوه مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ، كما دلَّ علىٰ ذلك ما أخرجه البخاريُّ ومسلم عن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُتِيَ بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةٍ قَدْ زَنَيَا، فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّىٰ جَاءَ يَهُودَ، فَقَالَ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَىٰ مَنْ زَنَىٰ؟» قَالُوا: نُسَوِّدُ وُجُوهَهُمَا، وَنُحَمِّلُهُمَا (يعني علىٰ حِمل كالحمار أو الجمل)، وَنُخَالِفُ بَيْنَ وُجُوهِهِمَا (أي: نجلسهما وظهر كل واحد منهما للآخر)، وَيُطَافُ بِهِمَا، قَالَ: «فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، فَجَاءُوا بِهَا فَقَرَءُوهَا حَتَّىٰ إِذَا مَرُّوا بِآيَةِ الرَّجْمِ وَضَعَ الْفَتَىٰ الَّذِي يَقْرَأُ يَدَهُ عَلَىٰ آيَةِ الرَّجْمِ، وَقَرَأَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَمَا وَرَاءَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ: وَهُوَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ مُرْهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ، فَرَفَعَهَا فَإِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ الله ﷺ، فَرُجِمَا، قَالَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ: «كُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَهُمَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَقِيهَا مِنَ الْحِجَارَةِ بِنَفْسِهِ».

وهذا فيه دلالة لهم لو كان لهم قلب علىٰ صحة نبوة محمد ﷺ؛ لأنه طلب توراتهم لإلزامهم بما هو في كتبهم، مع أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يسبق له أن قرأ التوراة واطَّلع عليها، وَلِهَذَا آمَنَ مَنْ آمَنَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ الْمُنْصِفِينَ، وَاعْتَرَفُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِمَا بَقِيَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْبِشَارَاتِ والدلائل.

ومما أخفوه كذلك صِفَاتُ الرَّسُولِ ﷺ فِي كِتَابِهِمْ، مع علمهم بها وبأنها موفورة في نبينا عليه الصلاة والسلام، وتحريفُهم لها بإخفائها عن عوامهم أو بحمل معناها عَلَىٰ مَعَانٍ أُخْرَىٰ، كَمَا بَيَّنَهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩].

وَالنَّصَارَىٰ كذلك كتموا بِشَارَةَ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ لَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَدْ بَيَّنَهَا تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِما أَخْفَوْهُ مِنْ كُتُبِهِمْ.

﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ﴾ يعني: وتركَ رسول الله ﷺ كثيرًا من فضائحكم وتبديلكم وتغييركم، وعفا عنها وسكت ولم يُبينها، وذلك بأمر ربه ووحيه إليه، ولكنه جاءكم بدلائل من كتبكم لا تستطيعون أمامها إلا أن تؤمنوا به لو صَدَقتم مع أنفسكم وتجرَّدْتم للحق.

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ قد جاءكم أيها اليهود والنصارىٰ النور العظيم، وهو محمَّد ﷺ الذي أنار الله به الطريق، وأوضح به السبيل إلىٰ الحق، فآمِنوا واتَّبِعوا الهدىٰ الذي جاء معه. قال الله تعالىٰ واصفًا نبيه ﷺ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦].

وجاءكم من الله كذلك كِتَابٌ مبِينٌ، وهو القرآن الذي فيه بيان للحق والصراط المستقيم، وفيه معالم هداية الناس وسعادتهم في الدنيا، وكذا نجاتهم غداً بين يدي الرب جل وعلا.

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

هذه الآية فيها عظمة هذا الكتاب الذي نقرأه ونحفظه ونحبه، ونقرأ تفسيره ونعيش معه، ويكفينا شهادة رب العالمين في ذلك.

القرآن كلام الله الذي يهدي به من حرص علىٰ مرضاة الله واجتناب سخطه، ونوىٰ نية طيبة وأقبل علىٰ ربه، القرآن يرشده إلىٰ العبودية التي خلقه الله تعالىٰ لها، وإلىٰ النجاة.

والقرآن يهدي إلىٰ سبل السلام، والسلام هو الله، والسبيل إليه هو الإسلام، فالطريق إلىٰ الله لا يكون إلا بكتاب الله الذي فيه قواعد الإسلام وأصولُه، وكل من سلكَ مسْلكًا بعيدًا عن القرآن فهو ضالٌّ أخطأ الطريق، ولا يقبل الله منه سَعْيه وعمله.

﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

ويخرجهم من ظلمات الضلال والأوهام والحَيْرة والشك، إلى نور الإيمان واليقين والثبات والرُّشد، وإلى ضياء الإسلام وبهائه وسنائه، ويخرجهم كذلك من ظلمات الخرافات والتعلق بالآخرين وتعظيمهم إلى تفريغ القلب لله وحده.

ويهديهم ويرشدهم إلى الطريق المستقيم ويعينهم فيه، الطريقِ الذي لَا عِوَجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ، قرآنٌ وسنةٌ على منهج أصحاب محمد ﷺ والتابعين، وأعلامِ أمتنا أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم، وغيرهم ممن كتب الله على أيديهم حفظَ الدين ونشرَه.

كل ذلك بإذنه: أي: بإذن الله تعالى وإرادته وعلمه، وكذلك بعونه وكرمه وجوده، وكأن الله تعالى يتحبب إلى خلقه ليُقبلوا عليه ويتوبوا، وكأنَّ الآية تعلمنا ألا هداية إلا بتوفيق من الله، ولا ثبات إلا بعون من الله، فلِلَّه الحمد أولًا وآخرًا.

ولعل أحوال الناس من حولنا مع القرآن تُظهر لنا شيئًا من عظمة هذا الكتاب، فمن الناس من يعيش مع القرآن تلاوةً وعلمًا وعملًا، وهؤلاء هم الذين ربط الله على قلوبهم، وأحسنوا في طاعتهم، وصبروا عن المعاصي، وتجاوزوا آلامهم بكل قوة مستعينين بالله.

والقسم الآخر هم المحرومون منه، وهؤلاء عاشوا لدنياهم فقط، وانغمسوا في شهواتها، وفَقدوا طريق السعادة من حيث أرادوها، وتسخطوا على القدر، وضلُّوا وأضلُّوا.

قال الله تعالى عن نور حياتنا ودستورنا: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨].

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قامت حجة الله على النصارى بما لا يُبقي لهم عذرًا في كفرهم، وكفرُهم ثابت بالقرآن وبالسنة وبإجماع أهل العلم، وهذه الآية واحدة من الأدلة في ذلك، أقول هذا لأن عددًا من أبناء المسلمين الذين خالطوا النصارى، ورأوا فيهم بعض الخصال الجيدة زعموا أن تكفيرهم تشدُّدٌ لا ينبغي، وأنها لغة لا تناسب العصر الذي نعيشه، ومن يقول هذا؛ أُتِيَ من جهله أو من هواه.

ومن الأصناف التي تُردِّدُ هذه المقولة، وَتنفِر من تكفيرهم، صنفٌ محسوبٌ على الإسلام، تشَبَّع بثقافة أهل الكفر وتربى عليها، ويتطلع لتجديدٍ في الدين يقومُ على وَحْدة الأديان وحرية الردة عن الدين، وإسقاط فقه النصوص التي تفرق بين أهل الكفر وأهل الإسلام، وهو عينه الذي يغمز ويلمز في أحكام الجهاد في سبيل الله وغير ذلك.

صحيح أن الإسلام حفظ للنصارى الذميين أو المعاهدين حقوقهم، وأرشد إلى حُسْن معاملتهم ودعوتهم بالحسنى، لكنَّ هذا لا يلزم منه أن ينفكَّ وصفُ الكفر عنهم، فجميع فرق النصارى من الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت، وجميع فرقهم على اختلافهم في عقيدتهم، جعلوا لنبي الله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حظًّا من الألوهية، وزعموا أن الله ثالث ثلاثة، فلم يَصْدقوا في توحيد ربنا ولكن أشركوا معه غيره. قال الله تعالى عن سوء مقولتهم وعظمها عنده: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٩١].

والنصارى لا يؤمنون بمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، فهم يُفرقون بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وفي مثلهم قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ هذا رَدٌّ على القائلين بألوهية عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتبْكيتٌ لهم، قل يا أيها النبيُّ ﷺ، وقولوا يا دعاة الحق لهؤلاء الذين تجرؤوا على مقام الألوهية:

إرادة الله تعالىٰ نافذة في المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفي أُمِّهِ وفي خَلْقِه جميعا، ولا يستطيع أحدٌ من خَلْق الله أن يدفع الهلاك عن نفسه وإن كان من كان، ولو أن الله تعالىٰ أراد بعبد خيرًا ما ضَرَّهُ أحدٌ، ولو أراد بعبد سوءًا ما نفعه أحد، فلِلَّه الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ، فكيف يشركون معه أحدًا من خلقه، وكيف يزعمون لغيره النَّفع والضَّر، سبحانه لا إله إلا هو.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ رَدٌّ آخَرُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ الله هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَمَلَكَ مَا فِيهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَظْهَرَ الْمَسِيحُ، فَاللهُ هُوَ الْإِلَهُ حَقًّا، والمسيح وأمه والأنبياء جميعا والملائكة وكلُّ الْمَوْجُودَاتِ عبيدٌ له وتحت مشيئته وتدبيره.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ تأمَّلوا أيها النصارىٰ كيف ميَّز الله أنواعًا من الخلق في خلقهم، ولم يَنسب أحدٌ من الأمم إليهم الألوهية، فالله خلق آدمَ من تراب بلا أب ولا أم، وخلق حواء من آدم، وخصَّ الأرض بخصائصها، ويخلق ما يشاء، ولا يلزم من كل ذلك أن يكون أحدُهم إلهًا كما زعمتم في عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي خلقه الله تعالىٰ بلا أبٍ، هذا لا يلزم منه عقلاً ولا شرعاً أن يكون هو الله، ولا ابنُ الله، ولا ثالثُ ثلاثة مع الله، كما هي عقيدتكم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ما تعلقت به مشيئةُ الله يكونُ، وإن استغربه بعض البشر لقصر علمهم وفهمهم، فآمِنوا بمَنْ نفذت قدرتُه في خَلقه، ولا تروغوا رَوَغَان الثَّعالب وتفتروا علىٰ الخالق سبحانه.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

يزعم اليهود أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه الذين اصطفاهم علىٰ خلقه ولن يعذبهم، وهذا معروف ومعهود في لغة اليهود ونظرتهم لشعوب الأرض مِن حولهم، وهذا ما صرفهم عن الإيمان بنبيِّنا عليه الصلاة والسلام والتصديقِ بما جاء به من الوعد والوعيد.

وكذلك النصارىٰ يزعمون ذلك، ويستدلون بنصوصٍ من الإنجيل علىٰ باطلهم هذا، وَيَدَّعُونَ أَنَّ الْمَسِيحَ قَدْ فَدَاهُمْ بِنَفْسِهِ، وَيُخَاطِبُونَ الله تَعَالَىٰ دَائِمًا بِلَقَبِ الْأَبِ، ويعتقدون بذلك أنهم ناجون من العذاب.

القرآن هنا يُظهر كذبَهم على الله في ذلك، وافتراءَهم على نصوص كتبهم بتحريفها لفظًا ومعنىً، وكأن السياق القرآني هنا يُبين أن رحمة الله تعالى قريبة من أهل الإيمان والتقوى على مراد الله وشرعه، لا على مراد الناس وأهوائهم.

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ شأن المحب أن لا يعذب حبيبه، وَشَأْنُ الْأَبِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ أَبْنَاءَهُ، فإذا كان ما تزعمونه حقًّا فلِمَ عذبكم في الدنيا بألوان من العذاب تعلمونها وهي موجودة في كتبكم، ولو كانت منزلتكم فوق منزلة البشر فلم عذب أجدادكم من قبل، ولا زالت عقوبات الله تتوالى عليكم، فضلًا عما ينتظركم غدًا يوم الوقوف بين يديه.

﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ حالُكم كحالِ غيركم من البشر، من آمن منكم وعمل صالحاً غفر له وأكرمه، ومن كفر منكم وعمل سوءًا سخط عليه وعذبه، هذه سنةٌ من سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغيرُ، فَارْجِعُوا عَنْ غُرُورِكُمْ واتباعِكم الهوى، واستقيموا تُفلحوا. قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

الله خالقكم وخالق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، والمُلك والخلق والتدبير له سبحانه، وأنتم من جملة من خلقهم ودبَّر أمرهم، وسترجعون إليه كما هو حال الخلائق كلها، وسيحكم بينكم في يوم لا يُظلم فيه أحد.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

نداءٌ آخرُ لأهل الكتاب يدعوهم إلى الإيمان بنبينا محمد ﷺ الذي أرسله الله من عنده، وآتاه البينات والمعجزات، كما أرسل مِنْ قبله موسى وعيسى عليهما صلوات ربي وسلامه.

وربنا أرسل محمدا عليه الصلاة والسلام بالهدى والإيمان والشريعة الكاملة ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، أَيْ: بَعْدَ مُدَّةٍ انقطع فيها إرسال الرسل ونزول الوحي، وذلك مَا بَيْنَ رفع عيسى إلى السماء وبعثة محمد ﷺ للبشرية، وقد مضى على ذلك قرابة خمسمائة وسبعين سنةً.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، الْأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ». وعبارة «أولاد علات» في الحديث تطلق على الإخوة لأب من أمهات شتَّى، والمقصود أن دين الأنبياء واحد وهو الإسلام وشرائعهم فيها اختلاف.

والله تعالى يخبرهم أن البعثة المحمدية إنما كانت لإقامة الحجة عليهم، فإن الله تعالى قدَّر ألا يعذبَ أحدًا حتى يبعث رسولًا، وهذا الرسول الذي جاءهم يعرفونه بذاته وصفاته في كتبهم، فلا يعتذرون عن شركهم وكفرهم وشَرِّهم وفسادهم، بأنه لم يأتهم بَعْدَ مُوسَى أَوْ بَعْدَ عِيسَى عليهما السلام من يبشرهم بالجنة والرحمة وينذرهم من النار ويخوفهم منها.

﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البشير هو محمد ﷺ الذي جاءهم يبشرهم بالخير والجنة إن آمنوا وأطاعوا، وهو النذير الذي أنذرهم بالعذاب والعقوبة إن هم صدُّوا وتوَلَّوا.

والمطلوب: آمنوا به واتبعوه تَنجُوا وتَسْعدوا، ولا تكْفروا فَتَشْقوا وتُعذَّبوا، والله على كلِّ ذلك قديرٌ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾

تذكير من نبي الله موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لبني إسرائيل بنعم الله عليهم، وهذا التذكير جعله مقدمة لأمر رباني سيأتيهم قريبًا، وهذا منهج نبوي دعوي يجعل كلام صاحبه أقرب إلى قلوب المخاطبين، نُذكرهم بنعم الله عليهم التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، ثمَّ نطلب منهم أن يشكروا الله عليها بطاعته فيما أمر، فإنَّ مِن طَبْعِ النفوسِ الْكَرِيمَةِ امْتِثَالَ أَمْرِ الْمُنْعِمِ، والنِّعْمَةُ تُورِثُ الْمَحَبَّةَ.

ثلاث نعم ذكَّرهم بها كما بينتها الآية هنا:

﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ هذه هي النعمة الأولى، وهي نعمة الأنبياء الذين أكرم الله بهم بني إسرائيل، فإن الله تعالى لم يبعث في أُمَّة من الأمم من الأنبياء مثلَ ما بعثَ في بني إسرائيل، كُلما قضى نبي أو قضى أنبياءُ قام فيهم آخرون يبلغونهم دين الله تعالى، ويرشدونهم إلى طاعته، ويضيئون لهم طريق العبودية والثبات عليها.

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ هذه هي النعمة الثانية، وهي التي نجّى الله فيها بني إسرائيل من عبوديتهم لفرعون وقومه من القِبط، فرعون الذي كان يقتل أبناءهم، ويستحيي نسائهم، ويضطهدهم ويعاملهم معاملة الرقيق، نجاهم ربنا منه ثم جعلهم ملوكًا على أنفسهم يتصرفون بها كما يحبون، وينفذ أمرهم في أهليهم وأموالهم كما يرغبون.

﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نعمة ثالثة أكرمهم الله بها، وهي نعمة تحوي نِعَمًا، فإن الله تعالى شَقَّ لهم البحرَ وأنجاهم من فرعون وجنوده لما ساروا خلفهم قاصدين قتلهم، وجَعَلَ منهم الأنبياءَ والرُّسُلَ، وأنزلَ عليهم الكُتُبَ، وأعانهم في التيه فأظلَّهم بالغمام، وفَجَّرَ لهم الحَجَرَ فخَرَجَتْ منه اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ليشربوا، وأنزلَ عليهم المَنَّ والسَّلْوَى ليأكلوا، وخَيْرٌ من ذلك كله أنَّه فضَّلهم على الأمم من أهل زمانهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجَاثِيَة: ١٦].

أخرج الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ﴾ قَالَ: جَعَلَ مِنْكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ قَالَ: الْمَرْأَةُ وَالْخَادِمُ ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ: «الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ».

والمقصود أن الله تعالى آتاهم ما لم يُؤْت أحدًا من الأُمَمِ مِن أَهْلِ زمانِهم، ولا يلزم من هذا تفضيلهم على أمة محمد ﷺ التي تواترت النصوص بعظمتها وأفضليتها على كل الأمم وعلى بني إسرائيل، ويكفينا في ذلك قولُ الله تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آلُ عِمْرَان: ١١٠].

ويكفينا ما أَخرَجَهُ التِرْمِذِيُّ وابنُ ماجه وغيْرُهما، عَن مُعاوِيَة بن حَيْدَة القُشَيريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «إنّكُم تُتِمُّون سبعينَ أُمَّةً، أَنْتُم خيْرُها وأَكرمُها على الله».

ولا أقول هذا ليطمئنَّ أبناءُ هذه الأمة ويتركوا العمل، ولكن لعلَّنا نستحضرُ شيئًا من هذه النعم، ونكرمُ أنفسنا بشكرها، فإن خيْريَّتنا لم تكن للون أو جنس، وإِنَّما هي خَيْرِيَةُ التوحيد الخالص والدعوةِ إلى الله كما في آية آل عمران.

وهذه الآيات وإن كانت تذكرُ خبرَ بني إسرائيل مع نبيِّ الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكنَّها تحملُ تذْكيرًا لمن كان منهم زمن نبينا ﷺ ولمن جاء بعدهم، فإنَّ التذكيرَ بنعم الله على الأجداد والآباء فيه نفع لهم لو كانوا يعقلون.

ثم إنَّ في ذلك برهانًا ظاهرًا ظهورَ الشمس على نبوة محمد ﷺ، وإقامةً للحجة عليهم، فقد أخبرهم بما جرى مع من سبقهم من قومهم مما أخبرت به كتبهم، وهذا لا يعلمه إلا نبيٌّ يُوحى إليه من الله، فكيف لو كان هذا النبي أميًّا لم يقرأ ما في كُتُبهم مِن قبلُ.

وهذه الآيات كذلك نافعةٌ لنبيِّنا ﷺ ولنا من بعده في التعرف إلى طبائع الأمم وطرائق تفكيرهم، ولعل بني إسرائيل من أهم هذه الأمم، فإنهم أصحاب كتابٍ يَدَّعون ويزعمونَ أنهم على الحق، يزعمون ذلك وهم من أشد الناس عداوة لدين الله تعالى وأوليائه، فكان في البيان القرآني هنا عونًا لنا على تدبير ما يلزم في مدافعتنا لهم ودعوتنا.

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

هذا أمر الله إليهم بعد تذكيرهم بالنعم، أمرٌ من الله تعالى أوحاه إلى نبيّه موسى عليه الصلاة والسلام ليخاطبَهم ويدعوَهم إلى القتال والجهاد وَالدُّخُولِ إِلَى الأرض المقدسة، والأرض المقدسة هي الأرض المطهرة والمباركة، وهي أرضُ الأنبياء، وهي أرضُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الَّتِي كَانَت بِأَيْدِيهِمْ فِي زَمَانِ أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ، لَمَّا ارْتَحَلَ هُوَ وَبَنُوهُ وَأَهْلُهُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ أَيَّامَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا بِهَا حَتَّى خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليسكنوها، فَوَجَدُوا فِيهَا قَوْمًا مِنَ الْعَمَالِقَةِ الكنعانيين الْجَبَّارِينَ، قَدِ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا وَتَمَلَّكُوهَا، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ الله مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالدخول إِلَيْهَا، وَحَرَّضهم على قِتَالِ أَعْدَائِهِمْ، وبَشَّرهم بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ بقوله ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

وتأملوا مرة أخرى عبارة ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أَي: الَّتِي قضى الله تعالى وقدَّر أن تكون أرضًا يرثها المؤمنون الصالحون لا المتجبرون المتكبرون.

وهنا لفتة كريمة لنا ورثة الأنبياء والصالحين في زماننا، وهي متعلقة ببيت المقدس الذي هو إرث لنا؛ فنحن من آمن بأنبياء الله ورسله وكتبه جميعًا، ونحن من آمن بدين التوحيد الذي دعا إليه جميع الرسل.

والقدس ليست لليهود قتلة الأنبياء، وناكثي العهود، ومُصَدِّري الشَّرِّ للأرض وأهلها، فهذه أرضٌ اصطفاها الله وجعلها ساحة لصدق الصادقين من الأمم عبر التاريخ، ولا أظن التخلِّيَ عنها وخذلانَها والتقاعسَ عن نصرتها وتحريرِها إلا علامةَ سوءٍ.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾ أَيْ: لا ترجعوا منهزمين خائفين عن طريق عِزِّكم ونجاتكم، طريقِ جهاد عدوكم، فإن النُّكول عن الجهاد والتخلفَ عنه طريقُكم إلى ذلةٍ ومهانةٍ لا يعلم بها إلا الله، وهو خسارة لثواب الله تعالى، وامتلاك بقعة هي من أحب بقاع الأرض إلى الله.

﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

كلُّ هذا الإنعام والإكرام لم يحركْ فيهم ساكنًا، فامتنعوا عن الجهاد وتحرير البلاد، ونكلوا عن نصرة سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخالفوا الأمرَ معتذرين بما يوحي بجُبْنهم وخَوْفهم وضعف قلوبهم، وتفضيلهم حياة الاستعباد على حياة السيادة والقيادة.

قالوا لنبيهم: نحن نخاف القوم الجبارين فيها، ولا طاقة لنا بهم، فإنهم عظام الأجسام أقوياء متسلطون لا يرحمون، وَإِنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَىٰ مُقَاوَمَتِهِمْ وإخراجهم من أرض الخير والعطاء، ولن ندخلها معك إلا إذا خرجوا منها بإرادتهم أو بمعجزة من السماء.

والخطاب الذي قاله قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا، نسمعه في زماننا من المخذِّلين والمرجفين الذين قَنعوا بتَخلُّفهم وضعفهم، ورضوا بهوانهم وذِلّتهم، واعتادوا على معيشة الدُّون.

ولا نسمعه ممن أحسنوا التوكل على الله، وعملوا لأمتهم ودينهم، وبذلوا أوقاتهم وأعمارهم وأموالهم لتعبيد الناس لربهم، ونشر دين الخير في الأرض.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾

هذان رجلان أنعم الله عليهما بنعمة التوفيق والسَّداد، وشرح صدورَهما لم يحبُّ ويرضى، وأجرى على ألسنتهما كلمة خير نحتاجها في أحلك الأزمات وأصعبها، ويكفيهما أن الله تعالى امتدحهما بالخوف منه.

الذين يُضيئون لمن حولهم الطريق ويُبْصرون طرائق التمكين قليلون في كل أمة، وهم على الغالب يعيشون غربة بين أهل زمانهم، ولكنْ قد يُجْري الله تعالى من الخير على أيديهم ما لم يخطر لهم ببال.

والمطلوب: أن تؤدِّيَ ما عليك، وألا تفرَّ كما فَرَّ غيرُك، وأن تحرصَ على بثِّ التفاؤل بين أبناء أمتك وتعيد الثقة إلى قلوبهم ليتغلبوا على ما أحاط بهم من اليأس والقُنوط.

بنو إسرائيل اعتذروا، فطلب إليهم هذان الرجلان أن يطيعوا أمر الله تعالى وأمر نبيهم، وأن يدخلو اعلى القوم الجبارين باب المدينة المقدسة، ويُباغتوهم بالقتال.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يظهرُ من كلامهما هنا أنهما يحملان ثقةً في القلب بموعود الله تعالى لهم على لسان نبيهم، وأن اليقين مَلأ قلوبهما وجوارحَهما، وأنهما باعا نفسَيْهما ليرضى الله عنهما، متسلحين في كل ذلك بصدق التوكل على الله والأخذ بالمقدور من الأسباب.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

جَدَّد بنو إسرائيل نكولهم عن الجهاد في هذه الآية، وعن مُصَابَرَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالَدَتِهِمْ، واستمروا في غيِّهم وتخلفهم وتمردهم، وأصروا على العصيان، وأعلموه مرة أخرى أنهم لن يدخلوها أبدًا، وأخبروه أنهم قاعدون في مكانهم منتظرون معجزةً بالنصر عليهم، فليذهب هو وربه فليقاتلا، وكأنهم يُلْمحون إلى ما تعودوا عليه في قصَّتهم مع فرعون ونجاتهم من بطشه.

قارنوا ردَّ بني إسرائيل على نبيهم عليه الصلاة والسلام، بما كان عليه أصحاب محمد ﷺ في سيرتهم مع نبيهم التي لم يتخلفوا فيها عنه قِيدَ أُنْملة، نصروه فيها بأرواحهم وأموالهم وأبنائهم وما يملكون.

ومن ذلك ما قاله الأنصار لنبينا ﷺ لما استشارهم في خروجه إلى بدر، كما أخرج البخاري عن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: شَهِدْتُ مِنَ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا، لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى المُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لاَ نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ، «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ».

وأخرج أحمد عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَمَّا سَارَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَدْرٍ خَرَجَ فَاسْتَشَارَ النَّاسَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ، فَسَكَتَ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ:

«إِنَّمَا يُرِيدُكُمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَالله لَا نَكُونُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، وَلَكِنْ وَالله لَوْ ضَرَبْتَ أَكْبَادَهَا حَتَّىٰ تَبْلُغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَكُنَّا مَعَكَ». وعبارة «أكباد الإبل» كناية عن السير السريع، لأن من أراد ذلك يركب الإبل ويضرب علىٰ أكبادها بالرِّجل، و«بَرْك الغماد» مكان من وراء مكة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

شكوىٰ من نبي الله موسىٰ لمن تُرفع إليه الشكوىٰ، شكوىٰ تلْمس فيها الحزن والأسىٰ علىٰ ما قالوه وأجابوا به أمر الله إليهم.

يا رب! لا تؤاخذني بجُرْمهم وظلمهم وعصيانهم، وأنت تعلم حالي وقلة حيلتي معهم، فأنا لا أملك إلا أمري وأمر أخي، فاقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَ قومي ممن فسق وخرج عن طاعتك، وافصِل بيني وبينهم بعلمك وقدرتك وحكمتك.

هل تعلمون أن هذه أولُ دعوةٍ دعاها نبيُّ الله موسىٰ علىٰ قومه، مع كثرةِ خصالهم التي أتْعَبَته.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

أنزل الله عَزَّوَجَلَّ بهم عقوبته، وحرَّم عليهم دخول الأرض المقدسة أربعين عامًا، وأوقعهم في التِّيه، يعني: تاهوا في الأرض أربعين سنة، يَسِيرُونَ دَائِمًا لَا يَهْتَدُونَ لِلْخُرُوجِ مِنْ مكانهم الذي هم فيه، ولا يدرون أين يذهبون ولا من أين يأتون، تاهوا في أرض سيناء كما ذكر بعض المفسرين.

ومع عقوبتهم في التيه هذا، إلا أن الله تعالىٰ عاملهم بإحسانه، وظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوىٰ، وحصلت معجزة الحجر الذي انفجرت منه اثنتا عشرة عينًا بضربه بعصىٰ موسىٰ، وغير ذلك من الإكرام.

وفي التيه، بقي سيدنا موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ معهم حتىٰ توفي، بقي معهم لِإِرْشَادِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ، وكان تعبه معهم سببًا في رفعة درجته وتبليغ رسالته علىٰ الوجه المَرضيِّ، وهي وظيفة الرسل، أَمَّا هُمْ فَكَانُوا فِي مَشَقَّةٍ وضَنَك وتَعب.

﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ تَسْلِيَةٌ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ السَّلَامُ: لَا تَتَأَسَّفْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَحْزَنْ، واعلم أنَّ الله تعالى عجَّل لهم عقوبتهم لعلهم يتأدبون مع خالقهم وسيدهم ومُغرقهم بالنعم.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّۘ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِۚ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾

تأتي هذه القصةُ التي لا يُمكن أن يخبر بها وبتفاصيلها إلا نبيٌّ في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وهي قصة نافعة وفيها من العبر والفوائد الكثير، وفيها من التربية والتوجيه ما تَفرح به النفوس الطيبة.

والخطاب فيها جاء لنبينا ﷺ ليقصَّ على اليهود خبرًا جرى في بَدء الخلق، وهو خبر لا يسعهم أمَامَه إلا أن يؤمنوا بهذا الدين، ولكننا ما عهدنا منهم إلا التكذيبَ والجحودَ والكبْرَ والعنادَ، اقْصُصْ عليهم يا محمد ﷺ وعلى سائر الناس قصةً يعرفون بها عاقبة الحسد الذي صرف اليهود عن دين الإسلام، الحسد الذي جعل الأخ يقتل أخاه كما في القصة هنا، ويرميه في الجُبِّ كما في قصة سيدنا يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

اتل عليهم وعلى سائر الناس نبأً عظيمًا، وهو نبأ ابنَيْ آدم، نبأٌ يبين لهم شيئًا من خصال أهل البغي والظلم وجزائهم ليرتدعوا وينتفعوا، يبين لهم جزاء قَتْل النفس المعصومة، وعاقبةَ من لم يرض بحكم الله وشرعه، أخبرهم ليتذكروا عاقبة المطيعِ لربه والعاصي.

واتْلُهُ عليهم بالحق، أي: هو خبرٌ يقين لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا كَذِبَ، وَلَا وَهْم وَلَا تَبْدِيلَ، وَلَا زِيَادَةَ وَلَا نُقْصَانَ.

وهنا أسجل دعوة لطلاب العلم وطالباته بأن يُقْبِلوا على الانتفاع بهذه الآيات وبما بعدها، فإن فيها فوائدَ ومُلحًا نفيسةً كما هو حال جميع آيات القرآن، الآيات هنا تجعلك تدرك حقيقة الدنيا وطبيعة البلاء فيها، وكيف يكون الاختلاف بين البشر طامَّةً عليهم في عدد من الأحوال.

آدمُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان له ابنان من صُلبه، قدَّم كل واحد منهما قربانًا يتقرب به إلى الله تعالى ليعرف قَدْره، وهذا القدر إنما يعرفُ بقبول الله تعالى لما قدَّم.

والقرآن لم يذكر، هل كان تقديم القربان بأمْر من الله أم باجتهادٍ منهما، فإنَّ معرفة ذلك ليس لها كبير أثر.

كما أن القرآن لم يبين لنا كيف تقبل الله، هل كان ذلك بوحي من الله لأبينا آدم، أمْ عرفوا ذلك بنار تَنْزِل من السماء وتأكل قربانَ المقبول منه.

وقد جاء في نصوص متعددة عن أئمة التفسير من الصحابة والتابعين، أنَّ ابنَيْ آدم هما قابيل وهابيل، وأن الله تعالىٰ تقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل، فامتلأَ قلب الآخر غيظًا وحقدًا علىٰ أخيه، وحسده علىٰ إكرام الله له، فقال الشقي لأَخيه التقي: لأَقتلنك، يريد بذلك أَن يتخلص منه، حتىٰ لا يراه بعدما تقبل الله قربانه، فإن غريزة الفساد لا تطيق الصلاح، ولا تطيق أن يتكلم الناس عن صاحب الفساد بسوء ويذكروا غيره بخير.

ومِمَّا ذكره المفسرون كذلك، أن القاتل قابيل كان قد قدَّم من رديء ماله خوفًا عليه، وأن المقتول هابيل كان قد قدَّمَ أجودَ ماله وأحسنَه عنده، قدَّمه بطيب نَفْس منه، فأخذت النار قربان المخلص التقي النقي فقط.

وقد روىٰ غير واحد من المفسرين عن ابن عباس وغيره، أن قابيل قتل هابيل لأنه أراد الزواج بأخته التي جاءت معه في بطن واحد، لا بأخت هابيل التي جاءت معه في بطنه، فطلب منهما أبوهما آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يقدما قربانًا يعرفان به ما يَأمرُ به الله وأيهما أحق بأخت قابيل، فقدم قابيل الذي كان يعمل في الزرع قربانًا قليلًا من زرعه، وقدم هابيل الذي كان صاحب غنم قربانًا كبشًا نفيسًا وثمينًا هو أكرم ما عنده، فَقَبِلَ الله الْكَبْشَ، حيث بعث الله نارًا فأخذت الكبشَ، فما زال يأكل فِي الْجَنَّةِ أَرْبَعِينَ عاما، وَهُوَ الْكَبْشُ الَّذِي ذَبَحَهُ إِبْرَاهِيمُ فداءً لولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، ولكن هذه التفاصيل لم تذكر في القرآن أو في السنة الصحيحة، وغالبها مأخوذ عن كتب بني إسرائيل، والله أعلم.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إجابة من تقبَّل الله منه، تحمل دعوةً لأخيه بأنْ يراجعَ نفسه، ويراقبَ عمله، ويحرصَ علىٰ التقوىٰ فإنها خير زاد، وهي سبب القبول والفلاح، وكأنه يقول له: أنا لا ذنب لي؛ إذْ كل ما أفعله هو أني ممن يحرص علىٰ التقوىٰ، وعلىٰ أداء الطاعات واجتناب المحرمات، ولا يملأ قلبي إلا رجاءَ أن يرضىٰ الله عني ويتقبَّلَني عنده.

ومثل هذه الكلمات تنفعنا في سيرنا إلىٰ الله تعالىٰ، وتذكرنا بما ينبغي أن يملأ قلوبنا وأرواحنا في جميع حالنا، وهو تقوىٰ الله تعالىٰ وخشيتُه في السر والعلن.

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾

يقول لأخيه الذي توعده بالقتل: لن أقابل سوء صنيعك بمثله، ولن أكون مجرمًا مثلك، ولن تمتد يدي لعملٍ أندمُ عليه في دُنياي وآخرتي، ولن أستحلَّ قَتْلك بما لم يأذن به الله.

وهذا الخطاب من علامات صلاحِه وتقواه، فإنَّ الدماء أمرُها عظيمٌ، والأُخوَّةُ في النسب لها قدرُها ومكانتُها، وكذا الأخوة في الدين، فتأمَّلوا.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كأنه يريد أن يذكِّره بقدْرته على قتلِه أو الدفاع عن نفسه، ولكن الخوف من الله مالكِ أمْر الخلائق كلِّها حال بينه وبين إقدامه على ذلك، فصبر واحتسب، وقد أخرج الطبري عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه قال: «وأيمُ الله، إنْ كان المقتول لأشدّ الرَّجُلين، ولكنْ مَنَعَه التحرُّجُ أن يبسطَ يده إلى أخيه».

وفِعْله هذا أرشد إليه نبينا ﷺ عند وقوع الفتن، واختلاط الحق بالباطل، وحصول القتال على الدنيا، فقد أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «سَتَكُونُ فِتَنٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ (يعني: من تعرض لها تهلكه وتغلبه)، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ».

وأخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرُهم، عنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَفِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، كَسِّرُوا قِسِيَّكُمْ (جمع قوس وهو آلة القتال)، وَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ (جمع وتر وهو قطعة من القوس)، وَاضْرِبُوا بِسُيُوفِكُمُ الْحِجَارَةَ (يعني: دقوا رؤوسها لتنكسر فلا تقتلوا بها)، فَإِنْ دُخِلَ عَلَى أَحَدٍ بَيْتُهُ، فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ».

وفي ذلك جاء حديث الصحيحين عن أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، هَذَا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ».

وقد حمل أهل العلم هذه الأحاديث على حال من لم يكن الحق ظاهرًا عنده، أو كانت كلتا الطائفتين تقاتل الأخرى ظُلمًا، أما إذا عُرف الحق وأهلُه فالواجب في مثل ذلك نصرة الحق وأهلِه والدفاعُ عنهم بحسب ما يقدر، وكذلك لو اعتدى أحدهم أو صال على نفسك أو مالك أو أهلك، فلكَ أن تدفعه بما تقدر وأن وصلت مدافعته إلى قتله، وهو ما بحث أهل العلم أحكامه في كتبهم في باب الصِّيال.

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ ﴾

لن أبدأ بقتالك، ولن أدافع عن نفسي أمامك، وأريد باستسلامي هذا أَن تأخذ إثم قتلي وظلمي واعتدائك عليَّ، وتبوء بإثمك فيما أقْدَمت على فعله من قتلي، فضلًا عن جزائك السابق الذي منع تقبُّل قربانك، فتكون بما حملت من الإثْمَيْن من أصحاب النار، أي: تدخلها وتتقلب في عذابها، وتكون من سكانها ووقودها، ولا أريد أن ينالني شيء من ذلك.

وكأنه بهذا الخطاب يريد أن يوقظ ضميره مرةً بعد مرةٍ، ويُذكِّرَه بمصيره إن فعلَ، ويوجهَه إلى أنَّ الأخ لا يقتل أخاه، وأن أمراضَ قلبه لن تعود عليه بخير.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الظلم ظلمات يوم القيامة، والقاتل له جزاؤه عن فعلته الشنيعة إذا كان ظالمًا، ومعلوم لديكم أن المقتول ظلمًا سيأخذُ حقه بين يدي الرب من قاتله، في اليوم الذي يكون القصاص فيه بالحسنات والسيئات.

﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ ﴾

بذلَ له أخوه الصالحُ من النصح والإرشاد الكثيرَ، ورغَّبه ورهَّبه، ونوَّع له وتدرَّج معه في التذكير، فما أورثه ذلك إلا الإصرارَ على الغَيِّ والانهماكَ في الفساد، فقتله بعد أن سهَّلت له نفسه له قتْله، وحسَّنت ذلك وشجَّعته عليه وزيَّنته له.

قتلَ أخاهُ الصالحَ الذي لا ذنب له في عدم قبول قربانه، وكأنه كان في صراع داخلي جعله يتردد في قتله، وقد قال بعض المفسرين: إنه قتله حين كان نائمًا مخادعةً.

ثم أخبرتنا الآية في ختامها بأنه أصبح من الخاسرين بجريمته النكراء التي لا مبرر لها، الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بإفساد فِطرتها، وخسروا أَقربَ الناس إليهم وأعونَهم على بأساء الحياة، وخسروا حُسْن الذِّكر في الدنيا، والنجاة من العقاب في الآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وأكبر خسارة له ما أخبر عنه ﷺ في الحديث المتفق عليه، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُقتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا (يعني: نصيب وحظ)؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».

وهذا الأمر فيه تأكيد للقاعدة العظيمة التي ينبغي لنا أن نلتفتَ إليها، وهي أنَّ كل من ابتدع شيئًا من الشر، أخذ مثلَ وزر من قلده في ذلك واتَّبعه واقتدى به، وأنَّ من أحْيا سنة ودعا إلى خير، كان له مثلَ أجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

أخرج مسلم عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ : «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

لم يكن الدفنُ معروفًا للبشرية قبل هذه الحادثة التي كانت أول قَتْل جرى على هذه الأرض، ولذلك أصابت الحَيْرة الأخَ القاتل لَمَّا رأى جثة أخيه كيف تغيرت، وخرجت منها رائحةٌ، وكره النظر إليها، فأراد مواراتها والتخلُّصَ منها.

حينئذ: أَرسل الله غرابًا، وجعله يحفِرُ أَمامه في الأَرض بمنقاره ورجليه حفرةً واسعةً، فعرف بذلك كيف يواري سوءَة أَخيه ويدفنُ جثته.

ومن أهل التفسير من قال: إن الغراب دفن غرابًا آخر ميتًا وواراه بالتراب، فعلم بذلك ما يفعل.

﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾

نداؤه هنا نداءُ حسرة على ضعفه وجهله وقلة معرفته بما يصنعه في بدن أخيه الميت، حتى قيَّض الله تعالى له غرابًا ليعلمه السُّنة فيمن يموت من الناس، فكانَ الغراب على دراية أكثرَ منه في ذلك.

وحسرته هذه ربما كانت ندمًا على ما اقترفه من قتل أخيه ظلمًا، وهذا الندم نجده في كثير ممن ابتُلي بقتل غيره، فقد كان من جهله يظن أن القتل هو الحلُّ الأمثل، حتَّى إذا فعَله وذاقَ شيئًا من وَيْلاته على حياته وحياة من حوله، بدأت تلك الحلولُ المتعددة تلوح له بعد أن كانت غائبة عنه قبل القتل، ولكن حين لا خلاص ولا مناص.

وتنبهوا هنا إلى أن النَّدم لا يعني التوبة إلى الله، فكم من نادم لم يتحرك قلبه تخشُّعًا وذلةً للرَّبِّ العظيم، وهذا ما يُفسِّرُ عدمَ انتفاع قابيل بندمه، وكيف ناله ما ناله من عقوبة الله له بتحميله جزءًا من إثم كل مَن قَتلَ بعدَه.

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾

يبين القرآن العظيم مكانة الدماء عند الله وعظم أمرها، صحيح أنها جاءت في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وأنها تُخبر عما أوجبه الله عليهم، لكن المتأمِّل في بلاغتها ووصْفها يدرك أنها تصلح خطابًا لكلِّ الأمم في كل الأزمان، ذلك أنها تعلقت بحَدَثٍ حصل في أول هذه البشرية، قام فيه أحدهم بقتل أخيه عدوانًا وظلمًا وحسدًا، ونال بسبب فعلته سخطَ الله ومشاركةَ كل من قَتَلَ بعده بالإثم.

من أجل هذا الحدث الجلَل، وتعظيمًا للأنفس التي بها دوام الحياة وعمارةُ الأرض، كتب الله على بني إسرائيل وشرع لهم وأوجب عليهم، أنه من قتل نفسًا معصومةً لا يحل له الاعتداء عليها، فكأنما قتل الناس جميعًا، لأنَّ الجرأة على سفك دم فيه جرأة على المجتمع كله.

ومن أهل العلم من قال: إن معنى الآيةِ هنا أنَّ قاتل النفسِ بغير حق يُعذب عذابَ قَتْلِ الناس جميعاً يوم القيامة.

وعلى كلا التفسيرين تَظْهر فظاعة القتل وشرورُه، وتظهر بلاغة القرآن في الترهيب من قتل النفس المعصومة والاعتداء عليها، والإعانة على ذلك، وتظهر حكمة القصاص في شرعنا الذي وصفه كلام الله بأنه حياة. قال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

والنصُّ القرآني هنا أشار إلى مواطن لا تكون النفس فيها معصومةً، بل تكون عقوبتُها القتلَ الذي يقيمه إمام المسلمين وقُضاتُهم، فقول الله تعالى: ﴿نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يشير إلى وجوب القصاص من القاتل المتعمد، وقول الله تعالى: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يشير إلى فساد أهل الكفر في الأرض ومحاربتهم لدين الله ولزوم قتال الحربيين منهم، وكذلك يشير إلى بعض أنواع الإفساد التي يجب قتل أصحابها كما في بعض حالات البَغْي والحرابة التي سيأتي بيانها في الآية التالية.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾ من أحيا النفس الإنسانية ولم يعْتدِ عليها بقتلها، وحكَّم أمر الله فيها وحَرّم قَتْلَهَا إِلَّا بحق، وأحياها بإنقاذها من هلاك محقق كغَرَقٍ وحرْقٍ، وأحياها بعفوه عنها إن كان من أولياء الدم بعد أن وجب القصاص عليها، فكأنما أحيا الناس جميعًا؛ لأن كل الناس أمِنت منه، ولأن حِفظه لنفسٍ واحدةٍ فيه حفظ للناس وأمنْ لهم.

ومن أهل العلم من قال : يُعطى أجر من أحيا الناس جميعًا.

قلت: وعلى كلا التفسيرين تأملوا قدر النفس وقيمتها عند الله، وتأملوا ترغيب الشرع بحفظها واستبقائها.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾

هؤلاء هم بنو إسرائيل؛ أرسل الله إليهم الرسولَ بعد الرسولِ، وأيدهم بالآيات الواضحات والحجج والدلائل على صدقهم، وعلى ما أمرهم به من حفظ الأنفس ومنع التعرُّض إليها إلا بحقٍّ، ولكنهم كعادتهم أعرض كثيرٌ منهم عن الشريعة وعما فرضناه عليهم وكتبناه، وأسرفوا وتمردوا في قتل الناس، وإيقاد نار الحروب والبغي والعدوان، ولم يغن عنهم إرسال الرسل شيئًا ولا انتفعوا به.

قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [البقرة: ٨٣-٨٥].

هذا الخطاب الرباني لم يمنع بني إسرائيل من قتلهم عددًا من أنبياء الله تعالىٰ كزكريا ويحيىٰ عليهما السلام كما ورد في آثار عن الصحابة والتابعين، ولم يمنعهم من الاعتداء علىٰ الآمرين بالقسط من الناس، ومن قرأَ تاريخهم عرف كثيرًا مما اقترفته أيديهم من مذابح وتحريق وتمثيل بالبشر، وكتبهم ناطقة بما يندىٰ له الجبين.

ولا نبتعد بهذه الآية كثيرًا عن واقعنا اليوم، فإن استباحة الدم المسلم قد اجتمع عليها أهل الشر في الأرض، وحصلت كذلك بين المسلمين أنفسهم خصومات ونزاعات أورثت دماء سالت بغير حق، وسبَّبت فرقة بين أبناء الأمة الواحدة، وجَرَّأت أعداء الدين علىٰ النيل من أهله. أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ الله مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ».

ولا يفوتنا تذكير أنفسنا بسياق هذه الآيات الذي علَّمنا أن الحسد داءٌ، قَتَل بسببه قابيلُ هابيلَ، وفتحَ علىٰ البشرية بابَ شرٍّ بذلك، إلىٰ أن جاء زماننا الذي أسقط فيه دعاةٌ دعاةً، وعلماءُ علماءَ، وخاض كثير من المسلمين في أعراض إخوانهم ودمائهم.

أخرج أحمد والترمذي بسند حسَّنه غير واحد من أهل العلم، عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ: الْحَالِقَةُ، حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعَرِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا، أَفَلا أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ».

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾

آية تخص حدًّا من الحدود الشرعية في نظام العقوبات في ديننا، وهو حد الحرابة المتعلق بمن يُخيف الناس ولا يحفظ حقوقهم، ويستَأْسد عليهم ويعتدي علىٰ أنفسهم وأعراضهم وأموالهم في طرقاتهم.

واعتداؤه يكون بالقوة والقهر والمغالبة، وقد تكون له عصابةٌ تقطع الطرقَ علىٰ الناس، وتدخل عليهم أماكن تجارتهم ومعاشهم.

ويكون اعتداء أهل الحرابة كذلك مجاهرةً، وليس خُفْية وسرًّا؛ لأنَّ أخذ المال خفية هو السرقة التي تقطع فيه اليد، وخطف المال مع الهروب يسمى انتهابًا واختلاسًا لا تقام فيه عقوبة السرقة ولا الحرابة، ولكنه يعاقب عقوبة تعزيرية ترجع إلى اجتهاد الحاكم.

الآية هنا تتكلم عن فعل فيه محاربة لله ولشرعه الذي جاء به رسوله ﷺ، فإن شريعتنا جاءت بحفظ الأنفس والأموال والأعراض، وشرعت من الأحكام ما يقيم هذا الحفظ على خير حال، ثم شرعت من العقوبات ما يتأدب به من سولت له نفسه واعتدى.

هذا الفعل فيه سعي بالفساد في الأرض، لأنه يُفقد الناس أمْنهم وأمانهم، ويجعلهم في خوف دائم وقلق عجيب، ويسبب قلةً في الأنفس وضياعًا للمال.

والحرابة هذه قد تكون في البر أو في البحر أو في الجو، وقد يفعلها المسلم أو غيره.

أخرج البخاري ومسلم في سبب نزول هذه الآية قصَّة العُرَنِيِّين، والتي أخبر فيها أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن نفر مِنْ عُكْل وعُرينة (أسماء قبائل) عددهم ثَمَانِيَة، قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَاسْتَوْخَمُوا الْأَرْضَ وسَقَمت أَجْسَامُهُمْ (يعني: استثقلوا البقاء في المدينة وَلم يُوَافق هواؤها أبدانهم وأصابهم المرض)، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ فَتُصِيبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا؟» فَقَالُوا: بَلَى. فَخَرَجُوا، فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا فَصَحُّوا، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَطَرَدُوا الْإِبِلَ (ساقوها سوقًا شَدِيدًا وأخذوها وهربوا بها)، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ، فأُدْرِكُوا، فَجِيءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وسُمرت أَعْيُنُهُمْ (أُتِيَ بِمَسَامِيرَ فَأُحْمِيَتْ فَكَحَلَهُمْ بِهَا)، ثُمَّ نُبِذُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا».

وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ: قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: فَهَؤُلَاءِ سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَكَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَحَارَبُوا الله وَرَسُولَهُ.

وفي رواية عند أبي داود والنسائي: فأنزل الله تبارك وتعالى فى ذلك: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ، أَنَّهُ ﷺ إِنَّمَا سَمَلَ أَعْيُنَهُمْ قِصَاصًا؛ لِأَنَّهُمْ سَمَلُوا عيني الراعي.

الآية نزلت في بيان عقوبة من فعل ذلك بعد هذه الواقعة، ونصت على عقوبات أربع هي:

١- أن يُقتَّلوا: أي: نقتلهم بدون صَلْب، وتقتيلهم بمعنى إقامة العقوبة عليهم دون النظر إلى عفو ولي الدم أو مطالبة صاحب الحق من عدمها، يعني: ليس كما نفعل في القصاص.

٢- أو يُصلَّبوا: الصلب هو وَضْعُ الْجَانِي مَشْدُودًا عَلَى خَشَبَةٍ ممدودَ اليدين إلى جانبه، والصلب هنا يكون مع القتل، وهل يصلب قبل القتل أم بعده؟

الأحناف والمالكية على أن الصلب يكون قبل القتل لِأَنَّ الصَّلْبَ عُقُوبَةٌ، وَإِنَّمَا يُعَاقَبُ الْحَيُّ لاَ الْمَيِّتُ.

أما الشافعية والحنابلة فالصلب عندهم يكون بعد القتل لأن الآية ذكرت القتل أولًا، وحتى لا يكون في صلبه تعذيبٌ له وتمثيلٌ به قبل قتله، ولأن الصلب فيه عبرةٌ للناس إذا رأوه.

وَعَلَى هَذَا الرَّأْيِ: يُقْتَل، ثُمَّ يُغَسَّل، وَيُكَفَّنُ، وَيُصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصْلَبُ، وَيُتْرَكُ مَصْلُوبًا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا وَلاَ يَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَيْهَا.

٣- أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف: أي أن قطع اليد والرجل يكون بحال التخالف: إذا قطعت اليد اليمنى تقطع القدم اليسرى، وإذا قطعت اليد اليسرى تقطع القدم اليمنى.

٤- أو يُنفوا من الأرض: يخرجهم الحاكم أو القاضي مِنْ الأرض التي أفسدوا فيها، إِلَى بَلَدٍ آخَرَ لا قوة لهم فيه، ومعلوم لديكم أنه إِذَا أُخْرِجَ أحد من أرضه ووطنه ذُلَّ وخفَّ ضررُه وشرُّه.

وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن العقوبات المذكورة في الآية تكون على قدر الجريمة ودرجة الإفساد: فمن قتلَ نقتُله، ومن قتل وأخذ المال نقتُله ونصلبُه، ومن أخذ المال نقطع يده ورجله من خِلاف، ومن أخاف الناس ولم يقتل أو يأخذ المال ننفيه من الأرض، وفي مذهبهم تفصيل في ذلك يراجع في مظانه.

أما عند المالكية فإنه إن قتل فلا بد من قتله أو صلبه، وإذا سرق فالإمام مخير بين قتله وصلبه وقطعه من خلاف، أما إذا أخاف الناس فقط فالإمام مخير بين العقوبات الأربع في الآية على تفصيل في ذلك عندهم.

وهل يقام حد الحرابة خارج العمران فقط، فيكون على من يقطعون على الناس طريقهم في السفر ونحو ذلك، أم يقام خارج العمران وداخله، فيكون على من يُروِّعون الناس في قراهم وأسواقِهم وعمرانِهم؟

الحنفية والحنابلة على أن حد الحرابة لا يقام على من يفعلون ذلك في القرى والعمران، ولكنهم يعاقَبون بحسب جريمتهم بالعقوبات الأخرى المعروفة، أي: إذا سرقوا تُقطع أيديهم، وإذا قتلوا فالقصاص، ولوليِّ الدم أن يعفو عنهم، وهكذا.

أما المالكية والشافعية، فيكون خارج العمران، ويكون داخله كذلك إذا فُقد الغَوْثُ والعونُ، يعني: يكون المُعتدىٰ عليه في مكان لا يسمعه أحدٌ إذا صرخ، أو قد يسمعه ولكنه لا يقدر علىٰ مساعدته لقوة المعتدي.

وفي حد الحرابة أحكام متعددة استطردت كتب أهل الفقه في بيانها.

﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عقوبات شرعيَّة تُلحقُ بِمنْ أُقيمت عليه خزيًا بين الناس يعلمه القاصي والداني، فليس سهلًا أنْ يُصلب أحدهم أمام الناس أيامًا، وليس سهلًا أن يذكرَه الناس بخيانته لدينه وأهله ومجتمعه، بل قد يمتد الأمر إلىٰ أن يُؤذىٰ أقرب الناس إليه مع براءتهم مما يفعله قريبهم.

وهذا الخزي ممتد إلىٰ أرض المحشر، وإلىٰ النار التي أعد الله تعالىٰ فيها عذابًا شديدًا مُؤلمًا لمن اعتدىٰ علىٰ أمْن الناس وخوَّفهم وعرَّضهم لما تعلمون.

ولقائل أن يقول: هل تكون إقامة العقوبة علىٰ المسلم كفارةً له علىٰ حرابته؟

والجواب عند جمهور أهل العلم: نعم، إذا اقترنت التوبة الصادقة بذلك، فقد أخرج البخاري ومسلم واللفظ للبخاري، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ العَقَبَةِ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايِعُونِي عَلَىٰ أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَّىٰ مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ الله، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ الله فَهُوَ إِلَىٰ الله، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ».

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

حكم شرعي يحمل نداء لمن اتبع خطوات الشيطان وكان ممن قطع علىٰ الناس طريقهم، وآذاهم في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، حكمٌ شرعي يحمل دعوة لهؤلاء ليرجعوا عن غيِّهم وضلالهم، ويتوبوا إلىٰ ربهم من جُرمهم وإفسادهم، فيضعوا السلاح ويستسلموا للقائمين علىٰ أمر المسلمين قبل القدرة عليهم والتَّمكُّن منهم، فإن تابوا بعد إمساكهم فلا أثر لتوبتهم في الدنيا، وليس لأحد أن يعفوَ عنهم، ووجبَ علىٰ الحاكم إقامةُ الحد عليهم، أما في الآخرة فأمرهم إلىٰ الله.

وتوبتهم قبل القدرة عليهم لها ثمرةٌ عظيمةٌ في دنياهم وفي آخرتهم، ففي دنياهم تسقط عنهم العقوبة الخاصة بِحَدِّ الحرابة وهي تحتُّمُ القتل والصلب والقطع والنفي، وتبقى الحقوق المتعلقة بأموال الناس وأنفسهم، بمعنى أن التائب إذا أخذ من أموال الناس فإنه يرد أموالهم إليهم، وإن اعتدى بالقتل على أحدهم فنطبق أحكام القصاص في الأنفس ولا يتحتَّمُ القتلُ، فإما أن يقتص الأولياء وإما أن يعفو إلى الدية، وإما أن يعفو بدون مقابل، وهكذا.

أمَّا في الآخرة، فقد دلَّ ختامُ الآية على أن الله تعالى يقبلُ رجعتَهم إليه ويعفو عنهم ما استجمعوا شروط الإنابة والتوبة، ومن شروط التوبة أن يتحللوا من حقوق الناس الذين اعتدوا عليهم لئلا يجري عليهم القصاص بالحسنات والسيئات في أرض المحشر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥ ﴾

تذكيرٌ لأهل الإيمان بتقوى الله تعالى القائمة على فعل ما أمر واجتناب ما نهى، وعلى أن يجعل الواحد منا بينه وبين الشهوات والذنوب سدًّا وحاجزًا، وعلى خشية الله تعالى في السِّر كما في العلانية، والقائمة على تطبيقِ الأحكام الشرعية التي أمَر الله تعالى بها هنا في السياق.

﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

يُظهر هذا الحديث الوسيلةَ التي يأمر الله تعالى بها عبادَه ليبلغوا رضاه ويفوزوا بجنته، وسيلةٌ قوامها التوحيد والمسارعة إلى امتثال أمر الله فيما افترض وأمر، ثم المبادرة بالنوافل والسنن، والدوام عليها والإكثار منها حتى نَنَال محبتَه.

ولنا في رسولنا ﷺ أسوة حسنة، فإنَّ السَّيْرَ على خطاه واتباعَ هديه في العبودية هو عين الوسيلة التي أرادها ربنا في هذه الآية. قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وهنا لفتة وَعْظية نفيسة أُذكر بها نفسي وطلابَ العلم وطالباتِه، أقول فيها: أعظمُ وسيلة تُرضي ربنا عنا هي سلامةُ صدورنا من الشرك وطرائقه، وتعلُّقُ القلب بالله وحده، والبعدُ عن طرائق أهل الزيغ التي تربط الناس بالبشر أكثرَ من ربِّ البشر، حتىٰ يظن واحدهم أن فلانًا من الناس يملك له النفع والضر فيناديه ويناجيه. قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وتأملوا كيف أن الله تعالىٰ نادىٰ عباده نداءً لا مرية فيه ولا شك قائلا: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ الجهاد في سبيل الله إقامة للدين وحفظٌ له من أعدائه الذين يتربصون به وبأهله، وفيه قَطْعٌ لمادة الفساد في الأرض وتضييقٌ لمجاريها، وفيه كما جاء هنا فلاح ما بعده فلاح: سعادةٌ وعِزَّةٌ ونشْرٌ للخير في الحياة الدنيا، ثم فضائلُ لا تعد ولا تحصىٰ في الدار الآخرة، خصَّ الله بها من جاهدوا لتكونَ كلمة الله هي العليا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ ﴾

يستطيع أهل الكفر أن يفتدُوا أنفسهم في الدنيا وينقذوها من سخط الله وعذابه بدخولهم في دين الإسلام الذي جاء به أنبياء الله جميعًا، والذي يكرم الله من أقبلَ عليه بميلادٍ جديدٍ يمحو الله تعالىٰ به الخطايا، ويحفظ علىٰ صاحبه النفس والمال والولد.

ولكن كثيرًا من أهل الكفر لم ينقادوا لخالقهم مع أنَّ الدعوة بلغتهم، والحجةَ أقيمت عليهم، ومثلهم أعد الله لهم في الآخرة عذابًا شديدًا موجعًا مؤلمًا مهينًا؛ إنهم كفروا بالله العظيم فلم يؤمنوا بوجوده، ومنهم من اتخذ معه شركاء من البشر والحجر، ولم يؤمن بكتب الله جميعًا ولا برسله، أو فرَّقوا بين الله ورسله، وآمنوا ببعض رسل الله وكفروا بآخرين.

ومنهم من قتل عددًا من أنبياء الله، واشتد إيذاؤه علىٰ العلماء والدعاة والعُبَّاد، ومكرَ لبلاد المسلمين وكادَ بهم، وأشاعَ الفاحشة في المجتمعات، وبَغَىٰ واعتدىٰ وظلَمَ.

هؤلاء، لو كانت لهم كنوز الأرض كلُّها، فبذلوها في أرض المحشر، وبذلوا كذلك كنوزًا أخرىٰ مثلها لتكون فداءً لهم من النار ما تَقَبَّل الله منهم، ولا رضي عنهم، ولا عفا عنهم.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

آيةٌ تدل على خلود أهل الكفر في النار، وأنها محل إقامتهم ومكوثهم بعد البعث والحساب، لا يخرجون منها ولا يهربون.

عُرضت عليهم الهداية كثيرًا، وأقيمت عليهم الحجة بعد الحجة، ورأوا آيات الله تملأ الآفاق والأنفس، لكنهم اختاروا البقاء في الكفر، والتَّقلبَ في الحرام، فكان بقاؤهم في النار جزاءً وفاقًا.

وهنا وصْفٌ لحالتهم التي يكونون عليها في النار، كيف أنهم يريدون الخروج منها ولكنْ هيهات، كما قال ربنا: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٢٢].

بل ذَكرت آيات الله تعالى عددًا من نداءاتهم واستغاثاتهم، فلا يجدون إلا الخيبة والخسران والذِّلةَ والمَهانة، كما في قول الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون ١٠٦-١٠٨]، وقولِ الله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

أَمْرٌ من الله تعالى بإقامة حَدٍّ من الحدود التي أوجبها سبحانه، حدٍّ تُحفظ به الأموالُ التي لا تكون الحياة إلا بها. أخرج أحمد وابن ماجه وغيرهما بسند حسنه بعض أهل العلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «حَدٌّ يُعْمَلُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، خَيْرٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا».

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَعَنَ الله السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ».

أوجبت الآية هنا قطع يد السارق والسارقة إذا امتدت أيديهما إلى مال الآخرين، وهذا القطع له فقهه عند أهل العلم، ومن أبرز معالم فقه إقامة هذه العقوبة:

١- أن تكون السرقة قد حصلت خُفية بدون علم صاحب المال، يعني: لا يقام حد السرقة في حال حصل أخذ المال خِلسة أمام عيني صاحبه، ولكنه يعاقب عقوبة تعزيرية يرجع تقديرها للحاكم ومن ناب مكانه من القضاة .
وكذلك لاتقام إذا أخذه عنوة وقهرًا، فهذا يدور بين الحِرابة والصَّيال، ولكلٍّ حَكمه.

٢- أن يكون المال في حرزه اللائق به، يعني: في مكانه الذي يحفظ فيه أمثاله عادة، فالذهب حرزه الصندوق أو المكان المغلق عليه، والنقود حرزها الجيب أو المحفظة أو غيرهما مما جرت به العادة، وهكذا، فإن حصلت السرقة من غير حرز فلا تقام عقوبة السرقة، وإن كانت تقام على الفاعل عقوبة تعزيرية.

٣- الذي يقيم العقوبة هو الإمام أو من ناب مكانه، ولا يوكَل ذلك إلى الأفراد لئلا تحصل فتنةٌ أكبر، ولأن التحقق من السرقة ووجوبَ إقامة العقوبة فيها له فقهه الذي يعجز عنه الأفراد، ولا يقيمه على الوجه الصحيح إلا صاحب سلطات ممتدة.

٤- لا تقام العقوبة إلا على البالغ العاقل، ولا تقام إلا إذا بلغ المال المسروق نصابا وهو ربع دينارٍ من الذهب عند جمهور الفقهاء، ودينار الذهب يساوي ما وزنه ٤،٢٥ غرام، فيكون ربعه ١،٠٦ غرام تقريبا، فمن سرق أكثر من قيمة ربع دينار قُطعت يده، ومن سرق أقل من ذلك لا تقطع يده ويُقام عليه عقوبة تعزيرية.

٥- ولا تقام إذا كان للسارق شبهةُ مِلك في المال المسروق، كسرقة الوالد من ولده، وسرقة أحد الشريكين من مال الشركة، وغيرِ ذلك.

٦- وكذا لا تقام حال الاضطرار الذي يكون فيه خوف الهلاك أو الموت، وهذا الشرط هو الذي جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يقيم عقوبة السرقة على عددٍ مِمَّن سرق في عام المجاعة، فإنهم وصلوا إلى حاجة شديدة يغلب على ظنهم هلاكهم بها.

٧- تقطع اليد في حد السرقة من الرسغ، وهذا عند عامة أهل العلم.

٨- أجمع الفقهاء على قطع يد السارق اليمنى من الرسغ، فإذا عاد إلى السرقة ثانية قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم، فإذا عاد ثالثةً أو رابعةً، فيُعاقب عقوبة تعزيرية عند الحنفية والحنابلة، بخلاف المالكية والشافعية الذين ذهبوا إلى قطع يده اليسرى في الثالثة ثم رجله اليمنى في الرابعة.

٩- الحدود إذا بلغت الإمام فلا شفاعة؛ لأن الحق فيها بعد وصولها للقضاء يكون للشرع لا لصاحب المال فقط، كما دل على ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا سَرَقَ بُرْدَةً فَرَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَرَ بِقَطْعِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْهُ (أي: سامحتُه). قَالَ: «فَلَوْلَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ يَا أَبَا وَهْبٍ»، فَقَطَعَهُ رَسُولُ الله ﷺ.

فالشرع لا يحابي أحدًا في ذلك، ولا ينظر فيه إلى لون أو جنس أو نسب، ومن أعظم ما جاء في ذلك، ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ الله ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ الله ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ (يعني: أظهر خطبته في الناس)، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ الله لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

وقد غمز صنف من المتربصين بهذه الشريعة ولمز في حكم الله هنا، وتبعهم على ذلك صنف من ضعاف الفهم والعلم، وأوردوا كلامًا معسولًا يظن قارئه أنه قويٌّ ووجيهٌ، يقولون: لِمَ نقطع يد السارق ويعيش بلا كف طوال حياته، فيواجه صعوبات متعددة في تعامله مع مجتمعه وفي طلبه للرزق، ويقترحون أن تُستبدل هذه العقوبة بالسجن مثلًا، أو الجلد، أو غير ذلك.

وحقيقة هؤلاء أنهم نظروا في حال السارق المجرم الجاني، ولم ينظروا فيما أَحْدثه في البيوت بل في المجتمع كله، فالسارق هدد أمن المجتمع وجعل أفراده في خوف دائم، والسارق اعتدى على مال غيره ممن أمضى عمره في العمل وجمع هذا المال، واعتدى على قوت عيال غيره، ولعلكم لو تأملتم في تفاصيل سرقته لعلمتم كيف انتهك حرمة البيوت والمِلك الخاص للأفراد، وكيف خلفت سرقته آثارًا نفسيةً عميقةً فيمَنْ حوله، وكيف عرَّض الأرواح للخطر.

ثم إن عقوبة السارق أمر متفق عليه بين أهل الأرض جميعًا، وهي عقوبة توافق العقل والفطرة، ولكنَّ ضَبْطها هو الذي اضطربت فيه أحوال الناس، وهو الذي رضينا بالله عَزَّوَجَلَّ حكمًا فيه وقاضيًا.

ولو أردنا أن نناقش العقوبة التي يطالبون بها وهي الحبس لقلنا: إنها عقوبة غير زاجرة، وقد رأينا حال كثير منهم يسرق بعد خروجه من السجن، بل رأيناه يتعلم من المسجونين معه حيلًا جديدة في السرقة والاعتداء على أموال الناس وترهيبهم.

وهنا أشير إلى أن العقوبة في الإسلام تأتي بعد منظومة عجيبة من التربية والتوجيه، تبدأ من تثبيت العلاقة مع الخالق منذ الصغر، وذلك عن طريق تعليمه توحيد الله تعالى، وغرس حب

العبادات في قلبه والمداومة عليها، ثم تَفتح له الشريعة طرائقَ اكتساب المال المباح وترشده إلى الجِدِّ والعمل، وتحيطه بأسرة مستقرة في فكرها ومزاجها، ولذلك لا نجد سارقًا أو سارقةً امتدت أيديهما إلى أموال الآخرين إلا وقد أسقطوا حواجز كثيرة قبل اقتراف الجُرْمِ.

والسارق لو كان يَهمُّه أمرَ نفسه وعياله، ولو كان يَعْنيه أمْرَ استقرارِ مجتمعِه وطمأنينتِه، ما أقدم على ما أقدم عليه.

ثم هل تظنون أن شريعة ربنا لم تحرص على حاجات الناس، ولم توجِب ما يَسد كفايتهم لئلا يسرقوا ويعتدوا على الآخرين، أما تعددت نصوص الشريعة التي تحثُّ على العمل وعلى الكسب من تعب اليد، وعلى الرضا بما قسم الله، أليس في الزكاة مصرفٌ للفقراء وآخرُ للمساكين وآخرُ للغارمين الذي استدانوا لحاجاتهم، هل تأملتم في مصرف الكفارات والغنائم والفيء وغير ذلك، هذا فضلًا عن منظومة الصدقات الاختيارية من الوقف والوصية والكفالة وغير ذلك.

أقولُ: لو أقيم شرع الله تعالى في مجالي التربية والعقوبة، لامتنع أصحاب القلوب المريضة عن العبث بحياة الناس وأموالهم، ولتحقق الردع المرجو من هذه العقوبة.

وقد ذكر أهل التفسير أن قطع اليد كان معمولًا به في الجاهلية، فقرر الإسلام ما كان معمولًا به، وضبطه بأحكام تضمن تحقيق مقاصد الشريعة من هذا الحُكم.

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ أَيْ: كانت هذه العقوبة مُجَازَاةً ومكافأةً عَلَى اعتدائهما على ما لا حق لهم فيه، فقد سَرَقا بأيدِيهما فناسبَ أن تُقطع اليد التي اعتدت وخانت.

﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: عقوبة من الله على صنيعهما أوجبها عليكم، فلا ترددوا في إقامة شرع الله ولا تضعفوا، ولا تستبدلوه بغيره من شرائع أهل الأرض.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سبحانه، غالبٌ في أمره ولا يُغالَب، قويٌّ في انتقامه ولا يعجزه شيء، وهو حكيم فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ وتدبيره وقضائه، وهو العالم بعواقب الأمور.

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

هذا من جمال ديننا ورُقِيِّه بأهله وأتباعه، باب التوبة مفتوح للجميع، والله يغفر ويتوب على صاحب الذنب، وإنْ أقدَمَ واحدهم على فعل كبيرة من كبائر هذا الدين، وإنْ ظلم واحدهم نفسه بمعصيةِ الله تعالى وسرقتِه من غيره.

ولكن هذه التوبة مشروطة لتكون مقبولة عند الله تعالى، ولينتفعَ بها صاحبها غدًا عند وقوفه بين يدي خالقه للحساب والجزاء، لا بُدَّ أن يُتْبِع المُقبل على الله تعالى توبته بالعملِ الصالح، ولا بد أن يصلحَ أحواله مع الله تعالى فيعملَ على تزكية نفسه وتعاهدِها بالخيرات والمسابقةِ في القُرُبات، وهو الإصلاح المطلوب في الآية الكريمة.

والتوبة التي يقبلها الله إنما هي فيما بين العبد وبين ربه، بمعنى: أن توبته لا تُسقط وجوب إقامة الحد عليه، فقد جعل الشرع إقامة الحد على السارق والسارقة سببًا لتكفير هذه الكبيرة وغفرانها، وهذا يدل على ارتباط الدار الدنيا بالآخرة في شريعتنا، ويدل على حرص الشرع على توبة العبد ورجوعه إلى الله تعالى في كل وقت وحين، ما لم تبلغ الروح التراقيَ.

واعلموا كذلك أن توبة السارق أو السارقة إلى الله تعالى لا تُسقط وجوبَ ردِّ الحق إلى صاحبه، فيجب على السارق في جميع الأحوال أن يرد المال المسروق إلى صاحبه، أو يضمن هذا المال إن استُهلك ولم يكن موجودًا.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

آية تبعث في قلب قارئها تعظيمًا للرب جل وعلا، الربِّ الذي خلق الخلق ودبَّرَ أمره، المالكِ له المتصرفِ فيه وحده سبحانه، لا رادَّ لأمره ولا معقِّبَ لحكمه، وحكمه عدل.

ومجيء هذه الآية يُعطينا ثقة بالطريق الذي اصطفانا الله له، ويجعلُ قلوبَنا مطمئنة بعبوديتنا التي اخترناها لله وحده لا شريك له، وتبعث فينا الروح لإقامة الدين ونشره ودعوة الناس إليه، والحرصِ على تطبيق حدوده في الأرض التي بينتها الآيات وأرشدت إليها.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أوجب إقامة عقوبته على المحاربين والسارقين، وفتح لهم أبواب التوبة بشروطها وأحكامها، وهو سبحانه عالم بمن يستحق عقوبتَهُ ونارَهُ، وبمن يستحق مغفرته وجنته، وهو مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ وَالنَّقْصِ، مُتَّصِفٌ بِالْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ، وَهُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، وهو على ما يشاء قدير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٤١﴾

سياق قرآني يذكر شيئًا من حال أهل الكفر من اليهود، ومعهم أهل النفاق مِمَّن تجتمع كلمتهم على إسقاط هذا الدين وصَدِّ الناس عنه، تجتمع كلمتهم على إيذاء مقام النبوة وإيذاء الدعوة وأهلها، جاءت الآية تفضح سوءَ نواياهم وتكشفُها.

هذا السياق يبتدئ بنداءٍ ربَّانيٍّ لنبينا ﷺ، يحمل تسليةً لقلبه، ويعينه في تبليغ دعوته، وهو نداءٌ يُسعد من كان جنديًّا من جنود هذه الدعوة من أهل الإيمان والتقوى، فإنه يُهوِّن عليه ما يجدُه في طريقه.

تأملوا كيف افتتحت الآية بالْخِطَابِ بِأَشْرَفِ الصِّفَاتِ وَهِيَ صِفَةُ الرِّسَالَةِ من الله، يا رسول الله ﷺ، ويا من اصطفاهم ربنا لحمل رسالة الأنبياء من بعدهم: الحُزن جندٌ من جنود شياطين الإنس والجن، يسعَوْن لبثِّه بين المؤمنين ويحرصون على استرسالهم معه، لعله يُثبطهم عن دعوتهم ويبعث فيهم اليأس والقنوط والفرار.

يا أهل الإيمان: إذا رأيتم من يسارع في الكفر فلا تحزنوا ولا تتأثروا، هؤلاء كلما سنحت لهم فرصة أظهروا فيها مواقف وكلمات تدل على مرض في قلوبهم، وتدل على تهافتِهم على الكفر وسعيِهم نحوه وثباتِهم عليه.

في سبب نزول هذه الآية جاءت أكثر من واقعة دلت عليها الأحاديث الصحيحة، وقد جمع بعض أهل العلم بين هذه الوقائع وذكروا أنها كانت في وقت واحد أو متقارب، وقد نزلت الآيات تصف أهلها.

أخرج مسلم عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا (يعني: سودوا وجهه) مَجْلُودًا (أي: جلدوه)، فَدَعَاهُمْ ﷺ، فَقَالَ: «هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ: «أَنْشُدُكَ بِالله الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ» قَالَ: لَا، وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ، قُلْنَا: تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ، وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اللهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ»، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ**﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿**إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ**﴾، يَقُولُ: ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ فِي الْكُفَّارِ كُلِّهَا».

وأخرج أحمد وغيره عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن الآية نزلت في قبيلتين من اليهود الذين كانوا في المدينة، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية قبل مجيء النبي ﷺ وهِجْرته، وقد اتفقتا على أن تكون ديةُ القتيل من الطائفة القوية (وهم بنو النضير بتتبع الروايات) أكثر من دية القتيل من الطائفة الأضعف (وهم بنو قريظة بتتبع الروايات)، فلما هاجر نبينا ﷺ إلى المدينة حصلت حادثة قتْلٍ بينهما، وامتنعت الطائفة الأضعف عن دفع دية زائدة عن باقي اليهود، وكادت الحرب أن تهيج بينهما، فتوافقوا على الاحتكام إلى نبينا عليه الصلاة والسلام، وقبل مجيئهم إليه أرسلت الطائفة الأقوى أعوانها من المنافقين إلى النبي ﷺ، ودسَّتْهم ليحاولوا معرفة رأيه في ذلك قبل حصول الاحتكام، فأنزل الله تعالى هذه الآيات يخبره فيها عن خبثهم وجرمهم.

فتحصّل من هاتين القصتين أن اليهود احتكموا لنبينا ﷺ في أمر حد الزنا أو في أمر دية المقتول، وكانوا قبل جلوسهم للاحتكام قد أرسلوا أعينهم وجواسيسهم من المنافقين لاستباق الأمر ومعرفة الحكم.

وتحصّل كذلك من هذه الروايات أنَّ الذين سارعوا في الكفر والباطل طائفتان، جاء تمامُ السياق القرآني بذكرهما:

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ هذه هي الطائفة الأولى، وهي طائفة المنافقين الذين أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، ولم يخالط الإيمان قلوبهم، بل هي خَرَابٌ خَاوِيَةٌ مِنْ الحق والهدى.

لا تحزنوا من إرجافهم وتثبيطهم للعزائم ونصرتهم لأهل الكفر عليكم، ولا تحزنوا من استعمال أهل الكفر لهم فيما يريدون، وجاهدوهم بألسنتكم وأقلامكم، وتَتَبَّعوا حيلهم وطرائقهم في بث عداوتهم وكراهيتهم ودافعوهم وادفعوهم.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ الطائفة الثانية هم اليهود، سُمُّوا بذلك عند بعض العلماء لأنهم قالوا وقال نبيهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أي: تبنا ورجعنا وسَكَنَّا إلى أمرك. وقيل: نسبةً لأحد أبناء يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ المنافقون واليهود يسارعون في الكفر، ويُصغون إلى الكذب ويُحبون سماعَه وهم يعرفون أنه كذب، ومع ذلك يستجيبون له ويتفاعلون معه.

أحبارهم وكُبَّارهم يُلقون إليهم ما اخترعوه من أباطيل فيتلقفونها ويجعلونها شريعة لهم يُبدلون بها شرع الله، ومن ذلك ما زعموه من أَنَّ حُكْمَ الزنا فِي التَّوْرَاةِ التَّحْمِيمُ والجلدُ.

﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ﴾ هؤلاء القوم الآخرون الذين لا يأتون مجلس نبينا ﷺ هم أسياد اليهود وأحبارُهم والقائمون على أمرهم، هؤلاء بعثوا غيرهم من قومهم ومن المنافقين إلى الرسول ﷺ ليعرفوا ما عنده من حكم الزاني المحصن.

وسبحان الله كيف احتكموا لمن كفروا به، وكأنَّهم أيقنوا نبوته، ولكنه العناد والحسد.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أَبْطَلُوا الْعَمَلَ بِكَلَامٍ ثَابِتٍ فِي التَّوْرَاةِ، ذلك أنهم يقرؤون في كتابهم أن الزانيَ يُرجم، ولكنهم يتلاعبون بالمعاني ويبدلون دلالة نصوصهم لتوافق أهواءَهم، ولتنطليَ حيلُهم على عوامِّهم وأتْباعِهم.

وقد تقدم معنا ما أخرجه البخاريُّ ومسلم عن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُتِيَ بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةٍ قَدْ زَنَيَا، فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى جَاءَ يَهُودَ، فَقَالَ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى؟» قَالُوا: نُسَوِّدُ وُجُوهَهُمَا، وَنُحَمِّلُهُمَا (يعني على حِمل كالحمار أو الجمل)، وَنُخَالِفُ

بَيْنَ وُجُوهِهِمَا (أي: نجلسهما وظهر كل واحد منهما للآخر)، وَيُطَافُ بِهِمَا، قَالَ: «فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، فَجَاءُوا بِهَا فَقَرَءُوهَا حَتَّى إِذَا مَرُّوا بِآيَةِ الرَّجْمِ وَضَعَ الْفَتَى الَّذِي يَقْرَأُ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، وَقَرَأَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَمَا وَرَاءَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ وَهُوَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مُرْهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ، فَرَفَعَهَا فَإِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَرُجِمَا، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: «كُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَهُمَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَقِيهَا مِنَ الْحِجَارَةِ بِنَفْسِهِ».

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ أخرج أحمد في روايته كيف أرسلوا نفرًا من المنافقين إلى نبينا ﷺ لمعرفة ما عنده في حكم الزاني.

جاء في رواية أحمد أن أسيادهم قالوا: «فَدُسُّوا إِلَى مُحَمَّدٍ مَنْ يَخْبُرُ لَكُمْ رَأْيَهُ: إِنْ أَعْطَاكُمْ مَا تُرِيدُونَ حَكَّمْتُمُوهُ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِكُمْ حَذِرْتُمْ، فَلَمْ تُحَكِّمُوهُ، فَدَسُّوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ نَاسًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ لِيَخْبُرُوا لَهُمْ رَأْيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ» الحديث.

مما يدل على عظم ضلالهم وانغماسهم في غيِّهم وإفسادهم، أنهم يقولون لأتباعهم: إن أفتى محمد بما قلنا من جلد الزاني وتحميمه فاسمعوا له واعملوا بقوله وخذوه، واجعلوا كلامه حُجَّة لكم عند الله فإنه كلام نبي، وإن لم يُؤتكم هذا القول فاحذروا قَبوله، ولا تتبعوه فيما قال، واحذروا أن يُلبِّسَ عليكم دينكم.

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ هذه قاعدة عظيمة في الخلق، تدل على أنه لا يكون في السماوات ولا في الأرض إلا ما أراده الله وشاءه واختاره، وعلى أن إرادة الله تعالى نافذة في خلقه على حسب علمه، فإن الله تعالى له صفات الكمال لا إله إلا هو.

صحيح أن العبد له إرادة واختيار ولكن إرادته لا تكون إلا بإذن الله ومشيئته، هؤلاء الذين اعتدوا على رسل الله وكتبه وما فيها من أحكام، ما كان لهم أن يفعلوا ذلك إلا بإرادة الله وعلمه، ولو أراد أن يمنعهم لمنعهم، ولكنهم اختاروا طريق الفتنة فتركها لهم، واستحبوا العمى على الهدى فزادهم ضلالًا، فلا يحزنكم أمرهم كثيرًا، واستعينوا بالله عليهم فإنَّ الغلبةَ لكم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ لما اطلع الله على فساد قلوبهم، وانعدام الخير فيها، وإصرارهم على الكفر والنفاق والتحريف والصد عن دين الله، حَرَمهم هدايته وتوفيقه وفضله.

﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ سيخزيهم الله في الدنيا بكَشْفِ حالهم، وهَتْكِ أسرارهم، وبَيَانِ كذبهم، وعلوِّ أهل الله عليهم وإذلالِهم بضرب الجزية عليهم، وسيصيبهم الذلُّ والعارُ.

وينتظرهم في آخرتهم حسابٌ عظيمٌ، وعذابٌ مؤلمٌ موجعٌ، نسأل الله العافية.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾

تأكيد لأوصاف الرذيلة التي عُرف بها اليهود وأَتْباعهم، وزيادة بيان لطرائق تفكيرهم وسلوكهم الذي تأصَّل فيهم، والذي ورثه أتباعهم من بعدهم حتىٰ أيامِنا هذه، ونرىٰ معالمه في أقوالهم وأفعالهم.

جاء ذِكر هذه الصفات في الآيات لبيان الغفلة التي أحاطت بقلوبهم، وكأنَّ القرآن يقول: كيف يُطهِّر الله قلوبًا هذه صفاتها، وكيف يهديها سواء السبيل، وكيف يستجيب لأصحابها وقد نبت السوء فيها وعشَّش، نعوذ بالله من الخذلان.

هؤلاء: يُصغون إلىٰ الكذب ويحبون سماعه، ويستجيبون لما يلقيه أسيادهم ورؤساؤهم من أباطيل وأكاذيب، وينفعلون لكلامهم وافتراءاتهم مع إدراكهم بأنهم كاذبون كما تقدم.

وكذلك هم أكَّالون للسُّحْت، والسحتُ هو المال الحرام، ويكون أكله بأخذ أموال الناس بالباطل عن طريق الرِّبا والرِّشوة وأكل مال اليتيم والغَصْب ولَعِب القِمار.

ولفظة السحت التي بينت حرمة هذا المال، لها دلالاتها من سَحْت البركة من المال، والذهاب بها ونزعها.

وهذا الذمُّ ينال علماءهم وقادتهم الذين لبَّسوا علىٰ العوام دينَهم، وأخذوا من أموالهم باسم الدين، فكانت في حقهم سُحْتًا وحرامًا.

ولعلكم ترون كيف ملكوا في زماننا مفاتيح القوة المادية، وفتحوا علىٰ الناس أبواب الربا، وتحكموا في عدد من الدول والحكومات عن طريق كبرىٰ الشركات العالمية الاقتصادية التي قامت علىٰ الكذب والخداع والسيطرة علىٰ ثروات الشعوب واغتصابها وأَخْذها عنوة.

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ أي: فإن جاءَكَ اليهود يتحاكمون إليك بعد ما سمعت من تفاصيل أَحوالهم، فلا عليك ألا تحكم بينهم، أنت بالخيار بين أن تحكم بينهم أَو تعرضَ عنهم، هؤلاء لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتِّباع الحق، وإنما جاؤوا يطلبون ما يوافق أهواءهم، ويعينهم على إخفاء حكمٍ من أحكام التوراة التي بين أيديهم، ومثل هؤُلاء: لا يُهْتم بهم، ولا يُلتفتُ إِليهم.

وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أن الآية نزلت بعد أن حكم بينهم، فالإرشاد هنا يكون فيما لو جاؤوا يتحاكمون مرة أخرى.

وبهذه الآية استدل العلماءُ على أنَّ الإِمام مخير في الحكم بين أهل الذمة أو الإِعراض عنهم، وأهل الذمة كما هو معلوم لديكم يكونون تحت سلطان دولة الإسلام وفي حمايتها.

ومسألة اختصامهم إلينا فيها تفصيلات وتفريعات عند الفقهاء مُلخصها: أنهم يتحاكمون إلى حكام ملتهم وشريعتهم فيما جرى بينهم من خصومات، إلا إذا كان فِعلهم فيه نشر للفساد كالقتل والغصب، أو تحاكموا إلينا برضاهم أو طلبِ أحد الأطراف، كما عند الشافعية وغيرِهم، فهنا يجب على الحاكم المسلم أن يقضي بينهم فيه.

﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ﴾ تطمين للنّبي ﷺ بحفظ الله له من كيدهم وشرورِهم، وما أكثر شرورَهم.

﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ اقْصُدْ طريق الحق والعدل معهم، واحكم بينهم بما شرع الله لك، ولا تخشَ في الله لومة لائم، وقد فعل ذلك ﷺ برجْمِ الرجل والمرأة اللذَيْن زَنَيَا موافقًا لحكم الله، وكذلك علَّمهم أن الشرع كتب القصاص في القتل، وشرع المساواةَ في الدية دون نظر إلى عرق أو جنس، وهذا ما كان في شريعتهم عليهم من الله ما يستحقون، وسيأتي معنا قول الله في السورة هنا: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة: ٤٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ المقسطون هم الحاكمون بالعدل، هم الذين يحكمون بشرع الله ويؤدون الحقوق إلى أصحابها ولا يظلمون، المقسطون يُحبهم الله، وقد أعدَّ سبحانه لمن أحبه كرامةً ورِفعةً في الدارَيْن.

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

هذا من غرائب حالهم، ومن تناقضاتهم التي تدلُّ على أنهم يعلمون الحق ولا يَدينون له، وعلى أنَّ الذي صدَّهم عن طريق الهدى عنادُهم وكبرُهم وعداوتُهم وحسدُهم.

التوراة كتابٌ أنزله الله على نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفيه حُكْم المسائل التي اختلفوا فيها وتنازعوا، فيه حُكْمُ الرجم للزاني المحصن وأحكامُ القصاص والدِّيات، وعلماؤهم وكبارهم وأسيادهم يعلمون ذلك، ولكنهم تركوا ما يعتقدون صحته، وجاؤوا يتحاكمون إلى النبي الذي نصبوا له العداء وكذبوه، ﷺ، ثم بعد تحاكمهم إليه تولوا وأعرضوا، فلا هم رضوا بشرعهم ولا بحكم محمد ﷺ، إنَّ هذا لأمر عُجاب.

﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذه حقيقتهم التي حاولوا إخفاءَها، وتلاعبوا بدينهم وبالناس من حولهم ليفروا منها، حقيقتهم أنهم غير مؤمنين بالتوراة، وغير مؤمنين بمحمَّدٍ ﷺ وحُكْمِه، وإن زعموا ذلك.

وهنا لفتةٌ تخصُّ من يتولى عن حكم الله ولا يرضى به، ويأخذُ من شرع الله ما يوافق هواه فقط، وهذه اللفتة لها علاقة بإيمانه وبما يدعيه من صدقه، فليحذر متبعو الهوى من هذا الطريق.

ولعلكم تستحضرون معي كيف أخبر الله تعالى في قرآننا عن صنف من المنافقين من أمتنا شابهوا اليهود في هذه الخَصْلة، قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النُّور: ٤٨-٥٠].

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

ثناءٌ من الله تعالىٰ على كتاب من الكتب السماوية التي نؤمن بأنها أُنزلت من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثناءٌ يدل على علو شأن التوراة الَّتِي اصطفى الله تعالىٰ لها نبيَّه مُوسَىٰ بْنَ عِمْرَانَ.

التوراة فيها معالم الهداية إلىٰ ما يسعد بني إسرائيل في دنياهم وُينجِّيهم في أُخْراهم، وفيها معالم النور والاعتقاد الذي يتعبدون به خالقهم كما أمر، ويدركون به الحلال والحرام، ويضبطون طريق الحق إلىٰ مرضاة الخالق عنهم.

وهذا الهدىٰ وهذا النور الذي أكرم الله به بني إسرائيل في التوراة، جاء كذلك في الإنجيل كما ستذكر الآيات الآتية، لكنهم أعرضوا عن العمل بما آتاهم الله، وأخذوا منه ما يوافق أهواءهم.

ثم إن الله تعالىٰ أكرم أمتنا بهذا الهدىٰ وهذا النور، أكرمها بذلك في خاتم الكتب السماوية القرآنِ العظيم كما سيأتي معنا، فلتحذر أمتنا من الإعراض، وليعيشوا مع كلام رب العالمين تلاوةً وتدبرًا وعملًا وتحكيمًا، وإلا نالنا ما نالهم.

﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ ثناء آخر في القرآن على سيدنا موسىٰ وعلىٰ الأنبياء من بعده كسيدنا داود وسليمان وزكريا ويحيىٰ إلىٰ زمن عيسىٰ عليهم الصلاة والسلام، الذين أسلموا دينهم لله واستسلموا لما أمرهم به من العقائد والأحكام والأخلاق، ثم حَكَموا بما في التوراة في الذين هادوا، وهم اليهود، وعلَّموهم إيَّاها واجتهدوا في نشرها وتثبيتها بينهم.

وتخصيصُها باللذين هادوا يدلُّ على أنَّ الشَّريعةَ التي في التوراة خاصةٌ بهم وليست عامَّةً لكل الناس.

﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أَيْ: وَكَذَلِكَ يحكم بها الرَّبَّانِيُّونَ مِنْهُمْ، وَهُمُ العُبَّاد والدعاة والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، الذين يخشون ربهم، ويستحضرون عظمته على الدوام، ويطلبون رضاه فيما يفعلون.

وكذلك يحكم بها الأحبارُ، أي: العلماءُ الذين آتاهم الله تعالىٰ العلم من فضله، ففَهِموا التوراةَ وما فيها حق الفهم.

﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ هؤلاء جميعا: النبيون والربانيون والأحبار استحفظهم ربنا علىٰ كتابه، وطلبت منهم أنبياؤهم أن يقوموا به علىٰ أحسن حال، أي: استودعهم التوراة واستأمنهم عليها ليفهموا ما فيها، ويعملوا بها، ويُظهروا أحكامها، ويبلغوها بكل قوة، ولا يحرفوا كلام الله فيها عن موضعه ولا عن معناه، ولا يبدلوه ولا يغيروه.

وهؤلاء جميعا يخبرنا ربنا أنهم كانوا شهداء علىٰ كتاب الله، يعني يشهدون بأنه كتابُ حق، ويعلمون علمَ يقينٍ أنه أُنزل من عند الله، وهذا يدل علىٰ أنه كان فيهم من هو صالح في نفسه وقائم بأمر الله تعالىٰ في أمَّته.

وهنا لفتة بلاغية عجيبة، وهي أن الله تعالىٰ استحفظ بني إسرائيل علىٰ كتابه التوراة ووكَلَ الحفظ إليهم، وستخبرنا الآيات كيف ضيَّعوها، وهذا بخلاف القرآن الذي تكفل الله تعالىٰ أن يحفظه بنفسه، فقال سبحانه عنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولكم أن تنظروا في عدد من يحفظون كتاب الله تعالىٰ من أمتنا عن ظهر قلب، وعدد من اشتغلوا به من أول آية نزلت إلىٰ أيامنا هذه، اشتغلوا به كتابة ومدارسة وتفسيرًا وتطبيقًا، وهذا ما لا نجده في كتاب آخر، كلُّ هذا وغيره يدلنا علىٰ أن القرآن هو كتاب الله الذي رضيه لخلقه دستورًا وحَكَمًا، وجعله نورًا للعالمين، وصيَّره طريقًا إلىٰ مرضاته والفوز بجنته.

أما الآيات التي أخبرت أن كثيرًا من هؤلاء الأحبار والدعاة لم يستمروا علىٰ تبليغ دين الله كما أُنزل، ولكنْ حَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ عَمْدًا، وقدموا حظوظَ النفس وأهواءَها علىٰ ما اؤتمنوا عليه، أقول: هذه الآيات تعدَّدت في كتاب الله تعالىٰ كما في قوله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، وَقَوْلِهِ سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ أكثر ما يعيقُ تطبيقَ شرع الله في النفس وفيمن حولنا الخوفُ من الناس، الخوف من الذين تتعارضُ مصالحهم مع تطبيق الشريعة، ويظنون أن هذا الدين يتعارض مع طيب الحياة ولذة العيش، ولا يناسب ما يدور في أذهانهم من الحياة التي يرتضونها ويحبونها.

هذا الجزء من الآية يحمل خطابًا لرؤساء اليهود وأحبارِهم بأن يقيموا حدود الله بدون تحريف ولا تغيير، وأن لا يخافوا سقوط حَظْوتهم ومكانتهم عند الناس، ولْيَعلمُوا أن إرضاء الله تعالىٰ وحده وتقديمَ أوامرِه علىٰ الدنيا وما فيها، مَدْعاةٌ لحفظ الله لهم ولنجاتهم ولفتح بركات السماوات والأرض عليهم، بل مَدْعاة لتربُّعِهم في قلوب من حولهم لو كانوا يعلمون.

والخطابُ يتجدَّد لمن خانوا العهد مع الله في حفظ التوراة في زمن نبينا ﷺ: يا أيها اليهود، طبِّقوا أحكام التوراة وآمنوا بما تعلمونه فيها من البشرىٰ بهذا النبي الذي هو بين أظهركم، ولا تخافوا قومَكم في ذلك واستحضروا عظمة من بيده النفعُ والضُّرُّ.

ولعل من يقرأ هذه الآيات من أبناء المسلمين من علماء وطلبة علم، ومن عُبَّاد وغيورين علىٰ دين هذه الأمة، يُدرك عِظَم الأمانة التي كلفهم الله تعالىٰ بها واصطفاهم لها، ويدرك ضرورة إقامة شرع الله تعالىٰ في النفس وفي الأهل، ويعلم قيمة السعي والعمل لتحكيم الإسلام في الأرض، وعدم الخوف من ملة الكفر وأذنابها في ديارنا.

إن الله تعالىٰ اسْتحفَظنا علىٰ شرعه ودينه، وعلَّمنا مِن علمه، وآتانا من فضله الكثير، وذكر لنا من أحوال هؤلاء وفصَّل لنكون علىٰ دراية من أمرنا، ولنكون صادقين مع أنفسنا، باذلين الغاليَ والنفيسَ من أجل دَعْوتنا، ماضينَ في طريقنا حتىٰ يأذن الله تعالىٰ بالتمكين.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا تغيروا أحكام آيات الله التي أنزلت عليكم، ولا تُبدلوها أو تُعطلوها من أجل رِشوة تأْخذونها، أو جاهٍ تحرصون عليه، أو أيِّ حظٍّ من حظوظ الدنيا وزُخرُفِها، لا تجاملوا علىٰ حساب دينكم، ولا تداهنوا من أجل ثمن قليل زائل ومنفعة لا تدوم.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ختامُ آيةٍ جاء في سياق الحديث عن اليهود الذين لم يَحْكموا بما أنزل الله تعالىٰ في التوراة، وهو ختام يدل علىٰ عظم ما اقترفته أيديهم من تعطيل شرع الله الذي أنزله عليهم، ويدل علىٰ عظم جُرْمهم هذا فقد وصفتهم الآية بالكفر.

وختام الآية هذا يحمل تحذيرًا للمسلمين من تحكيم غير شرع الله في حياتهم، فالمسلم الحق لا يُقدم شريعةً أو قانونًا على شرع الله تعالى فيما أمر به ونهى، ولا يحكم ببعض ما أنزل الله ويترك بعضه، لأن هذا من فعل الكفرة أصحاب النار، وهو مناف لتمام التوحيد والإيمان الخالص الذي هو حقُّ الله تعالى على عباده.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

والناظر في أحوال الأمة اليوم يجد الخير فيها كثيرًا، ويجد غالب أبنائها لا يرضون بغير شرع الله دينًا وحَكَمًا، ويجد كذلك أن شعائر الإسلام ظاهرة في بلاد المسلمين ولله الحمد والمنة.

إلا أن ثمة خللًا في جزء من الأنظمة والقوانين الحاكمة في بلاد المسلمين لا يفوتنا أن ننبه عليه، وهو خلل يَظهر في تحكيم غير شرع الله في عدد من مسائل العقوبات، وكذلك في عدد من أحكام المعاملات، ويظهر كذلك في أوامر شرعية تعني الكثير للإسلام وأهله، كما حصل في إضعاف فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحجيمها وإيذاء أهلها، وإضعاف دور المحاكم الشرعية، وكاللباس الذي أظهر عورات النساء والرجال، وكانتشار حانات الرقص والخمور والإذن بوجودها على أرض أهل الإسلام، وكتقديم الاتفاقيات الدولية التي يقوم عليها غالبًا أعداء الملة، بل وجدنا من يطرح أحكام الشرع القطعية على مجالس الحكم للعمل برأي الأكثرية فيها، ومن يطالب بتسوية الذكر بالأنثى في الميراث وإلغاء تعدد الزوجات وإلغاء الطلاق لأنه ظلم، وغير ذلك من الطامات، وهذا أمر نسبي في دول الإسلام حولنا، فبعضها يزيد فيها ذلك وبعضها يكون أقل.

ولا أظنه يخفى عليكم أن هذا مما يُسخط الرَّبَّ جَلَّ وعَلا، ولا يحقق تمام العبودية التي ارتضاها لنا، وشرح صدورنا للثبات عليها، فكان واجبنا في هذه المرحلة أن نأخذ على أيدي القائمين على أمرنا، وأن نكون عونًا لهم فيما أطاعوا الله فيه، ونأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيما عصوا الله تعالى فيه، وفقًا لأحكام هذه الفريضة وأبعادها الفقهية التي يجدر بنا أن نضبطها لئلا تعظم المفسدة ويشتد البلاء على أهل الله.

وهنا مسألة يخوض فيها عدد من أبناء الإسلام المتحمسين له، ممن أحبوا دينهم بصدق، ونذروا أنفسهم لإقامة هذا الدين في الأنفس والآفاق، وهي مسألة كفر من لم يحكم بما أنزل الله من دول الإسلام والقائمين عليها، فهل يُحكم بكفرهم في ذلك وكفر أنظمتهم وفقا لما خُتمت به الآية هنا؟

والجواب أعرضه في مسائل يغلب على ظني نفعها في هذا المقام، إليكموها:

١- الناظر في السياق القرآني هنا يجد أن الآيتين التاليتين وَصَفتا الحاكمَ بغير ما أنزل الله بوصفين آخرين هما الظلم والفِسْق، فقال الله تعالى في ختام الآية التالية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وفي ختام الآية التي بعدها: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وأهل العلم لهم طريقتان في الجمع بين هذه النصوص:

الأولى: قالوا: هذه الأوصاف متحققة جميعًا فيمن حكم بغير ما أنزل الله، فهو كافر وهو ظالم وهو فاسق.

والثانية: أن هذه الأوصاف يتنوع إطلاقها بحسب حال من حَكَّم غيرَ شرع الله، فمن استهان بشرع الله ولم يعتقد صلاحيته فهذا هو الكفر بعينه، بخلاف من اعتقد أن حكم الله هو السبيل الوحيد لإصلاح البلاد والعباد ولكنه حَكَّم غير شرعه لينتقمَ من فلان وليَضرَّ فلانًا، فهذا هو الظالم.

أما من اعتقد أن حكم الله تعالى هو الذي ينبغي تطبيقه، ولكن عدل عن ذلك لرشوة أَخَذَها، أو بسبب ميلِهِ لقريب أو صديق، فهذا هو الفاسق.

والمقصود أنَّ كُلَّ من رضي بغير شرع الله تعالى، وقدَّمه على شرع الله مُستحِلًّا ذلك، أو معتقدًا أن شريعة أهل الكفر خير من ديننا، أو كان مبغضًا لحكمٍ مِمَّا أنزله الله وأمر بإقامته، فهذا صنف من الناس لا يُشك في كفره وخروجه من الملة، فإن المسلم مستسلم لأمر الله وشرعه، راضٍ بحكمه ودينه، محبٌّ لله ولرسوله ولكتاب هذه الأمة وسنة نبيها عليه الصلاة والسلام، وإن كان مُقصرًا في جانب ما. قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ الآية [الشورى:٢١].

٢- لا أنصح طلبة العلم وطالباته بالتسرع في إطلاق أحكام الكفر على من حولهم، فإن هذا سمْتُ قليل البضاعة المتجرئ على أحكام هذه الشريعة، وأدعوهم إلى الرجوع إلى الراسخين من العلماء الذي يَزِنون الأمور بعلمهم وتَؤُدَتهم وهدوئهم.

نعلم الحُرقة التي يجدها واحدنا من ظهور المنكرات والفواحش من حوله والمجاهرةِ بها، ونحبُّ هذه الحرقة ونَعدُّها علامةً ظاهرةً على أنَّ هذا القلب حيٌّ غيرُ ميت، وأن صاحبَه

ممن حفظ الله عليه عقله وفِكْره، ولكن الشرع أدَّبنا وعلَّمنا أن لا نخطوَ خطوةً إلا بإذنٍ منه، وعلمنا أن لا ننطق بكلمة إلا بدليل صحيح صريح. أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا». ومعنى كلمة باء: رجع، فيكون معنى الحديث أنه من كَفَّرَ غيره من المسلمين فإما أن يكون كافرًا حقًّا، أو ترجع كلمة الكفر على من زعمها؛ لأنه فعل ما ليس له.

٣- الناظر في أحوال الناس من حولنا، حُكَّامًا ومحكومين، يجد أن واحدهم قد يحكم بغير شرع الله في مسائل وخصومات، ولكن الذي جعله يفعل ذلك حرصه على المحاباة لشخص ما، أو لأجل رشوة، أو لهوى أو شهوة نفس.

وهذا الصنف يعتقد في قرارة نفسه وجوب تحكيم شرع الله تعالى والعمل به، ويعلم أن ما قام به كبيرة من الكبائر، وأنه حرام ومعصية عظيمة، ولكنه يفعلها، فمِثْله لا نحكم بكفره وخروجه من الملة، ولكن نُرشده ونُذَكره بما ينبغي فعله، لعل الله تعالى يفتح بذلك قلبه.

وهذا ما فقهه حَبْر هذه الأمة ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما قال في تفسير هذا الموضع: «لَيْسَ بِكُفْرٍ يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ»، أي: لا يُحكم في جميع الحالات بالكفر والردة والخروج عن دين الإسلام، ولكنَّ أهل العلم ينظرون في الأحوال والشروط والموانع قبل تكفير مَنْ ظاهرُ حالِه الإسلام.

٤- الشرع أطلق وصف الكفر على أفعال بعينها، ولم يقل أهل العلم بكفر فاعلها، وحَمَلوا نصوص الشرع على أحوال معينة، كما في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»، وكما في الحديث الذي أخرجه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»، ولم يقل أحد: إنَّ اقتتالَ المسلمين فيما بينهم مخرجٌ من الملة وأنه كفر أكبر، ولم يقل أحد بأن النياحة على الميت مخرج عن الملة ولا الطعن في الأنساب كذلك، فكان المقصود بالحديث أن هذا فعلُ أهلِ الكفر فاحذروه، أو يكون محمولًا على من استحلَّ قتْلَ مسلمٍ معصومِ الدَّمِ، يعني يقول: قَتْله حلال ويعتقد ذلك، فقد ينطبق عليه ظاهر النص.

٥- لا نقول هذا تهوينًا من شأن الاحتكام إلى غير شرع الله، ولا اعتذارًا عمن استبدل شيئًا من ديننا بشرائع أهل الكفر، وجعلها حاكمة في ديار المسلمين، بل نعد ذلك منكرًا عظيمًا وجريمة ليست هَيِّنة في حق الإسلام وأهله، وندين لله تعالى بوجوب بيان أهل العلم للأحكام المتعلقة بذلك للناس ليكونوا عونًا للحق وأهله.

ومما يلحق بالمسألة من أحكام، ما يحصل في بلاد المسلمين من وضع قوانين تحكمهم تُخالف شرع الله الذي أجمعت عليه الأمة، وجاء بنصوص قطعية في الكتاب والسنة، ولسان حال واضعها لا يخفى، فكأنه يقول: إن ما أضعُه خير من شرع الله، وهذا الأمر ظاهر الكفر والخروج عن الشريعة.

على أنه قد يفعل ذلك تزيينًا ممن حوله، وتغريرًا له بأن ما فعله لا يخالف شرع الله، وقد رأينا كيف ينشأ بعض هؤلاء في زماننا في بيئة يتفنن أهلها في تربيتهم ومحاصرة عقولهم بطرائق مُتقنة ومتقدمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وتبقى مسألة تكفير أهل القبلة مسألةً عظيمةً في منظومة الاعتقاد والفكر، لِمَا يترتب عليها من أحكامٍ ومسائلَ يتعدى أثرها إلى كل بيت وشبر في بلاد الإسلام.

وقد ذكر أهل العلم في معرض حديثهم عن التعامل مع من عطلوا جزءًا من أحكام ديننا في بلاد المسلمين، ذكروا ضرورة الالتفاف حول العلماء الربانيين الراسخين، وضرورة التضييق على العابثين والماكرين والحاقدين، وأرشدوا إلى العمل في المساحة الشرعية المتفق عليها في ذلك، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصوله وضوابطه، ومن كلمة الحق عند السلطان الجائر إن قدر أحدنا على ذلك.

ولنحذر من فتح أبواب الفتن على بلاد المسلمين، ومن أن نكون عونًا لأهل الكفر والنفاق على بث الفرقة وشق الصف، سَدِّدُوا وقاربوا واصبروا فإن المستقبل لكم.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

إخبار من الله تعالىٰ لنبيه ﷺ عما فرضه على بني إسرائيل عمومًا وعلىٰ اليهود خصوصًا من أحكام القصاص في النفس وفيما دون النفس، وذلك بعد أن تلاعب يهود المدينة في أحكام شريعتهم وغيَّروا فيها كما تقدم معنا عند قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، فألزموا بني قريظة التي كانت أضعف طوائفهم بدفع دِيَةٍ أكبر من غيرهم من طوائف بني النضير، وأوجبوا القصاص على القرظي ولم يوجبوه على النضري إذا قتل غيره من الطوائف الأخرىٰ، ولما اختلفوا وكادوا يتقاتلون وهمَّوا بالاحتكام لنبينا عليه الصلاة والسلام في ذلك، أنزل الله تعالىٰ هذه الآيات يخبره فيها أن الله تعالىٰ كتب عليهم في التوراة وفرض فيها أن النفس القاتلة تُقْتَلُ بالنفس المقتولة دون نظر إلىٰ الجنس والطائفة، وأنه من تعمَّد أن يَفْقأ عينَ غيره فالعقوبة هي القصاص في ذلك بأن تُفقأ عينُه، وكذلك الحال في الأنف والأذن والسنِّ، وأن الله تعالىٰ أوجب القصاص في الجراحات التي تكون في الرأس أو البدن في حال العمد، دون النظر إلىٰ الجنس واللون.

وهذا القصاص هو ما جاءت به شريعتنا حال العمد، سواء أكان الاعتداء على النفس أم على الأطراف، أم كان في الجراحات إذا أمكنت المماثلة في القصاص.

وهذا بخلاف عقوبة إزهاق النفس عن طريق الخطأ، وعقوبة إتلاف ما دونها من يدٍ أو قدمٍ ونحوهما عن طريق الخطأ، أو كانت الجراحات خطأ، فإننا نعدل في مثل هذا الحال إلىٰ الدية المبثوثة أحكامُها في كتب أهل الفقه والعلم.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ﴾ كما أن الله تعالىٰ بين لهم أحكام القصاص، فكذلك ندبهم إلىٰ العفو، والعفو في القتل إنما يكون لأولياء المقتول الذين هم قرابته الذين يرثونه، وأما إذا كان الاعتداء على ما دون النفس كالأطراف والجراحات فإن العفو يكون للمُعتدَىٰ عليه.

الشرع ندبهم إلى العفو وجعله كفارة لذنوبهم وسببًا لغفران سيئاتهم، فقد حصل به استبقاء النفوس وتربيتها على العفو من أجل الله، لعل القلوب تجتمع ويزول ما بها من البغضاء والشحناء.

ومعلوم لديكم أن ديننا فيه نَدْبٌ للتسامح بين المسلمين والعفو إن أمكن، فقد أخرجَ أبو داود والنَّسائيُّ وغيرُهُما عنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ رُفِعَ إِلَيْهِ شَيْءٌ فِيهِ قِصَاصٌ، إِلَّا أَمَرَ فِيهِ بِالْعَفْوِ»، أي: نصح به وأرشد إليه. ونصوص الشريعة طافحة في فضل العفو وأهله.

وهذا الندب للعفو ليس في جميع أبواب العقوبة، فإن الشرع لم يأذن بالعفو عن الجاني في حد السرقة إذا بلغ الإمام، ولم يأذن بالعفو عن الزاني والزانية إذا شهد عليهم أربعة من الشهود، وذلك لأن الاعتداء على المال وعلى العرض ربما يقترب الناس منه أكثر من اقترابهم من إزهاق الروح، فكان الزجر في ذلك أبلغَ وأقربَ لتحقيق مقاصد العقوبة الشرعية.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ عرفوا دين الله تعالى وحُكمَه، ولكنهم غيروا وبدلوا ولم ينصفوا المظلوم، واستقوى قويهم على ضعيفهم، فكانوا من الظالمين لأنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعقوبته.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أرسل الله تعالى نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام إلى بني إسرائيل الذين بينت الآيات كيف بدَّلوا في شرع الله وغيَّروا وحرَّفوا.

وقول الله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: بعثنا عيسى ابنَ مريم عليهما السلام على آثار النبيين من قبله، وقد جاء مُصدقًا بالتوراة ومؤمنًا بها، جاء حاكمًا بشريعة موسى عليه الصلاة والسلام ومؤيدًا لها وإن اختلف معها في بعض الأحكام والتشريعات، فقد أخبر القرآن أن نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خاطب القوم الذي أرسل إليهم، وقال لهم: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ الإنجيل كتابٌ سماويٌّ أنزله الله تعالى على سيدنا عيسى، وَصَفَتْه الآية الكريمة هنا بأن فيه هدىً، أي: فيه دلالة على الحق وهداية إلى طريقه وإلى الصراط المستقيم.

والإنجيل فيه نور، أي: فيه إضاءة للسائرين في طريقهم إلى ربهم، يبين لهم ما يحبه الله وما يسخطه، ويدعوهم إلى التوحيد، ويزيل عنهم ظلمة الكفر والمعاصي، ويرشدهم إلى معاني العبودية الصحيحة.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: وكان كتاب الإنجيل مُتَّبِعًا لما في التوراة من أحكام، لا يخالفها إلا في القليل منها.

تأملوا كيف كررت الآيات تصديق الإنجيل للتوراة، وكأنَّ في ذلك إشارةً إلى أن الكتب السماوية جاءت بعقيدة واحدة وإن اختلفت في بعض الأحكام، وأن هذه الكتب جاءت من مشكاة واحدة، وأنها أرادت هداية الناس جميعًا لدين الإسلام الذي هو دين كُلِّ الأنبياء والرسل.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إنجيلٌ يُهتدى به، ويُحْيي به الله تعالى ما طمسه بنو إسرائيل وغيروا معالمه من دينهم.

ثم هو موعظة تطرق القلوب وتسعى لنفعها وتثبيتها، ولكن القلوب التي ينتفع مثلها بهذه المواعظ إنما هي قلوب أهل التقوى بنص الآية الكريمة هنا، وأهل التقوى هم الذي اتقوا المحارم واجتنبوها خشيةً لله، وتعظيمًا له، ورغبةً فيما عنده من النعيم المقيم.

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يا أيها النصارى: احكموا بما أنزله الله تعالى في الإنجيل، ولا تطيعوا رُهبانكم فيما بدَّلوا وغيَّروا، واعلموا أن كتاب الله الذي أنزله على نبيكم قد دعا إلى توحيد الله، وبشر بمحمد ﷺ وأمَرَ باتباعه وتصديقه.

قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:٦].

ولا يفهمن أحدٌ أنه يُقبل من النصارىٰ في زماننا أن يتبعوا الإنجيل المعتمد لديهم ويكفروا بالقرآن، بل لا ينفعهم إلا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله التي تفصل ما بين أهل الإسلام وأهل الكفر، ولا ينفعهم إلا أن يتعبدوا الله بدين الإسلام الذي هو دين الأنبياء والرسل جميعًا.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ زيادةُ تشنيعٍ علىٰ من هجروا شَرْع الله واتخذوه وراء ظهورهم، وبيانٌ لقبح فعلهم وشدته عليهم، هؤلاء هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله وأمره.

صحيح أن الآية جاءت في سياق الحديث عن قوم نبي الله عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، ولكن العاقل منا من أعْمَلها في واقعه، وعاش سياقها الذي جاءت به، كُفْرٌ وظُلْمٌ وفِسْقٌ، تلك هي خصال أعداء شرع الله تعالىٰ في الأرض فاحذروا.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

هذه الآية تَذْكر خبَرَ كتابِ ربنا الذي اصطفاه لنا واصطفانا له، وتصفه بأوصاف لا يليق بمسلم أن يجهلها، القرآن العظيم كلام ربنا الذي أنزله علىٰ نبيه محمد ﷺ، أنزله بالحق، أي: لا ريب في أنه جاء من عند الله، ولا شك في أنه المنهاج الذي ارتضاه للسائرين إليه، وأنه لا سبيل إلىٰ تحريفه أو تضييعه، وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثم إن الآية وصفته بأنه مصدق للكتب السماوية من قبله، فإنها جميعًا جاءت بعقيدة واحدة تدعو إلىٰ توحيد الله وإفراده بالعبودية، وجاءت تدعو للإيمان بالكتب والرسل جميعًا، وجاءت تدعو إلىٰ الإيمان باليوم الآخر وما فيه من أهوالٍ.

والكتب السماوية السابقة جاءت بأصول الشرائع، فأمرت بالصلاة والصيام والصدقات وغيرها من الطاعات، ونهت عن الفحشاء والمنكرات وسوء الأخلاق، والقرآن جاء بمثل ما جاءت به في ذلك.

والكتب السماوية صدَّقها القرآن بأنها من عند الله وليست افتراءً عليه، وهو ما أرادته الآية هنا في قول الله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

ثم إن الآية ذكرت وصفًا عظيمًا يدل على أن القرآن أعظم كتاب سماوي أنزله الله تعالى، وكل الكتب السماوية عظيمة، فقد وصفته الآية بأنه مهيمنٌ على الكتب من قبله، وهذه الهيمنة تمثلت في معالم عدة إليكم شيئا منها:

من مظاهر كونه مهيمنًا على الكتب السماوية السابقة أن القرآن كتاب تكفَّلَ الله بحفظه بنفسه، وجعله آخرَ كتبه، وارتضاه منهاجًا للعالمين جميعًا لا لأمة بعينها.

ومن ذلك أنه أمينٌ على ما في الكتب السابقة له، وشاهد على أنها أنزلت من عند ربنا، وهو حاكم عليها ويُثبت الحق الذي جاءت به، ويُبطلَ التحريف الذي نالها من لعب الكُهَّان والرُّهْبان والنُّسَّاخ، ويُبين ما فيها من تحريف وغلو في العقائد والأخبار.

والقرآن هيمن على الكتب من قبله بما حواه من أنظمة جعلته مُصلحَ الزمان والمكان الأوحد، ففيه من الهداية إلى العقيدة الصحيحة الكثيرُ الكثير، وفيه من أحكام سياسات الأمم ومن معالم نظام الأمة المالي ما فيه، بل فصَّل فيما نحتاجه من أمر معاملاتنا وأحكام بيوتنا تفصيلًا لم نجده في كتاب من قبله، ولن نجدَه.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ اليهود في خصوماتهم التي تكون بينهم يظلم بعضهم بعضًا، وقد تعددت وقائع احتكامهم إلى نبينا ﷺ الذي نصبوا له العداء وأرادوا قتله، وهذا من غرائب خصالهم وفعالهم كما تقدم، يحتكمون إليه وقد أيقنت قلوبهم بأنه نبي، وكانوا يتفننون له في القول ويسعون لخديعته ليتبع أهواءهم وآراءهم، ولكن الله تعالى ثبته من عنده، وأمره باتباع ما أوحاه إليه، وأمره بتبليغ رسالته، وترك جهل هؤلاء وتضليلهم.

يا أيها النبي ﷺ: لَا تَنْصَرِفْ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي أَمَرَكَ الله بِهِ إِلَى أَهْوَاءِ هؤلاء الجهلة الأشقياء، لا تحكم بِغَيْرِ حُكْمِ الله.

إن الواحد منا قد يجتهد أحيانا ويحكم بهوى الآخرين لترغيبهم في الدين والطاعة، وقد يكون هواهم مخالفًا للشرع، فيتوقف عن تحكيم شرع الله، ويروغ عنه بنية طيبة، يظن أنه بذلك يؤلف قلوب الناس، ولكن هذا الموضع من الآية يعلمنا أن نقصدَ الحق وندعوَ إليه كما علمنا الشرع، وكلنا ثقة بهذا الطريق، والقلوب بيد الله يكرم من شاءَ هِدَايتَه بفتوحاتٍ من عنده.

والمطلوب منا أن نبلِّغ ما أُنزل علينا، ونقدم ديننا للناس كما هو، ولعل هذا أَدْعىٰ لأنْ يَعْظُمَ قَدْرُ الشريعة في قلوب الآخرين، ويسهل انقيادهم لها.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ القرآن يُثبت أن التوراة جاءت بأحكام شرعية تناسب من أنزلت عليهم زمانًا ومكانًا، وأن الإنجيل جاء بشِرْعة فيها اختلاف عن التوراة، وكذا حال القرآن الذي جاء بأوامر ونواهٍ قد لا نجدها في التوراة والإنجيل والكتب السماوية الأخرىٰ، أو قد نجدها ولكن باختلاف في أحكامها، وهذا الاختلاف لا نجده إلا في أحكام هذه الشرائع لا في أصولها.

بطريقة أخرىٰ: الاختلاف في الشرائع لا يعني الاختلاف في العقيدة والدين، فدين الأنبياء واحد جاء في بيانه قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النَّحْلِ: ٣٦]، وقولِ الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأَنْبِيَاءِ: ٢٥]، وغير ذلك من النصوص التي تدل علىٰ أن رسالة الأنبياء واحدة.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ بيانٌ للحكمة من تنوع الشرائع، ولماذا جعل الله لكل رسول شرعته، ولماذا نسخت كل شريعة ما قبلها حتىٰ نسخت شريعة محمد ﷺ الشرائع جميعًا، وقد جعل الله شريعته للناس كافةً وختم بها رسالاته إلىٰ أهل الأرض.

الله ربنا لم يجعل الناس كلهم أمةً واحدةً متفقة في كل شيء، بل تنوعت الشرائع ليتحقق المرجو من اختبارهم وابتلائهم، والذي لا يفلح فيه قوم إلا إذا ظهر إيمانهم بما جاء، ثم أذعنوا وانقادوا وامتثلوا للأوامر والنواهي فيها.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ هذا هو الأمر العملي الذي أراده الله منا أهلَ القرآن، بعد أن بينت لنا الآية شيئًا مما قدَّره الله تعالىٰ في الخلق وأرادَه، وبينت لنا عددًا من مسائل الفهم والعلم المتعلق بالاختلاف والتنوع.

وخطاب الله تعالىٰ هنا ينادي علينا ويقول لنا: سارعوا إلىٰ طَاعَة الله، وبادروا إلىٰ اتِّبَاع شَرْعِهِ الذي تعلمونه في الكتاب والسنة وكلام أهل العلم والتخصص، الزموه وعَضُّوا عليه بنواجذكم، وتسابقوا في أعمال الخير التي ربَّتْكم عليها شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، فإنه لا سعادة ولا نجاة إلا بذلك، والله خير حافظًا.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ اليوم الآخر عقيدةٌ عند كل مسلم أخلص توحيده لله العظيم، فيه يرجع الناس جميعًا إلىٰ ربهم ويقفون بين يديه للحساب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وفيه يفصل الله تعالىٰ بين الحق والباطل وأهلِهما، فَيَجْزِي الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاحِدِينَ بكذبهم.

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩ ﴾

خطاب رباني يزيد نبينا ﷺ ثباتًا في وجه ما أراده اليهود منه يوم جاؤوه ليحكم بينهم، يومَ أرادوا منه أنْ يطيعهم ليتَّبعوه وينْصروه، أرادوا منه ذلك بشرط بقائهم على باطلهم وتغييرهم لشرع الله ودينه، ولكن الآية هنا أغلقت كل حيلة قد يدخلون منها، لأن غاية هذا الدين تعبيد الناس لرب العالمين على المنهج الذي أراده سبحانه، ولم يكن هذا الدين يوما مُتبعًا لآراء الناس ليرضيَهم، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فعليها.

﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ لا تغتر بوعودهم ولا بمواثيقهم التي يعطونها، فهؤلاء كَذَبَةٌ كفرةٌ أخْلفوا وعودًا كثيرةً مع خالقهم من قبل، ولا زالوا يُدلِّسون على الناس، ويصرفونهم عن الحق.

هم أرادوا بوعودهم لك أن يفتنوك في دعوتك ودينك الذي لا يعرف إلا الصراط المستقيم، أرادوا أن يحققوا نصرًا ولو كان نصرًا يسيرًا ظاهرًا، هم يريدون صرفك عن بعض ما أنزل الله إليك وليس عن جميعه، ولكنهم يدركون تمام الإدراك أن هذا سيفتح لهم أبوابًا حتى يفوز باطلهم وينهدم الحق، وهيهاتَ أنْ يكون لهم ذلك.

هذا ما يعمد إليه الذين تدافعونهم في دعوتكم، يمكرون الليل والنهار ليُحْدثوا في قلوبكم شيئًا من الوهن، ولتنصرفوا عن بعض مبادئكم فينقضوا عليكم ويقضوا على الباقي، فالثبات الثبات على الهدى، والاستعانة بالله دومًا، وإنما النصر صبر ساعة.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾ احكم بينهم بما أنزل الله، وبيِّن لهم الحقَّ كما هو، فإنْ أعرضوا عما قضيتَ، وخالفوا شرع الله فيما بيَّنْتَ وحكمتَ، فاعلم أن الله تعالى لا يوفق للحقِّ مَن خَبُث طبُعهم وفسدَتْ طويّتهم ونواياهم، بل يصرفهم عن طريق الحق عقوبة على ذنوبهم التي دارت بين الكفر بالله وبين قتل الأنبياء وتكذيبهم، وبين تحريفهم ما أنزل الله عليهم وكتمان بعضه، وكذا بين معاداة التوحيد الخالص وأهله والكيد لهم.

ما أشدَّها من آية على من استخفَّ بنظر الله إليه، وأكبَّ على الذنوب وأصرَّ وجاهَرَ، كيف به لو أصابه الله بشيء منها وعاقبه ببعضها، كيف به يوم يحول الله بينه وبين قلبه فيفقدُ نِعمًا جَهِل قدرَها وقيمتَها، كيف يكون حاله يوم يستدرجه الله من حيث لا يعلم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ هذا حال أكثر الناس: خارجون عن طريق الحق، قد ألهتْهم الدنيا وأخذتْ عقولَهم، وأحاطت بهم غفلةٌ ضيَّقت عليهم طرائقَ الخير وفتحت طرائق الشرور في حياتهم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يُوسُفَ: ١٠٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأَنْعَامِ: ١١٦].

وهنا لفتة أذكركم بها: حالُ أكثر الناس الذي أشار إليهم كتاب الله تعالىٰ في آياته هو الحال الذي واجهه ﷺ في دعوته، وهو الحال الذي واجهه أصحابه من بعده، وهو الحال الذي علَّمنا أن الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ تنتصر علىٰ العوائق، وتُصَيِّر الصعب سهلًا، وتطرق قلوب الناس، ولا تعرف الكسل ولا الملل.

علمنا أن حملة الرسالة مشفقون علىٰ الخلق، لا يضرهم انتفاش الباطل وكثرةُ أهله، ولا يَقْنطون لحال أكثر الناس ولا ييأسون، بل يبلغون رسالات الله، ويمضون في طريقهم حتىٰ يكرمهم ربنا بلقياه.

﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾

لا يفقه مثل هذا الخطاب إلا من عرف شرع الله، وذاق حلاوة دين الإسلام، هذا الدين الذي كلما تعلمت فيه شيئًا أدركت أنه ما أنزل إلا من عند حكيم خبير، ولكم أن تتأملوا وضوح العقيدة فيه وصفاءها وموافقتها للعقل والفطرة، ولكم أن تراقبوا حال من عاش في ظلالها كيف تملأ الطمأنينة جوانِحَه.

ثم لو انتقلتم إلىٰ الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية فيه لوجدتم العجب، لوجدتم واقعية وإيجابية وعالمية لم تأت بها شريعة سابقة ولا فكرة أخرىٰ، ثم تدبروا أحكام هذا الشرع الذي علَّمنا أمْرَ عباداتنا بتفصيلها، وكذا أمْرَ معاملاتنا وأنكحتنا وما نحتاجه من تنظيم أمور حياتنا لنرتقيَ في دنيانا. قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾. [النساء: ٨٢].

بعد كل هذا تتعجب الآية الكريمة مِمَّن قدَّمَ شرائع أهل الدنيا علىٰ حكم الله ومنهاجه الذي ارتضاه لخلقه، وتُنكر عليهم جُرمهم هذا وتوبِّخُهم عليه، ومن هؤلاء اليهود الذي جعلوا توراتهم تبعًا لما في قلوبهم وأهوائهم، وأرادوا ذلك مع نبينا ﷺ، وما جاء به من إتمام رسالة رُسُلِ الله من قبله.

ومن هؤلاء صنف من أبناء جلدتنا في زماننا، حصر ديننا في المسجد، وأراد فصله عن حياتنا، وضيق علىٰ الناس دينهم ووسع عليهم دنياهم، يظن أنه بذلك يحسن صنعًا.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لا حكم أحسن من حكم الله، ولا حكم أعدل من حكم الله، وما وجدنا الرحمة واللطف والسعادة والفلاح إلا بالكتاب والسنة وفهم علماء الأمة الربانيين، ولكن ذلك لا يفقهه إلا أهل اليقين كما جاء في ختام الآية هنا، فإنهم ربطوا قلوبهم على ذلك بعدما رأوا عظمة الله في أنفسهم ورأوها في الآفاق من حولهم، ورأوا حكمته وعلمه في قَدَره وشرعه. أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلاَثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ (أي: ظالم معتد)، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

ما أرقاه من نداء رباني جاء بعد آيات هيَّأت نفوس المسلمين لقبول هذا الحكم الشرعي والاهتمام به، وما أحلاه من حكم ينفعُنا في عقيدتنا وإيماننا الذي هو نورنا في حياتنا.

حكم من الله تعالى جاء بعد آيات سابقة بينت اضطرَابَ الْيَهُودِ فِي دِينِهِمْ، وَمُحَاوَلَتَهِمْ تَضْلِيلَ الْمُسْلِمِينَ، وبعد أن أشارت إلى إنزال الله تعالى لكتب سابقة وإنزال القرآن خاتمًا لها ومهيمنًا عليها، وبعد أن حذَّر السياق القرآني نبيَّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أَعْدَائه من الْيَهُودِ الذين أرادوا قلب الحقائق والتغريرَ بالمسلمين.

يا أهل الإيمان الحق، ويا من صدقوا الله تعالى في توحيدهم وعبوديتهم: اليهود والنصارى أعداءٌ للإسلام وأهله فلا تتخذوهم أَنْصَارًا وَحُلَفَاءَ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ بِالله وَرَسُولِهِ. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال ربنا جل وعلا في حق اليهود: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

وعداوة اليهود والنصارى للمسلمين لها عِلَّةٌ معلومة ومعهودة، فإنَّهم يكفرون بالقرآن، ويكفرون بمحمد ﷺ، وهم الذين نصبوا له ولمن تبعه العداء قديمًا ولا زالوا، وهم الذين نسبوا لله تعالى ما لا ينبغي واتخذوا معه شركاء، ولا يكاد مُطَّلِعٌ على عقائدهم يشك في عظم كفرهم وشدة مخالفتهم لما في دين الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لأوليائه، بل ارتضاه للناس جميعًا. قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ولكم أن تستحضروا ما فعلته طوائف اليهود في المدينة من أعمال قصدوا بها قتل الدعوة في مهدها، ولكم أن تستحضروا ما فعلته الحملات الصليبية عبر التاريخ في أبناء أمتنا، ولكم أن تتأملوا أحوالنا في هذه الأيام.

ولا تلتفتوا إلى تصرفات أفراد من النصارى أو بعض المؤسسات المحدودة الذين لا يجاهرون بإساءاتهم، والذين يذكروننا بخير إنصافًا منهم، فإن العبرةَ بحال غالبهم وبما تمليه عليه أنظمتهم وقياداتهم، وبما تفعله طائراتهم ودباباتهم وأقمارهم الصناعية.

وقبل استطرادي في بيان مفهوم اتخاذهم أولياء، أبين لكم أنواع اليهود والنصارى لنكون على بصيرة في تعاملنا معهم، فأقول مستعينا بالله: اليهود والنصارى جميعًا كفارٌ غير مسلمين بإجماع أهل الملة عبر جميع العصور والأزمان، ولكنهم ليسوا على درجة واحدة في تعاملهم معنا وفيما يلزمنا اتجاههم، فمنهم الكافر الحربي الذي يعتدي على أرضنا ومقدساتنا ويغتصب حقوقنا وينتقص قدر ديننا، فهذا حقه أن نقاتله، وأن نعُدَّ عدتنا له لندفعه عن ديارنا وأنفسنا وأعراضنا وأموالنا.

ومنهم الكافر المعاهد الذي عقد إمامُ المسلمين مع إمامِه عهدًا، هؤلاء أصلهم أنهم محاربون ولكنهم جنحوا للمصالحة أو جنحنا نحن لضعفنا، فحقُّهم أنْ نُوفِّيَ لهم عهدهم ولا نغدرَ بهم ولا نقتلَهم، وكذلك لا نقاتلهم حتى ننبذَ عهدهم وننهيَه معهم، وذلك إذا علمنا سعيهم في الغدر والخيانة، والكفار المعاهدون هم غالب حال أهل الكفر في أيامِ الضعف التي نعيشها في زماننا.

ومنهم الكافر المستأمن الذي دخل إلى أرضنا بعد أن أعطيناه الأمان، وربما يكون دخوله ليسمع كلام الله ويعلم عن الإسلام شيئًا، فهذا آمن لا يحل لأي فرد أن يعتدي عليه أو على ماله، وهذا كحال التاجر والسَّفيرِ وطالبِ العلم الذين يدخلون أرضنا منهم، وغيرِهم.

ومنهم الكافر الذمي الذي يقيم في أرضنا ويعيش بيننا، وهو الذي رضيَ أن يكون تحت هَيْمنة حكم الإسلام، فهذا لا يجوز قتله ولا قتاله بما يدفعه لنا من الجزية، بل هو آمن في بلادنا على نفسه وماله وعياله، ولا يجوز الاعتداء على شيء من ذلك، وفي مثله جاء قول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

أما عن مفهوم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وصورِ ذلك في واقعنا، فأقول منتفعًا بما نص عليه أهل العلم الذين تتبعوا نصوص الشريعة في ذلك: الْوَلَايَةُ أصلها المحبة والقرب والنُّصرة، وهي تدور على ثلاثة معان أو ثلاثة أصول في الشرع لا بد أن نَحْذر منها في حقهم:

١ – المودة: والمقصود بها المحبة، فمحبة الكافر ومحبة ما هو عليه من الكفر لا تليق بأهل الإيمان لأنها من موالاتهم، وفيها جاء قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]، وجاء قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

وجاء فيها كذلك قول ربنا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

والمقصود بالمحبة هنا هي تلك المحبة المكتسبة التي تكون بمقدور صاحبها، والتي حرص الإسلام على أن تكون لله وفي الله، لا أن تكون مبنية على أساس البلد أو القبيلة أو الحزب أو الجماعة، أو اللون أو اللغة أو الجمال أو غير ذلك.

وهذا بخلاف المحبة الطبيعية التي قد تكون لولد أو والد أو تكون لقرابة من غير المسلمين، أو لزوجة كتابية، فهذه محبة غريزية طبيعية كمحبة الطعام والشراب والملبس، وهذا لا يتعارض مع بغض كفرهم وبغضهم لكفرهم، فقد يحبهم الواحد منا من وجه ويبغضهم من وجه، ولا يمتنع أن تجتمعَ المحبة الطبيعية مع العداوة الدينية اتجاه شخص أعرفه لأن الأمرين مختلفان، كما هو الحال مع الدواء الذي نحبه ونبغضه.

وعليه، فإنه قد يجتمع في الشخص الواحد حب وبغض، فأحبه لأنه والدي، وأبغض فيه عبادته للأصنام مثلًا، أو لقوله بأن الله ثالث ثلاثة، بل قد تجتمع المحبة هذه مع البغضاء في الشخص المسلم الذي أحب فيه صلاته وصومه، وأبغض فيه تعامله بالربا وكذبه على الناس وقُرْبه من الزنا، وهكذا.

ومعلوم لدينا أن النبي ﷺ كان في قلبه حب لعمه أبي طالب الذي مات على الكفر، وهذه محبة طبيعية وَقَرَت في قلبه لقرابته ولمواقفه، وهي التي عناها القرآن بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

ولكن لاحظوا: لم يترحم عليه بعد موته، ولا تصدق عنه أو أشار حتى لشيء من ذلك، فإن أبا طالب اختار دين آبائه وهو على فراش الموت، وأبَى أن يقول كلمة التوحيد.

وكذلك: مسألة البراء منهم لا تتعارض مع معاملتهم بالرفق واللين رجاءَ إسلامهم، بل هذا من الدعوة إلى الله تعالى التي نريدها، والتي أرشدتنا إليها نصوص الكتاب والسنة.

والمحبة في الله ولله لها تبِعاتها، ولها أحكامها التي تريد من المؤمن أن يعتصم بها، ولها فقهها الذي يحميها ويحفظها، وهي المقصودة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وهي المقصودة في حديث النبي ﷺ الذي أراد أن يغرسها في قلوب المؤمنين، وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

وتأملوا الحديث الذي أخرجه أحمد بسند حسَّنه غير واحد من العلماء، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي الله، وَتُبْغِضَ فِي الله».

٢- النصرة: المعنى الثاني من معاني اتخاذ أعداء الله تعالى أولياء، نصرتُهم وإعانتهم على بلاد المسلمين، والتجَسُّسُ لمصلحتهم، وكشْفُ العورات وإفشاء الأخبار والأسرار لهم، وكذلك تمنِّي هزيمة المسلمين أمامهم، والسعي لذلك بالقلَم والمال والنَّفْس.

ومن مظاهر نصرتهم كذلك الحزن إذا انتصر أهل الإيمان، والفرَحُ والشماتةُ إذا غلب أهل الكفر والخذلان.

قال الله تعالى في صفات المنافقين: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ [النساء: ١٤١]، وقال الله تعالى عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

ومنها تَوْلِية الكُفَّار ما فيه سلطان على المسلمين، وتنصيبهم أمراء وقادة ومستشارين وبطانة من دون المؤمنين.

أخرج البيهقي في السنن الكبرىٰ بسند حَسَنٍ، أن أبا موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان قد اتخذ كاتبًا نصرانيًّا، يقرأ له ويكتب له مراسلاتِه مع غير العرب، فلما رآه الخليفة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُعْجب بفطنته وذكائه ولم يكن يعلم أنه غير مسلم، فطلبه ليدخلَ المسجد ويقرأَ كتابًا جاء من الشام، فأخبره أبو موسىٰ أنه لا يستطيع دخول المسجد لكفره، فقال أبو موسىٰ: فانتهرنىٰ وضرب فخذي وقال: أخْرِجه، وقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، قال أبو موسىٰ: والله ما تَوَلَّيْته،إنما كان يكتب،قال: أما وَجَدْت فىٰ أهل الإسلام من يكتب لك ؟! لا تؤمنوهم وقد خونهم الله، ولا تقربوهم وقد أبعدهم الله، ولا تُعزِّوهم وقد أذلَّهم الله» الحديث.

٣- الاتباع: والمقصود به تقليد اليهود والنصارىٰ في أزيائهم التي تخصهم، وهيئاتهم التي يتميزون بها عن غيرهم، فضلًا عن تقليدهم في عباداتهم وأعيادهم التي يتسابق إليها فريق من أبناء المسلمين ويقلدونهم فيها.

ومن مظاهر اتباعهم وأخطرها في زماننا تحكيم غير شرع الله في بلاد المسلمين في عدد من المجالات، ولعلكم لو أعملتم النظر في الآية السابقة التي جاءت هنا في سورة المائدة، لأدركتم عظم جريمة تبديلِ جزء من الشريعة بقوانين من صنع البشر، وتركِ ما أنزله رب البشر وخالقهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن أخطر ما يدعو إليه بعض أبناء جلدتنا ما يُسمىٰ بوحدة الأديان، مع أن الدين واحد، وليتَ شِعري كيف يلتقي دين التوحيد مع دين الشرك والكفر بالقرآن وبمحمد ﷺ.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وأخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»، قُلْنَا يَا رَسُولَ الله: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: «فَمَنْ».

وأخرج أبو داود والترمذي عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ».

وأخرج أحمد والنسائي بإسناد حَسَّنه غير واحد من أهل العلم، عن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَصُومُ يَوْمَ السَّبْتِ وَيَوْمَ الْأَحَدِ أَكْثَرَ مِمَّا يَصُومُ مِنَ الْأَيَّامِ، وَيَقُولُ: «إِنَّهُمَا يَوْمَا عِيدِ الْمُشْرِكِينَ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أُخَالِفَهُمْ».

وأخرج أبو داود والبيهقي في السنن الكبرىٰ عن ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ (اسم مكان أسفل مكة)، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» ، قَالُوا: لَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ».

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ تأكيد لوجوب الابتعاد عن مودتهم، وتعليلٌ للنهي عن موالاتهم، اليهود والنصارىٰ أجدر بولاية بعضهم بعضًا، مع أنهم غالبًا لا تلتقي كلمتهم إلا علىٰ حرب المسلمين ونصب العداوات لهم، لأن القرآن أخبر أن اليهود والنصارىٰ ليسوا علىٰ قلب واحد، كما في قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣].

والقرآن العظيم بيَّن كذلك أن الله تعالىٰ وضع بين النصارىٰ أنفسهم العداوةَ والبغضاءَ إلىٰ يوم القيامة، كما دل علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

وَبَيَّنَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْيَهُودِ أَيْضًا، حَيْثُ قَالَ فِيهِمْ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وعن اليهود كذلك قال ربنا جلَّ وعلا: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

ولكنهم مع كل هذه العداوات بينهم، تراهم جميعًا في خندق واحد للصَّدِّ عن دين الله تعالىٰ وإيذاء أهل المِلَّة.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ تأملوا هذا التهديد والوعيد لمن يفعل ذلك، كلُّ من يتولاهم يصير واحدًا منهم، كل من يتولاهم وينصرهم مع حبهم والرضىٰ عن دينهم فهو كافر مثلهم، والله ورسوله والمؤمنون بريئون منهم.

تأملوا كذلك قولَ الله الآتي في ذات السورة: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٨٠-٨١]. يعني: تَوَلِّيهمْ أوْجَبَ سخط الله عليهم وخلودهم في النار، وهذا ما لا يكون إلا لأهل الكفر كما هو معلوم من عقيدتنا بالضرورة، ومتوليهم لَوْ كَانَ مُؤْمِنًا مَا تَوَلَّاهُمْ.

وإطلاق حكم الكفر لا يكون على جميع من والى اليهود والنصارى من المسلمين فانتبهوا، فقد نص أهل العلم على أنه من تولاهم وأعانهم بلا مسوغ شرعي معتبر، مع بغضهم وعدم الرضى عن دينهم ومع اعتقاده بأن دين الإسلام هو الدين الحق الذي لا يصح تحكيم غيره، فهذا مسلم مذمومٌ ممقوتٌ مرتكبٌ لكبيرةٍ من الكبائر ولا يَكْفر، وهذا ما نجده في واقع بعض المسلمين اليوم، وإلى الله المشتكى.

وأما من تولاهم اتَّقاء شرهم وبأسهم بقدر الحاجة لا يتجاوزها، مع سلامة عقيدته وباطنه، فهذا جائز وصاحبها معذور بنص الآية الكريمة: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فالمؤمن إذا كان قائمًا بين الكفار وموجودًا في سلطانهم، فله أن يداريَهم ويُظهر الولاء لهم باللسان إذا كان خائفًا على نفسه، على أن يكون قلبه مطمئنًّا بالإيمان، وعلى ألا يعينهم على المسلمين بحال، والتُّقْية لا تحل إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم.

وهنا همسة أُذكِّر بها طلاب العلم وطالباته: موالاة أعداء الله تعالى جريمة عظيمة لا تتعجلوا بتكفير فاعليها، وارجعوا إلى الراسخين من العلماء في ذلك، هذا خير لكم عند بارئكم.

وسبب ذلك أن مفهوم الولاء والبراء له مسائله العلمية التي لا يفقهها إلا المُتَمرسون في العلم ودلائله، فتراهم يفصلون بين أحكام توليهم وأحكام معاهدتهم أو أخذ الجزية منهم، وما يجوز للإمام في ذلك وما لا يجوز، وغير ذلك من دقائق المسائل العلمية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ من والى اليهود والنصارى من المؤمنين أصبحَ مثلهم ومنهم، ومثل هذا الصنف من الناس لا يهديه الله تعالى، ولا يشرح صدره للعبودية، ولا يُعينه في توبته جزاءً وفاقًا على ظلمه وتَجرُّئه على حدود الله.

والظلم هو وضع الشيء في غير محله، وهذا الموالي لليهود والنصارى وغيرهم تركَ موالاةَ المؤمنين ونصرتَهم في وقتٍ كانوا أحوج ما يكونون إليها، وسارع في أهل الكفر يرجو نفعهم، وهذا هو الظلم بعينه، والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

الذين في قلوبهم مرض هم من أبناء جلدتنا مِمَّن ظاهرُ حالهم الإسلام وممن يدَّعون الإيمان.

وقول الله تعالىٰ: ﴿يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: يسارعون في اليهود والنصارىٰ ويطلبون رضاهم ومودتهم.

الآية هنا تصف حال صنف من أبناء المسلمين جعلوا بلادنا مرتعًا لأعداء الله تعالىٰ من اليهود والنصارىٰ، وتولوهم من دون المؤمنين، بل أعانوهم علىٰ محاربة دين الله تعالىٰ وحملته، والتضييق عليهم، وسجْنهم وقتلهم إرضاءً لهم.

ولقائل أن يقول: كيف يتخذ مسلم أهلَ الكفر أولياء من دون المؤمنين، وكيف يأتي بثقافتهم ويجعلها في أجيال أمتنا، وكيف يقربهم من سدة الحكم ويستعين بهم علىٰ أمره، ويترك أولياء الله وعلماء الأمة وقادتها في علوم وميادين مختلفة؟

والجواب يأتيك في أمرين أشارت إليهما الآية، وقد حَصَلا مع طائفة من المنافقين تسابقت إلىٰ موالاة اليهود في مدينة رسول الله ﷺ:

الأول: أن قلوبهم صدأت وتجذر فيها مرض الشَّكِّ، الشك في أن المستقبل لهذا الدين، وفي أن الأمر كله بيد الله وحده، لا يثقون ببقاء الإسلام ولا بثبات أهله، وهؤلاء إنما أظهروا الإيمان طمعًا في أن ينتفعوا بذلك ويأمنوا علىٰ أنفسهم.

الثاني: أنهم ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ﴾ أي: يقولون ويسرون في أنفسهم: نحن والينا اليهود وحافظنا علىٰ صداقاتنا معهم؛ خوفًا من أن يصيبنا ضرر إذا دارت الدائرة علينا، نخشىٰ من اليهود إذا رجعت القوة والسطوة إليهم، فنريد أن نحفظ أنفسنا حينها، ولا يشترط إعلانهم بهذا الكلام علىٰ الملأ، لكنها حقيقة ما في صدورهم. قال الله تعالىٰ: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩]. هم يظنون أنهم بذلك أبقوا لهم عند أهل الكفر شأنًا، والواقع يكذب ظنونهم هذه، فإن حقيقة الأمر أن الله ناصرٌ أولياءه، لو عقلوا.

سبحان الله، كيف قذف الشيطان في قلوبهم كل هذا الرعب، وجعلهم مذبذبين بين المؤمنين وأعدائهم، نراهم كيف يتقربون لمن يحتلون أرضنا وعقولنا، ويبادرون لإرضائهم بما لم يُكلِّفوهم به، ونراهم كيف يتجرؤون على دين الأمة ومالها وأرضها وعِرضها، ويظنون أنهم بذلك احتاطوا لمعاشهم وحازوا الأمان والنجاة، ويا ليتهم يعلمون.

مِمَّا رواه أهل السير وأهل التفسير بأسانيدهم عن عُبَادَة بْنُ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد كان مِنْ بَنِي الْخَزْرَجِ، أنه جاء إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لِي مَوَالِي مَنْ يَهُودٍ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ مِنْ وَلَايَةِ يَهُودٍ، وَأَتَوَلَّى الله وَرَسُولَهُ، فَقَالَ عبدالله بن أبي بن سلول الذي كان له ولاء مع يهود المدينة: إِني رجل أَخاف الدوائر، لا أَبرأ من موالاة مواليَّ، ففيهما نزلت الآيات هذه.

وقد كانت أَوَّلُ قَبِيلَةٍ مِنَ الْيَهُودِ نَقَضَتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ بَنُو قَيْنُقَاعَ، فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ حتى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ الله بن أبي بن سَلُولَ (وكان يظهر الإسلام ويبطن النفاق)، حِينَ أَمْكَنَهُ الله مِنْهُمْ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنْ فِي مَوَالِي (يعني: يا محمد لا تؤذي حلفائي ممن واليتُهم من اليهود). وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنْ فِي مَوَالِي. قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهُ. فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِ (لباس من جلد مقوى يستعمل في القتال) رَسُولِ الله ﷺ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «أَرْسِلْنِي». وَغَضِبَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى رُئِي لِوَجْهِهِ ظُلَلًا (اختلافا في لونه) ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ أَرْسِلْنِي». قَالَ: لَا وَالله لَا أُرْسِلُكَ حَتَّى تُحْسِنَ فِي مَوَالِي، أَرْبَعِمِائَةِ حَاسِرٍ (لا درع لهم ولا مغفر يغطون رؤوسهم)، وَثَلَاثِمِائَةِ دَارِعٍ (لهم دروع)، قَدْ مَنَعُونِي مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ (كانوا يحمونه من العرب والعجم)، تَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ؟! إِنِّي امْرُؤٌ أَخْشَى الدَّوَائِرَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هُم لَكَ» (سأتركهم لأجلك ولن أقتلهم).

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ أي: يا أيها المتخاذلون المُرْجفون الموالون لليهود والنصارى: سيأتي نصرُ الله تعالى لجنده وأوليائه، وسيفتح لهم ويكرمهم، وستكون الغلبة لهم على أعدائهم، وستندمون على بغض المؤمنين وحب الكافرين، وعلى ما أسررتم في أنفسكم من الكفر والشك والخوف من أعداء الدين، وستتحسرون على ما فاتكم.

وقد أكرم الله محمدًا ﷺ وصحبه بالفتح والنصر، أكرمَه بفتح مكة وفتح خيبر وفتح بلاد المشركين، وأكرم صَحْبه من بعده بالتمكين والعزة، ونَصَرَ أولياءه سبحانه بعد أن ابتلاهم لينظر في صدقهم، وسيكرمنا بكرمه في زماننا هذا وينصرنا على عدوه وعدونا، وذلك إن نصرنا دينه وعَمَّرنا قلوبنا بحسن التوكل عليه.

وكلمة ﴿فَعَسَى﴾ في الآية هنا وَعْدٌ من الله تعالى لا يُخْلفه مع عباده الصادقين.

وعبارة: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ يعني: أمر من عنده فيه نصرُ المؤمنين وهزيمة الكافرين، كإرسال عذاب من عنده عليهم، وجَعْل بأسهم بينهم شديد، وتسليط الأمراض عليهم، وغير ذلك.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

المنافقون من شدة مسارعتهم في اليهود وخوفهم من المستقبل، أقسموا بالله جهد أيْمانهم، أي: حلفوا أيمانًا مغلظةً شديدةً لينْصُرُنَّ اليهودَ على محمد ﷺ وصحبه إذا حصل قتال بينهم، كما أكد ذلك قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

والآية تصف قول أهل الإيمان عندما أتى الفتح من عند الله تعالى وأعزَّ جندَه، ولَّما جاء أمر الله وخاب الكافرون وأعوانهم وأذنابهم وخسروا، وذهبت راية أهل الكفر وسقطت، ولَّما هُزم اليهود ودارت الدائرة عليهم كما وعد ربنا أولياءه، يقول المؤمنون وقتها توبيخًا للمنافقين واستهزاءً بهم وإنكارًا لفعلتهم: أين نصركم لليهود أيها المنافقون، ألم تُقسموا أن تكونوا معهم، ما غرَّكم في دين الله الذي لم تَصْدقوا الله تعالى فيه ولا في نصرته.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ بطُلت أعمالهم التي كانوا يتظاهرون بها من صلاة وصوم، وفسدت وذهبت سدى، وكانوا ممن خسروا الدنيا والآخرة، خسروا دنياهم إذ لم تَقُم للكافرِين دولةٌ فينتفعوا بثمار مساعدتهم وأَجر موالاتهم، وخسروا آخرتهم بحرمان ثوابِ الإِيمان بالله والإِخلاصِ في طاعته.

ولعلكم وأنتم تعيشون مع هذه الآيات، تتلمسون واقعنا الذي نرى فيه ألوانًا من هؤلاء ممن أخطأ طريقَ العزة والنجاة، وامتلأ قلبه بتعظيم أهل الكفر وخشيتهم، وكان الإيمان في قلبه باهتًا ضعيفًا لا يكاد يضيء له طريقًا.

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن قول المؤمنين هنا إنما كان بين بعضهم، قالوه لما رأوا من أهل النفاق المسارعة في نصرة الذين كفروا، وقولَهم: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾، فلما علموا حقيقتهم وحقيقة ما أَسَرُّوا، قال أهل الإيمان: أهؤلاء الذين أقسموا من قبل إنهم لمعكم! أهؤلاء الذين أعطونا الأَيْمان المغلظة ليكونن معنا وينصروننا على اليهود وأعوانهم! ثم قد ظهر الآن منهم من موالاة اليهود وخذلان الشريعة ما يُكذب أيمانهم.

وعلى هذا التفسير يكون المنافقون قد أقسموا للمؤمنين بأن يكونوا معهم، كما دلَّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧]، يعني: وَأَنَّهُمْ لَوْ وَجَدُوا مَحَلًّا يَسْتَتِرُونَ فِيهِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَسَارَعُوا إِلَيْهِ؛ لِشِدَّةِ بُغْضِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ. وفي الآية: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

سياق قرآني ممتد في بيان عظم جرم موالاة أعداء الله وترك نصرة هذا الدين، آية تعطينا مفتاح حفظ الله لنا من الاستئصال والاستبدال، وتعطينا القيمة الحقيقية لديننا في حياتنا، تُعلمنا أن العبودية لله تعالى أمنيات فحسب، وإنما هي شيء وَقَرَ في القلب وصَدَّقه العمل.

يا من اختاركم الله تعالى من بين الأمم وحبَّبَ إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم: لا ترتدوا عن دين الله تعالى بتولي أهل الكفر والركون إليهم، ولا تتركوا تحكيم شريعتكم وإقامتَها، فإنكم إن فعلتم ذلك ذهبت خيْرِيَّتُكم ونَفْعكم، وأراكم الله شيئًا من عظمته وقدرته واستبدلكم بمن هو خير منكم، فإنه الغني عنكم. قَالَ الله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [مُحَمَّد: ٣٨].

ولكم أن تتأملوا ما حصل بعد أن ارتدت بعض قبائل العرب عن الإسلام إثر موت رسول الله ﷺ، كيف أن الله أخلفهم أجيالًا قامت بقائمة هذا الدين ونشرَتْه، وجاهدت في سبيله شرقًا وغربًا، وكأنَّ الآية تبشر أهل التوحيد بأن العبودية لله تعالى ماضيةٌ وقائمةٌ، وإن ارتدَّ من ارتدَّ ونكثَ من نكثَ.

أما الصفات التي يحبها الله تعالى ويرضاها في القوم فإليكموها:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ هذه محبة الصدق والرسوخ والإخلاص للرَّبِّ جل وعلا، محبة تقوم على فعل الطاعات والمسارعة إليها، وعلى اجتناب المنهيات والفرار منها، تقوم على التضحية بالروح والمال والولد، وبذلِ الغالي والنفيس من أجل هيمنة هذا الدين، وإقامة الحق والعدل في الأرض.

ومثلُ هؤلاء يحبهم ربنا ويرضىٰ عنهم، ويحفظ عليهم دينهم وأسماعهم وأبصارهم، ويكرمهم بسعادة الدَّارَيْن، ويعطيهم سُؤْلهم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ما أرقاه من مقام يصل فيه الواحد منا إلىٰ حُبِّ الله له، مقامٍ لا شقاء فيه ولا بَعْدَه أبدًا، اللهم أكرمنا بحبك.

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ومن صفات أهل الإيمان الذين يرتضيهم ربُّنا ليكونوا خلفاء له في الأرض، ويكونوا قائمين بأمر الله علىٰ الوجه المَرْضيِّ، أن يكونوا أشداء علىٰ الكفار رحماء بينهم. قال الله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفَتْح: ٢٩].

في ديننا: لا يُقبل من مسلم أن يكون شديدًا علىٰ إخوانه مُظهرًا لعزته عليهم، ولا يُرىٰ منه في تعامله معهم إلا الغلظة والفظاظة وسوء الخلق، ثم إذا خالط أهل الكفر رأينا صفات التواضع ولين الجانب والانبساط إليهم.

والمطلوب هو أن يكون أهلُ الحق أهلَ عزة وقوة علىٰ عدو الله وعدوهم، وأن يلينَ جانبهم لإخوانهم ويكونوا كما أرادهم الله معتصمين بحبل الله جميعًا. قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقال ربُّنا آمرًا نبيَّه ﷺ بلين الجَانِبِ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحِجر: ٨٨]، وقال سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ الجهاد هو قتال أعداء الله لرفع راية التوحيد في الأرض، وله أسبابه وأحكامه، وهذا الموضوع من الآية جاء ليبين لنا أن ثمة من يُخَذِّلُ عنه ويلومُ أهله ويسعىٰ لهدمه.

أما أهل الله وخاصَّتُه فهم يدركون قيمة هذه الشعيرة التي هي ذروة سنام الإسلام، أي: أعلاه. ولذلك لا تراهم متخلفين عن هذا الطريق، طريقِ قتال أعداء الله وفتح البلاد ونشر الدين، لَا يَرُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ رَادٌّ، وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ صَادٌّ، وَلَا يؤثر فِيهِمْ لَوْمُ لَائِمٍ، ولا نفاق منافق، ولا إرجاف مُرجِف، يقينهم وعزيمتهم كالحديد لا تلين.

وهذا الموضع من الآية يشير إلىٰ أن طريق الجهاد في سبيل الله يحتاج إلىٰ نفوس فقهت عن ربها، لتكونَ أقدر علىٰ الثبات في وجه اللائمين وما أكثرهم، وما أكثرَ حُججهم التي يثبطون بها العزائم ويصدون عن الطريق.

طريق الجهاد ماض إلى يوم القيامة، ولا تزال طائفة من هذه الأمة تحمل رايته، مع التنبيه على ضلال جماعات زَعَمت حَمْل راية الجهاد، ولكنها لم تحمله على وفق منهج الكتاب والسنة، ولم تتبع كلام أهل العلم الثقات الربانيين في أحكام هذه الشعيرة فَضَلَّت ضلالًا بعيدًا، وكان ضررُها أكبرَ من نفعها إن وُجد لها نفع يُذكر.

ولكم أن تَحْملوا الجهاد هنا على ما هو أعمُّ من القتال، فإن ثمة أصنافًا ممن ذاقوا حلاوة الإيمان يبذلون الكثيرَ لرفع راية الإسلام والذبِّ عنه وإن لم يُقاتلوا، بل وتجدونهم يتحملون أصنافًا من الأذى لا يُطيقها أكثر الناس، وهم كما وصفهم الله تعالى: ماضون في طريقهم ولا يخافون لومة لائم، فبارك الله فيهم ولهم، وتقبل الله منهم، ورزقهم أجرَ المجاهدين الصابرين.

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ لا يكرم الله تعالى أحدًا بهذه الصفات إلا من اطَّلع على قلبه، وعلم أن حب الله تعالى تربَّع فيه وعمَّره ومَلأه، واحذر يا من استعملك الله في طاعته من أن ترى الفضل لنفسك في ذلك، بل الفضل كله لله أولًا وآخرًا، والحمد لله رب العالمين.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وربنا جل وعلا فضلُه واسع، وهو عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِمَّنْ لا يستحقه.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥﴾

الولاء القائم على المحبة والنصرة والاتباع لا يكون إلا لله وفي الله، فلا يصلح لمقام الولاية في حياة أهل الإيمان إلا أن يتولوا ربهم وخالقهم وسيدهم ومولاهم، وتكونَ حركاتهم وسكناتهم على ما يرضيه لا ما يسخطه.

ثم إن المؤمن يتولى رسول الله ﷺ؛ يحبه، ويتبع هديه، ويذب عن سنته، ويرجو لقاءه في الجنات غدًا.

وطريق الولاية لله ورسله يصطفي له ربنا عبيدًا من خلقه، ابحثوا عنهم والزموهم، فهذه صفاتهم في الآية هنا: يقيمون الصلاة على وقتها ويخشعون فيها وينتفعون بها، وكذا حالهم مع الزكاة ومع شعائر الإسلام، يقيمونها وهم راكعون، أي: خاشعون متذلِّلُون للرب مستحضرون لعظم مِنَّته ونعمته عليهم، وليسوا كالمنافقين الذين يقومون إلى طاعة الله كُسالى يطلبون نظر الناس إليهم وثناءَهم عليهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التَّوْبَة: ٧١].

وأخرج البخاري ومسلم عن عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ: «إِنَّ آلَ أَبِي (يعني: أقربائي من النسب) لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ الله وَصَالِحُ المُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّهَا بِبَلاَهَا» (يَعْنِي: أصلهم لأنهم قرابتي فقط).

وقد أورد بعض المفسرين عند تفسيرهم لقول الله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ روايات تدل على أنها نزلت في علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث تصدق وهو راكع، قَالَ ابْنُ كَثِير: وَلَيْسَ يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ لِضَعْفِ أَسَانِيدِهَا وَجَهَالَةِ رِجَالِهَا، (أي: رواتها).

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

هذه ثمرةُ موالاة الله سبحانه والصدقِ في ذلك، وهذه ثمرة أن يكون وليُّك رسولَ الله ﷺ وأهلَ الوضوء والصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعابدين لله، ثمرة ذلك أن تكون من حزب الله وأوليائه وأنصاره، ثم تكون ممن أفلح في الدنيا والآخرة وغلَبْ.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المُجَادَلَة ٢١-٢٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

نداء ثان في السياق القرآني لأهل الإيمان يطلب منهم أن يتبرؤوا من اليهود والنصارى، ولا يتخذوهم أولياء، لكنه نداءٌ أظهر خَصلة من خصالهم لا تكاد تنفك عنهم، وقد جاء ذكرها زيادة في التنفير من موالاتهم والحض على معاداتهم.

اليهود والنصارى اتخذوا شَرَائِع الْإِسْلَامِ الْمُطَهَّرَة الْمُحْكَمَة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي هزوًا ولعبًا، يسخرون منا ومن كتابنا ورسولنا، ويتفاخرون بذلك ويتسابقون إليه، وربما ألبسوه ثوب الحرية الشخصية والتعبير عن الرأي.

ثم فائدة ثانية شملها هذا النداء، وهي أن حرمة الموالاة ليست مقصورة على اليهود والنصارى، بل هي ممتدة مع الكفار جميعًا، كلهم لا نحبهم ولا ننصرهم ولا نتبعهم. قال الله تعالى في بيان حقيقة كل المشركين: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ احذروا سَخط الله عليكم إن خالفتم أمر الله فيهم، وفعلتم ما نهاكم عنه، واعلموا أن علامة إيمانكم تقوى الله في ذلك، فالزموا.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

لأنهم يعلمون أن الصلاة عمود ديننا، وأن إسقاط هيبتها في القلوب إسقاط لهيبة الدين، وأن النداء لها فيه جمع لقلوب المسلمين وتوحيدٌ لهم، وفيه صرفٌ للشواغل وتجردٌ للواحد الأحد، أقول: لكل ذلك: خصُّوها قديمًا بالسخرية والاستهزاء، ولا زالوا يفعلون ذلك وإن تنوعت أساليبهم وتعددت.

وهذا الأسلوب القرآني فيه تهييجٌ لكل مسلم ليصدقَ في توحيده لله تعالى، ويَفِرَّ من تولِّي من هذا حالهم، وليعمُرَ قلبَه بحب أهل التقوى والإيمان.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ هم لو كانوا يعقلون مَعَانِي عِبَادَةِ الله وَشَرَائِعِهِ، لكانت كلمات الأذان وأفعال الصلاة كافية لإسلامهم، فإنَّ فيها الطهرَ والصفاءَ والدعوةَ إلى الألفةِ والمحبةِ، وإلى ذكر الله وعبادته وتوحيده، ولكنهم لا يَعْقِلُونَ، شأنهم شأن البهائم، بل هم أضل منها.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قُلْ يَا أيها الرسول ﷺ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عمومًا ومن اليهود خصوصًا: هل تبغضوننا لأن إيماننا بأن العبودية في حياتنا لا تكون إلا لله وحده؟ وهل كرهتم منا أننا آمنا برسل الله جميعًا ولم نكفر بواحد منهم؟ وهل أنكرتم علينا ما أمرنا الله تعالى به في عقيدتنا من الإيمان بالقرآن الذي أُنزل إلينا، والإيمان بالكتب السماوية التي نَزلت قبله جميعًا؟ وهل تعيبون علينا أننا نعلم فسقكم، ونعتقد خروجكم عن الصراط المستقيم؟

الآية تقول لهم: كل ما تعيبونه علينا مَحامِدُ نفخر بها، ونرفع رؤوسنا باصطفاء الله تعالى لنكون من أهلها، ووالله لا نفرق في إيماننا بين كتاب وكتاب، أو بين رسول ورسول، بل نقر بهم جميعًا، ونعتقد أن محمدًا ﷺ خاتم الرسل والأنبياء جميعًا، وهو رسول الله إلى العالمين، كما ندين لله بأن القرآن محفوظ من اللعب والتبديل والتحريف، ولن تناله الأيدي كما نالت ما قبله من التوراة والإنجيل.

أخرج غير واحد من أهل التفسير بأسانيدهم، أن سبب نزول هذه الآية أنَّ نفرًا من اليهود جاؤوا نبينا ﷺ، فسألوه عَمَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ مِنَ الرُّسُلِ، فَلَمَّا ذَكَرَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَالُوا: «لَا نُؤْمِنُ بِمَنْ آمَنَ بِعِيسَى، وَلَا نَعْلَمُ دِينًا شَرًّا مِنْ دِينِكُمْ، وَمَا نَعْلَمُ أَهْلَ دِينٍ أَقَلَّ حَظًّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْكُمْ».

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

تنقمون منا أيها اليهود أن آمنا، وتنسبون إلينا أسوأ الخصال لذلك، وتسخرون من ديننا وصلاتنا، وتزعمون أنَّا شر الناس.

اسمعوا ما يزيل العمى عن قلوبكم، ويُبطل زَعْمكم، ويُبَصِّركم بصدق، ويسعى لإنقاذ من يمكن إنقاذه منكم، قل لهم يا أيها النبي ﷺ، وقولوا لهم أيها المؤمنون: هل تريدون أن تعلموا شرَّ الناس منزلة عند الله يوم القيامة، يوم توزن الأعمال وأصحابها؟

﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أشقى الناس وأسوأهم حالًا من أبعده الله من رحمته، وغضب عليه غَضَبًا لَا يَرْضَى بَعْدَهُ أَبَدًا.

صحيح أن القرآن يخاطب اليهود الذين كانوا زمن النبوة، وصحيح أنه يَصلح خطابًا لمن بعدهم، بل يصلح خطابًا لكل من استجلب لنفسه غضب الله ولعنته بكفره وصده عن سبيل الله، ولكن الآيات هنا لا تتكلم عن اليهود الذين عاشوا زمن النبوة، وإنما تذكرهم بما يعلمونه من حال أسلافهم ممن سبق، أولئك الذين تتابعت عليهم لعائن الله، ونالوا عقوبته لكثرة ما عاندوا وكذَّبوا وأفسدوا.

وكأن الآيات تخاطبهم: لا تتطاولوا على الإسلام وأهله، فإنه دين الله تعالى الذي ارتضاه لأهل الأرض، وكتب العزة لأهله فاقدروا لهم قدرهم.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ ومن سوء منقلبهم وجزائهم أن مسخهم الله قردة وخنازير خاسئينَ ذليلينَ مُهانينَ، وذلك لسوء حالهم مع أمر الله ونَهْيه، كما دلَّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

أخرج مسلمٌ عن عبدِالله بنِ مسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقدْ سُئِل ﷺ عنْ القردةِ والخنازيرِ التي كانتْ من بعدِهم، هل هي منْ نَسْلِ القردةِ والخنازيرِ التي مُسِخَ إليها اليهود؟ فأجابَ بقولِه: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَمْسَخْ قَوْمًا فَيَجْعَل لَهُمْ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كانت قبل ذلك».

فالقردةُ والخنازيرُ ليستْ منْ نسْلِهم، وإنَّما هي منْ نسلِ القردةِ والخنازيرِ التي أوجدها الله قبْلَهم، أما هم فقد مُسِخوا على هيئتِها ثمَّ أماتَهُم الله.

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ ابتلاهم ربهم وعاقبهم بأن أُشربت قلوبهم حُبَّ ما يُعْبدُ من دون الله، وتعلقوا بما لا ينفعهم ولا يضرهم من كهنتهم الذين تلاعبوا بهم وبدينهم، ومن رؤساء الضلال الذين قادوهم إلى الكفر بما أنزل الله تعالى، هؤلاء هم الطاغوت الذين حرَّموا عليهم ما أحل الله لهم، وأحلُّوا لهم ما حرم الله عليهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا هو أحطُّ مقام في الدنيا والآخرة، وهؤلاء هم أهل الانحراف عن الجادَّة الذين هم من شرار الخلق وضُلَّالهم.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦١﴾

مشهدٌ يصفه القرآن لأقوام عاشوا مع بزوغ فجر الإسلام، ولا زالت أفراخهم تعيش معنا، هؤلاء يهود تظاهروا بأنهم مسلمون لغايات في نفوسهم، إما ليحفظوا دماءهم وأموالهم، وإما ليُلبسوا على المسلمين دينهم ويشوشوا عليهم، وإما ليأخذوا أخبار أهل الإسلام وينقلوها لأعدائهم.

هؤلاء المنافقون من اليهود كانوا إذا جاؤوا مجالس المسلمين تكلموا أمامهم كلام المؤمنين المصدقين الطائعين، ولكن القرآن فَضَحهم وجلَّى أمرهم، وأظهر ما في قلوبهم.

هؤلاء دخلوا إلى مجالس النبي ﷺ وأصحابه وقلوبهم مُنْكِرةٌ لهذا الدين كافرةٌ به، لَمْ يُخَالِطْ الإيمان قُلُوبَهُمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، ويا ليتهم انتفعوا بمجلسهم هذا، بل خرجوا بالكفر الذي دخلوا به.

سبحان الله كيف يفقد أناس قلوبهم وعقولهم وهم في أطهر مجالس الدنيا، في مجلس خير البرية محمداً ﷺ، فلم ينتفعوا بالعلم ولا بالتذكرة ولا بُرُقِيِّ الخلق.

صحيح أن الآية تصف حال أهل الغفلة، لكنها تحمل نداءً لأهل التقوى، تقول لهم: افقهوا حال أهل الدنيا مع هذا الدين، ولا تغتروا بظاهر حال كثير من الناس، وخذوا حِذْركم منهم، ولا تغرنكم ألسنتهم المعسوله، جاهدوهم بالقول الحسن وعاملوهم بظاهر حالهم واتركوا السرائر إلى الله.

واسألوا الله دومًا من كرمه، واسألوه الثبات فإنَّ فضل الله عظيم يؤتيه من يشاء.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ وَاللهُ عالم الغيب والشهادة، يعلم ما يسرون وما يعلنون وَإِنْ أَظْهَرُوا لِخَلْقِهِ ما أظهروا، وَسيبتلي الله ما في صدورهم وسَيَجْزِيهِمْ عَلَيه أشدَّ الجزاء.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٢﴾

ومن صفات اليهود التي لا بد أن نفهمَها ونعيَها جيدًا أنهم قوم اتبعوا أهواءهم، ولم يرضوا بشرع الله تعالى الذي أنزله عليهم مُربيًا ومُوجهًا، فغيَّروا فيه وبدَّلوا، وتسابقوا في فعل السوء الذي يستجلب لهم الإثم والسخط.

ثم تسابقوا كذلك في العدوان، وهو الاعتداء على الناس وظلمهم بالقول والعمل.

ومن جرائمهم التي تدل على تهاونهم في شأن المعصية أنهم أقبلوا على السُّحْت، وهو أكلهم المال بالحرام وسعيُهم لتحصيله عن طريق الرشوة والربا والكذب وغير ذلك، والمصيبة العظمى أنهم يُسرعون في ذلك ويتسابقون إليه ويبادرون فيه ولا يسترون.

ولا أدري إن كانت قراءتنا لمثل هذه الآيات تجعلنا نفقه كثيرًا مِمَّا يجري حولنا، فيما يخص كبار القائمين على تجارة الفحش والزنا في العالم، وكذا تجارة الأسلحة والمخدرات، وكذا كبار القائمين على التجارة بالمرأة واستغلالها.

﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ذمٌّ من الشرع لهم، وتقبيحٌ لعملهم وسعيهم ومسارعتهم في ذلك، ومَنْ ذمَّه الشرع وأسقطه فمن يرفعه بعد ذلك!

﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

الربانيون: هم العباد الذي يكثرون من عبادة ربهم ويحرصون على جعلها لله وحده، والأحبار: جمع حبر وهو العالم في دين اليهود.

ما أصعبها يوم يكون الربانيون والأحبار ساكتين عن الإثم والعدوان، ولا ينكرون على أقوامهم مصانعًة لهم ومداهنًة.

أنعم الله على العلماء والعباد بنعمة عظيمة يتمناها كثير من الناس، ولا يليق بمثلهم أن يبخلوا على غيرهم بالدعوة والإرشاد إلى ما علموه وفهموه، ولكم أن تنظروا في حال أمَّة قصَّر علماؤها وعُبَّادها في التربية والتوجيه والوعظ والإرشاد.

الآية تنادي العلماء والعباد في كل زمان ومكان، تناديهم وتأمرهم بأن يقوموا بواجبهم وينهوا من حولهم عن التفنن في الحرام والانغماس فيه والتجرؤ عليه، فإن عذاب الله وسخطَه لا يقتصر على الذين باشروا الظلم والعصيان.

ومن هنا نفهم خطاب ربنا لأمة محمد ﷺ لما قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ونفهم خطاب النبي ﷺ الذي أخرجه أحمد وغير واحد من أصحاب السنن، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه سمع رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله بِعِقَابٍ مِنْهُ».

قال الله تعالى عن صنيع هؤلاء العلماء والعُباد:

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ ذمٌّ لسكوتهم، وخشيتهم من الناس، وحرصِهم على منافع الدنيا.

قال ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَشَدُّ تَوْبِيخًا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ»، وقال الضَّحَّاكُ وهو من علماء التابعين في التفسير: «مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَخْوَفُ عِنْدِي مِنْهَا: إِنَّا لَا نَنْهَى».

ومثل هذه الآيات لا تظنوا فقط أنها جاءت لتجلية حال اليهود ومن شاكلهم من أهل الملل، بل جاءت لتزيدَكم أيها الثابتون على هذا الدين ثباتًا، ولتزيدَ قلوبكم طمأنينة إلى طمأنينتها، ولتصنعَ منكم أعلامًا في الدعوة إلى هذا الدين والذَّبِّ عنه وحفظِه، ولعل أحدنا يستحضر مع هذا البيان القرآني فضل الله عليه، فيلزم بابه ويقرعه كل حين، ويعاهده على أن يكون جنديًّا من جنود هذه الرسالة العالمية الطيبة المباركة.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾

اليهود لم يَسْلم منهم الأنبياء والصالحون والمصلحون، وهذه أسفارهم وكتبهم التي يؤمنون بها تتكلم عن أنبياء الله ورسله بما لا يليق، وهذه طامَّةٌ من طامَّاتهم التي تدل على فساد عقولهم وقلوبهم، إنهم ينسبون لربنا عددًا من صفات النقص، ويتجرؤون على خالقهم الذي بيده الأمر كله.

وذلك كما تجرؤوا عليه في قول الله تعالى الذي أخبر عنهم: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

هنا ردَّدوا عبارة في حق الله عَزَّوَجَلَّ لا يقولها إلا من خلا قلبه من تعظيم الرب وخشيته، قالوا: يد الله بخيلة لا تنفق، ولا تعطينا ما نريد، وَعَبَّرُوا عَنِ الْبُخْلِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾، أي: مُوثَقة مَربوطة، يعنون بذلك البخل، يعني أن الله تعالى ضيَّق عليهم الرزقَ ولم يوسع عليهم، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

والقائل لذلك ربما يكون أحدَهم أو بعضَهم، ولكنهم قوم عُرفوا بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أخبر القرآن، ولذلك نُسب القولُ هنا إليهم جميعًا لأن تارك النهي عن المنكر مع القدرة على تغييره مشارك في المنكر بلا ريب.

ولعل قولهم هذا إنما قالوه غضبًا من المسلمين ونكايةً بهم، لأنهم أهل كتاب يؤمنون بالله، ولا يجوز في دينهم قولُ مثلِ ذلك في حق ربهم ورب الناس جميعًا، ومع ذلك فإن الحَيْرة تملأ القلب في مخازيهم التي امتلأ تاريخهم بها، بل وجدت في كتب دينهم التي حرفوها.

إليكم عقوبةُ الله لهم في الدنيا والآخرة على مقولتهم البائسةِ هذه:

﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ كلامهم هذا مردود عليهم، وهو من افترائهم وكذبهم على الله، فكانت عقوبتهم المذكورة هنا أنهم ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، أي: حُرموا الإنفاق في الخير وفيما ينفعهم، فهم أهل البخل والإمساك، وتاريخهم يشهد أنهم أهل مصالح لا ينفقون إلا إذا كانت لهم مصلحة من مصالح الدنيا.

﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ وكذلك نزلت عليهم لعنة الله التي أحاطت بهم بما نطقت ألسنتهم الخبيثة، ولعنة الله عليهم تكون بطردهم من رحمته ومغفرته ورضوانه.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ إثبات لسَعة فضل الله وعطائه الذي لا يخفى على أحد. قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٣٤].

هذا كرم رب العالمين على الخليقة لم ينقطع، ونعمه عليهم تأتيهم صباحهم ومساءهم، وله المنة في كل ذلك أولًا وآخرًا.

أخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَمِينُ الله مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نفقة (يعني: لا ينقصها)، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (يعني: دائمة العطاء)، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ». قَالَ: «وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْقَبْضُ (يعني: قبض الرزق والروح وغيرهما)، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ (يعز ويذل ويعطي ويمنع)».

وأخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ الله قَالَ لِي: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ».

وفي قوله تعالى: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تأكيد لكمال جوده وغناه، إذ معناه أَنه تعالى يرزق كما يريد؛ إن شاءَ وسّع العطاءَ، وإن شاءَ ضيَّقه، وليس ضيق العيش لنقص في خزائنه، ولا لإمساك الخيرِ، وإنما هو لحكمة يعلمها ولا نعلمها. قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ ومن عقاب الله لهم أنْ صرفهم عن الهدى والإيمان، وجعل ما أنزل على النبي ﷺ من الكتاب والسنة سببًا في زيادة كفرهم وطغيانهم، والطغيان هو التجاوز في الظلم والشر، فالناس فريقان في تصديقهم بما أنزل على محمد ﷺ: فريقُ أهل الإيمان الذين يزدادون هدىً وعملًا صالحًا، وفريق أهل الكفر الذين يزدادون تكذيبًا إلى تكذيبهم، وضلالًا إلى ضلالهم، ومنهم هؤلاء اليهود.

قَالَ الله تَعَالَىٰ عن القرآن: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٤].

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ عاقبهم ربنا بألا تجتمع قلوبهم أبدًا، وأن تكون العداوة حاصلةً بينهم إلى يوم القيامة، وأن يكون الجدل في الدين واقعًا بينهم، وهذا ظاهرٌ في حالهم إلى أيامنا، فلا نغتر كثيرًا بما يُبدونه من وحدتهم، ومن صفاء قلوبهم تجاه أبناء جلدتهم.

لا تقولوا: ونحن المسلمين كذلك قد ملأت الشحناء والبغضاء قلوبنا، وانتشرت العداوة بيننا؛ لأن حقيقة الأمر أن غالب شعوب أهل الإسلام يحبون بعضهم، ويفهمون حق الفهم أن المسلم أخو المسلم، وأنه لا يظلمه ولا يُسْلمه ولا يَخذله، وهو أمر لا يعجز عن إدراكه المخالط للشعوب، ولكنَّ بلاء الأمة قد حصل بأسباب أخرى لم يستسلم أمامها العاملون في حقول الدعوة والعلم، وهم يعملون على مدافعتها ومعالجتها وتذليل عقباتها، مستعينين بالله ومتوكلين عليه.

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أَيْ: كُلَّمَا أشعلوا نار الفتنة والتحريش والعداوات بين الأمم وبينكم، وكلما خططوا ليكيدوا بالنبي ﷺ وبالمؤمنين، فإن الله يُبْطِلُ مكرهم وعملهم، وَيَرُدُّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ ويشغلهم بأنفسهم ويَخْذُلهم.

ولكم أن تستحضروا جُملة من إجرامهم في ذلك في زمن النبوة، وهو ما بثته كتب السيرة والتاريخ الإسلامي واستطردت بذكره، كيف كانوا يُغْرون مشركي مكة ومن حولهم لقتال المسلمين، وكيف يخونون العهد مع المسلمين، ويُعينون الأحزاب على حصار المدينة، وغير ذلك.

وإفسادهم هذا لم يتوقف في زمان مضى، ولم يخلُ منه مكان حَلُّوا به وأقاموا، هم دومًا يُهيِّجون الفتن، ويغرون بالقتال بين غيرهم من الأمم، وهو ما دفع كثيرًا من دول العالم إلى بغضهم والرغبة في التخلص منهم ومن إفسادهم، ولعله يكون سببًا من أسباب حرص عدد من دول الكفر في زماننا على التمكين لهم في فلسطين واحتلال أرضها ومقدساتها.

بل تجاوز إفسادهم إشعال الحروب بين الأمم، ووصل إلى حد إفساد منظومة القيم والأخلاق في العالم، بل وإفساد المعايش وتضييق أبواب الرزق، بل وصل إلى حد نشر الإلحاد وإسقاط الدين ومحاربته، إفسادهم في الأرض أصبح سجيةً لهم ويجري في عروقهم ودمائهم.

لا أقول هذا استسلامًا ولا انكسارًا، ولكني أقوله وصفًا لما يجري في واقعنا، وأعلم علم اليقين أن إفسادهم هذا من قدر الله تعالى الذي سنقضي عليه نحن بقدر الله كذلك، والخير في أجيال هذه الأمة التي لم يتوقف عطاؤها في زمن ما، والحمد لله.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ والله لا يحب أهل الفساد في الأرض، بل يُبغضهم ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويُقيِّضُ لهم أهل التقوى والإصلاح ليردُّوا كيدهم إلى نحورهم، وليكونوا سببًا في ثبات الناس على الخير، والله غالب على أمره.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التوراة والإنجيل، أما اليهود فقد لعبوا في دينهم وحرفوا توراتهم، وقالوا على الله ما قالوا، وسعوا في الأرض إفسادًا.

وأما النصارى فقد ضلوا وأضاعوا إنجيلهم وحرفوا فيه، ثم جعلوا لله شركاء في خلقه.

ومع كل هذا تناديهم الآية هنا وتدعوهم لتحقيق الإيمان بالله الواحد الأحد، والإيمان بجميع الرسل والأنبياء دون تفريق بينهم، وتدعوهم كذلك لتحصيل التقوى التي تحجِزهم عن فعل المنكرات وتُسارِع خُطاهم إلى فعل الخيرات.

أسلوب قرآني عجيب يربطهم بغاية المؤمن من حياته إن كان صادقًا، فالمؤمن الحق لا يرجو من دنياه إلا أن يرضى الله عنه، ويغفر له خطيئاته، ويكرمه بالجنات.

القرآن يعطيهم رسالة واضحة لعل قلوبهم تعقل، ويبشرهم بأن الإسلام يهدم ما قبله، بل جاءت السنة بمضاعفة أجورهم إن هم رجعوا عن كفرهم وضلالهم، فقد أخرج البخاري ومسلم واللفظ له، عن أَبِي مُوسَى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ» الحديث.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يا من تريدون خَيْري الدنيا والآخرة، يا من تبحثون عن سعة الرزق وبركة العمر: لا تظنوا أن طرائق الحرام تسعدكم وإن جلبت لكم رزقًا سريعًا ووفيرًا، ولا تغتروا بإمهال الله لكم وأنتم مقيمون على مخالفة شرعه ودينه، ولكن: أقيموا أوامرَ الله في أنفسكم وأهليكم والناسِ من حولكم، واعلموا أنكم ستعيشون ثمرة ذلك في الدنيا كما تنتظركم في الآخرة، وارتقبوا وعد الله لكم بالأكل من فوقكم ومن تحت أرجلكم، وهي عبارة تدل على عِظم إكرام الله لمن جعل رضاه فوق كل شيء، وعلى أن الله سيرزقه من حيث لا يحتسب، وسيغنيه من فضله.

الآية هنا تعاتب اليهود والنصارى على تكذيبهم بالنبي ﷺ والقرآن، وتشير إلى سبب من أسباب صدودهم عن دين الإسلام، فإنهم خافوا على رزقهم وسعة عيشهم، وهو أمر معلوم في رهبانهم وأحبارهم.

القرآن يرشدهم إلى إقامة ما في التوراة والإنجيل من أوامرَ إلهيةٍ دون تحريف ولا تغيير ولا تبديل، وعلى رأسها الإيمان بهذا النبي الأمِّي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

والقرآن يعلمهم أن إيمانهم هذا سيفتح لهم طرائق من فضل الله لم تخطر لهم على بال، وسيحيط الخير بهم من كل جانب.

قال الله تعالى عن نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]، وَقَال عَنْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وَقَال عَنْ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ وعلى أنبياء الله صلواتُ ربي وسلامه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وَقَال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وَقَال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢] .

أيها الراكضون خلف دول الكفر تخافونهم وترجونهم، وتحكمون بشريعتهم وتتركون شريعة أحكم الحاكمين، تريدون بذلك رضاهم وتحصيلَ شيء من رزق الدنيا الذي يُلقونه إليكم على ذلة: هلَّا أَفَقْتم من غفلتكم، وأعمَلتم حكمَ الله في شعوبكم وبلادكم، وأرضَيْتم من بيده خزائن

السماوات والأرض، فوالله الذي لا إله إلا هو لتأكُلنَّ ما وعَدَكم ربُّكم به، وليوسِّعنَّ الله عليكم في أرزاقكم، وليفيضنَّ عليكم من بركات السماءِ والأرض. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ولا أتجاوز تفسير هذه الآية قبل أن أعيش في تمام ظلالها الراقية، تأملوا: إقامةُ شرع الله وكتابِه وسنةِ نبيه ﷺ في أنفسنا وأهلينا وبلادنا مطلبٌ لا ينبغي التغافل عنه أو التهاون فيه، لئلا يلحقنا ما لحق اليهود والنصارىٰ، ومعلوم لديكم أن ذهاب العلم آخر الزمان إنما يكون بهجر العمل بالقرآن.

أخرج أحمد وابن ماجه عَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، فَقَالَ: «ذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ، وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا، وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ زِيَادُ إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ يَقْرَؤُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ لَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا؟».

ومن ظلال الآية كذلك أنْ نعلمَ أنَّ الذنوب والمعاصي سببٌ لتضييق الرزق وضَنَك العيش، كما أشارت الآية الكريمة: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، هذه سنة من سنن الله استطردت آيات كتاب ربنا في بيانها.

﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ قبل بعثة نبينا ﷺ كان في بني إسرائيل دعاةُ صدق وخير وعدل، وكان فيهم الموحدون الذين لم ينحرفوا عن الجادة، الذين آمنوا وصدَّقوا وأطاعوا واقتصدوا في المعتقد والعمل بلا غلوٍّ أو تفريط.

ولفظة ﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي: عادلة لم تظلم نفسها بالكفر والشرك.

الطائفة كانت زمن أنبيائها، ونقلت خيرها لمن بعدها، ولكنَّ هذا الأمر لم يكن حالَ أكثرِ بني إسرائيل، بل كان حالَ قلةٍ منهم، وأكثرهم أساؤوا الاعتقاد والعمل. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقال سبحانه عَنْ أَتْبَاعِ عِيسَىٰ: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

أما بعد بعثة نبينا ﷺ فإيمانهم واقتصادهم لا يكون إلا بالإيمان به وبما جاء به من الوحي، ولا يُقبل منهم غير هذا، ولا يدخلون في الإسلام إلا بذلك.

وفي أمتنا: لا زال غالب أبنائها علىٰ الخير وإن كان فيها من يحمل رايات الفساد والإفساد، ويود لو أدخلها كل بيت ومكان، ولا زال في الأمة من يدافع أهل الشر والرذيلة لإدراكه أن العقوبة إذا وقعت عَمَّت، ولِعلْمه أن مسيرةَ هذه الأمَّة لا ترتقي إلا بذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾

البلاغ عن الله تعالىٰ يحتاج إلىٰ قوةٍ في الداعية وصدقٍ في البلاغ، ويتطلب ثقةً في الطريق وصبرًا، ويحتاج إلىٰ من يعلم تمام العلم أنَّ النفع والضر بيد الله وحده، وأنَّ الجنة هي دار راحةِ البدن والنفس.

أقول هذا لأن ربنا جلت قدرته كتب في هذه الدنيا أن يدافع أهلُ الباطل أهلَ الحق، وأن يحولوا بينهم وبين دعوتهم، وأن يصدوا عن سبيل الله.

وقد جاءت الآية هنا تضع للدعاة معالمَ الصبر علىٰ كَيْدهم وسبيلَ مجاهدتهم، وذلك عن طريق إرشاد سيد الدعاة والقدوة والمعلم ﷺ.

الآية تأمر نبينا ﷺ أن يبلغ الرسالة كما جاءت لجميع الناس، وألا يلتفت لكيد الطاعنين من أهل الكفر والنفاق من أهل الكتاب وغيرهم، وألا يَضْعف أمام سُخرية الساخرين، وأمام الذين حملوا في قلوبهم حقدًا عجيبًا علىٰ الدين وأهله.

يا محمد ﷺ: اقرأ القرآن علىٰ أمتك كما أنزله الله، واصدع بالوحي الذي يفضح أهل الكفر والنفاق ويذكر خصالهم، ولا تكتم من ذلك شيئًا ولا تتأخر عنه، واعلم أنك إن لم تفعل ذلك فما بلغت أمانة الله إليك.

وحاشاه صلوات ربي وسلامه عليه أن يقصّر في حق الله تعالىٰ، أو أن يكتم من وَحْي الله شيئًا، فقد أخرج الْبُخَارِيُّ ومسلم واللفظ لمسلم، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أُنزل عَلَيْهِ فَقَدْ كَذَبَ، الله يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾.

وفي لفظ مسلم: «وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ الله، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَىٰ الله الْفِرْيَةَ» الحديث.

وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأَحْزَابِ: ٣٧].

وقد شهدت الأمة لنبينا ﷺ أنه أدىٰ الأمانة وبلغ الرسالة علىٰ أحسن حالٍ كما أمره ربه، فقد أخرج مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ فِي خُطْبَته في حجة الوداع:

«وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ الله، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ، اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وهذا فيه رد قاطع على الذين تتعالى أصواتهم بين زمن وزمن يزعمون أن القرآن غير كامل، وأن رَسُولَ الله ﷺ اخْتَصَّ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ من الْقُرْآن، وقد بدأت مثل هذه الأوهام في حياة الخليفة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد أخرج البخاري عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ الله؟ قَالَ: «لاَ وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ (أي: شقها في الأرض لتنبت وتثمر)، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ (أي: خلق النفس)، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ الله رَجُلًا فِي القُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ» ، قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: «العَقْلُ (أي: أحكام دية المقتول)، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَنْ لاَ يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ».

وهل هذه القوة في الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ الدين وبيانِه للناس، وعدمِ خشيتهم في ذلك، مطلوبة فقط من نبينا ﷺ؟ الجواب عن ذلك يعرفه أبناء الإسلام وحملته والدعاة إليه، يعرفون أن الضعف في تبليغ الشريعة وتحكيمها لا يأتي بخير، ولعله سر من أسرار تقهقر أمتنا بين الأمم وتراجعها. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أعداء النبي ﷺ من المشركين والمنافقين لم يتوقفوا عن مكرهم لإسقاط الدعوة والقضاء عليها، بل تنوعت أساليبهم، وبلغت مبلغًا عظيمًا حتى وصلت إلى محاولة اغتيال القائد والمعلم والنبي محمدٍ ﷺ في أكثر من مرة.

جاءت الآية هنا لزيادة طَمْأنته بحفظ الله له، ونصرة دينه ودعوته، وكأنها تقول له: بَلِّغْ أَنْتَ الرسالة والله حافظك من شرور أعدائك وناصرك عليهم ومؤيدك، فَلَا تَخَفْ من كيدهم ولَا تَحْزَنْ، واعلم أنه لنْ يَصِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَيْكَ بِسُوءٍ يُؤْذِيكَ.

وقد نقلت لنا كتب الحديث والسير كثيرًا من الأحداث التي دلت على حفظ الله تعالى لنبيه ودعوته، كما حصل في قصته ﷺ في حادثة الهجرة، وكما حصل مع بني النضير، وفي خيبر، وفي طريقه إلى تبوك، وغير ذلك.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ يُحْرَس، كَمَا دل على ذلك ما في الصحيحين عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها كَانَتْ تُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سَهِر ذَاتَ لَيْلَةٍ، وَهِيَ إِلَى جَنْبِهِ، قَالَتْ: فقلتُ: مَا

شَأْنُكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ :» لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ؟» قَالَتْ: فَبَيْنَا أَنَا عَلَى ذَلِكَ إِذْ سَمِعْتُ صَوْتَ السِّلَاحِ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: أَنَا سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ. فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ؟» قَالَ: جِئْتُ لِأَحْرُسَكَ يَا رَسُولَ الله. قَالَتْ: فَسَمِعْتُ غَطِيطَ رسول الله ﷺ فِي نَوْمِهِ.

ورَوَى الترمذي والحاكم والبيهقي وغيرهم، أنه كان للنبي ﷺ حَرَسٌ يحرُسونه، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أخرج رأسه من القُبّه فقال لحرَّاسه: «يَأيها النّاسُ انصرِفُوا فَقَدْ عَصَمنِي الله».

وهذا لا ينافي تعرضه ﷺ لألوان من إيذاء أعدائه الذين دلت الأدلة على أنهم أدْمَوْا قدمَيْه الشريفتين، وشجُّوا وجهَه الكريم، وكسروا رَباعيَتَه (أي: السن التي تلي الثنية من كل جانب، والثنية إحدى السِنَّيْن في مقدمة الأسنان)، واتهموه في عِرضه، ورمَوْه بالسِّحْر والجنون وغير ذلك؛ لأن المقصود بعصمة الله له هو أنه محفوظ من الاغتيال والقتل، ودعوته محفوظة من تعطل الوحي ومن القضاء عليها، والله خير حافظًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لما سارعوا في الكفر، وصَرْف الناس عن دين الله، وسعوا في القضاء عليه، عاقبهم الله تعالى بحرمانهم من الهداية بما كسبت أيديهم.

ختام للآية فيه تذكير بأن الهداية بيد الله تعالى وحده، وأنه لا حول لنا ولا قوة مع القلوب، وأن كل ما نملكه هو بذل الأسباب الشرعية التي شرعها الله لنا. قال الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٢]، وَقَالَ سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرَّعْد: ٤٠].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾

أمْرٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يبلغ ما أنزل إليه إلى اليهود والنصارى، وأن يواجههم بالحق ويخبرهم أنهم على ضلال مبين بابتعادهم عن طريق الهدى والصراط المستقيم.

اليهود والنصارى انحرفوا عن طريق الإسلام، وابتدعوا في عقائدهم، ونسبوا لله ولأنبيائه ما لا يليق بهم، وكذبوا بمحمد ﷺ الذي بشرت به كتبهم بنصوص ظاهرة يعلمونها حق العلم.

يا أيها اليهود والنصارىٰ: اتبعوا عقيدة التوحيد التي جاءت بها كتبكم، وآمنوا بأنبياء الله ورسله وكتبه جميعًا، فإن لم تفعلوا ذلك فاعلموا أنكم من أهل الباطل الذين يتبعون أهواءهم وليسوا علىٰ شيء مما أمر الله به ورضيَه لعباده.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ ومن عقاب الله لهم أن جعل ما أنزل علىٰ النبي ﷺ من الهدىٰ والوحي سببًا في زيادة كفرهم وطغيانهم، فكثير من اليهود والنصارىٰ كلما سمعوا شيئًا من ديننا كذبوه وكفروا به، فازدادت الحجة عليهم، وغرِقوا في طغيانهم، أي: تجاوزوا الحد في ظلمهم لأنفسهم وتكذيبهم وعنادهم وعدائهم وجحودهم.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا تحزن يا محمد ﷺ علىٰ من رَبَط قلبه علىٰ الكفر حتىٰ صار له طبْعًا، وكأنَّ الرحمة التي في قلب نبينا ﷺ أثَّرت فيه وجعَلتْه يرجو إيمان اليهود والنصارىٰ، وأخَذَ هذا الأمر مكانه من تفكير نبينا ﷺ وما يدور في نفسه. قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ عن أهل الشرك من عباد الأصنام: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

أصناف مذكورة في هذه الآية الكريمة لا خوفٌ عليها مما ينتظر أهلها بعد الموت من النزل الكريم والفضل العظيم، فإنها آمنت بالله العظيم إلهًا واحدًا لا شريك له، وآمنت بالبعث وبما في اليوم الآخر من أهوال وجزاء وعقاب، وآمنت بكل ما أمر الله تعالىٰ أن نؤمن به، وداومت علىٰ العمل الصالح علىٰ أحسن حال.

وهذه الأصناف لا ينبغي لها أن تحزن علىٰ ما تركته وراءها من مال وعيال، فإن الله تعالىٰ حافظ عليها ما تركت وسيرضيها.

هذه الأصناف المذكورة هي :

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: وهم الذين أدركوا بعثة نبينا ﷺ فآمنوا به وبما جاء به من عند الله، ويلحق به كل من آمن بعدهم إلىٰ أن تقوم الساعة.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: أي: اليهود المتمسكون بالتوراة التي هي رسالة موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ممن لم يُحرفوا كتب أنبيائهم، وماتوا على دين التوحيد، والمقصود بهم من كانوا قبل بعثة محمد ﷺ لا بعدها، فإنه لا يقبل بعد بعثته أن يكفروا به.

﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾: جمع كلمة «صابئ» وهو لفظ يطلق على من خرج من دين إلى دين، وعلى من مال من عقيدة إلى عقيدة.

والصابئون قوم ليس لهم كتاب سماوي، ولكنهم كانوا أتباعًا لبعض الرسالات السماوية السابقة، ومن عادتهم أنهم لا يَثْبتون على دين، وأنهم ينتقلون من ملة إلى ملة، ولذلك بدلوا وحرفوا في عقيدتهم حتى صاروا من عبدة الكواكب، وتحولوا عن اتِّبَاع أصحاب الرسالات.

ومما يذكره أهل التفسير أنهم كانوا قبل تحولهم على دين سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

والآية جاءت فيمن بقي منهم على الإيمان والعمل الصالح، ومعلوم لديكم أن الثناء عليهم لا يعم من كفر منهم بنبي واحد من أنبياء الله أو بكتاب من كتبه.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ هم أتباع شريعة المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والمقصود هنا في الآية أولئك الذين تمسكوا بدينهم ولم يحرفوه، ولم ينسبوا الألوهية لعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولم يشركوا مع الله أحدًا.

وذلك كله قبل بعثة النبي ﷺ، أما بعدها فلا يطلق على من آمن منهم إلا وصف الإسلام، ولا يقبل من أحدهم شيء ما لم يؤمن بنبينا وقرآننا.

وهنا فائدة لغوية متعلقة بلفظة: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ في الآية الكريمة، والتي جاءت مرفوعة مع أنها معطوفة على منصوبات، فابتداء الآية بلفظة: ﴿إِنَّ﴾ يعني أن يكون ما بعدها منصوبًا وكذا كل ما عُطف عليه، ولكنها من دون غيرها جاءت مرفوعة، فهل هذا يُغمز به ويُلمز في كتاب الله كما فعل جمع من أعداء الدين من مللٍ وطوائفَ شتى؟

هم ظنوا أن القرآن فيه اضطرابٌ وأخطاءٌ لغويةٌ لا تستقيم مع لغة العرب، وقالوا: لماذا لم تأت هذه اللفظة منصوبة كما جاءت في آيتين من كتاب الله، وهما قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وقولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

والجواب أن كتاب الله تعالىٰ معجز في بيانه وبلاغته بإجماع أهل اللغة والملة، وهو حاكم على اللغة ومرجع لها وليس العكس، ولذلك لا تكاد تجد مُعلمًا للغة العرب إلا ويعيش مع آيات كتاب الله تعالىٰ فهمًا واستدلالًا، ويحْتجُّ بها على ما يُعلمه لغيره من فنون اللغة والأدب.

والغريب أن الذين أنزل عليهم القرآن والذين كتبوه وحفظوه ونقلوه هم العرب الخُلَّص، الذين رَسخوا في لغتهم وكانوا جبالًا في فنونها، وهؤلاء كلهم لم نعلم عن أحدهم أنه أبدىٰ اعتراضًا عليها أو حاول تغيير كتابتها، بل أين أهل الكفر عن هذا الخطأ النَّحْوي في القرآن، وهم الذين كانوا يتتبعون تفاصيل الوحي وما جاء به ليسقطوا هيبته من قلوب المؤمنين، ويحاربوا أهل التوحيد والعلم.

وقد ذكر أهل التفسير واللغة تخريجات متعددة في بيان سبب رفع هذه الكلمة بين منصوبات، وكلها صحيحة وعليها شواهد كثيرة من لغة العرب، أختار منها ما ذهب إليه جمهور المفسرين في ذلك، فقد قالوا: إن الآية فيها تقديم وتأخير، وحقيقة إعراب اللفظة هنا هي أنها مبتدأ مقدم، وخبرُه مُقدَّرٌ، فيكون تقدير الجملة: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وَالصَّابِئُونَ كَذَلِكَ.

وهذا الأسلوب في البيان ذكر أهل التفسير واللغة له شواهد متعددة من لغة العرب، وبينوا أن أهل الفصاحة يستخدمونه عندما يريدون تمييز أمر تعجبوا منه، والعجيب هنا كيف أن الله تعالىٰ يغفر لهؤلاء الصابئين إذا آمنوا وعملوا الصالحات، مع أنهم أبعدُ عن الحق من اليهود والنصارىٰ، ولذلك جاء مرفوعًا بين منصوبات.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

تخبر الآية الكريمة أن الله تعالىٰ أَخذ العهد الوثيق والشديد على بني إسرائيل بأن يعبدوه وحده، ويسمعوا ويطيعوا رسله، ويأخذوا أوامرَه ويبلغوها بقوة، كما قال ربنا: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٦٣].

ثم إن الله تعالىٰ أرسل إليهم رسولًا تلو رسول يدعونهم إلىٰ القيام بما عاهدوا الله عليه، يُرغِّبونهم تارة ويخوفونهم تارة أخرىٰ، ولكنهم كانوا أهل نقض للمواثيق، وإخلاف للعهود، وتكذيب للرسل، ويا ليتهم توقفوا عند ذلك بل عمدوا إلىٰ قتل عدد من رسل الله تعالىٰ، فازدادوا بذلك كُفرًا واستكبارًا.

تذكر الآية طريقة تفكيرهم وحكمهم على ما تدعوهم إليه الرسل، طريقة تفكيرهم تدور حول ما يوافق أهواءهم وما يخالفها، وهذا ينقلنا إلى واقعنا الذي يعيش فيه البعض عبوديتهم بحسب أهوائهم لا بحسب ما أراده الشرع منهم، فهم يَعْرضون أمْرَ الله على أمزجتهم؛ فإن وافقها أقبلوا على الطاعة، وجعلوا يثنون عليها، وعلى من ذكَّرهم بها ودعاهم إليها، وإن خالفت أهواءهم نفروا منها ومن الدعاة إليها وممن ذكَّرهم بها، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم.

المسلم الحق يدور هواه مع الشرع، ويستسلم لأمر مَنْ خَلَقَه ورزقه وأكرمه، وليست له الخِيرة فيما اختاره الله ورضيه وأمر به. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

ظنوا ظنًا قويًا أنه لن تصيبهم فتنة بتكذيبهم الأنبياء وقتلهم، أي: لن تنزل بهم عقوبة الله، ولن يعذبهم لأنهم شعب الله المختار، ولأنهم أبناء الله وأحباؤه، ولأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات، فعمُوا وصمُّوا، أي: أصابهم العمى عن طريق الحق والهدى، وعما علموه من حال الأمم من قبلهم، وصمَّتْ آذانهم ولم يسمعوا كلام أهل الدين والإيمان فيما أنذروا وذكَّروا، واتبعوا أهواءهم وساروا في طريق الفساد والإفساد لا يلتفتون لشيءٍ آخر.

ثم إن الله تاب عليهم وقبل أوْبتهم، تاب عليهم لما تابوا ورجعوا واستقاموا.

ولقائل أن يقول: وكيف تابوا ورجعوا وقد عموا وصموا؟ والجواب أنهم رجعوا إلى الله لما أرسل عليهم من يسومهم سوء العذاب، ولما سلط الله عليهم عدوًّا من أعدائهم، فإنهم لما ابتعدوا عن شرع الله تعالى وعموا وصموا سلط الله عليهم فرعون وقومه، فاستعملوهم في الإهانة والعذاب وحصل معهم ما حصل.

وهكذا الأمم، قد تغفل عما أوجبه الله عليها، وعما ينتظرها بعد زوالها، فتتجرأُ على حرمات الله، وتستخف بشرع الله ودينه حتى يذيقَها الله ألوانًا من العذاب في الدنيا لعلها ترجع قبل فوات الأوان.

ولكن هل ثبتوا على توبتهم بعد أن قبلها الله منهم؟ الجواب هنا في الآية بأن كثيرًا منهم رجع إلى ضلاله وإعراضِه وعَماه وصَمَمِه، وهذا يدل على أن بقيَّةً منهم بقيت على الخير والصلاح، ولعلها صدقت ربها برجوعها فصَدَقها بتثبيتها.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ الله مُطَّلِعٌ على الفريقين، من كان على العهد ومن أخلف به، وسيجزي كلًّا منهم بما قدم.

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾

بعد أَن بينت الآيات حال اليهود ونَقْضِهم الميثاق وتكذيبِهم الأنبياء وقتلِهم، بدأ السياق يذكر ما كان من انحراف النصارى عن التوحيد وفساد اعتقادهم، فالنصارى زعموا أن المسيح ابنَ مريم هو الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، والقرآن جاء بنص صريح في كفرهم ونقضهم للإسلام ودين الله تعالى.

عيسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نبي مرسل من عند الله تعالى، وهو عبدٌ له سبحانه، وقد اختصه ربنا بمعجزات ناسبت حاجات قومه ومن عاش في زمانهم يدعوهم، أكرمه الله تعالى بشفاءِ مَنْ مسح على بدنه من المرض، وكان يُحيي الموتى ويردُّ إلى الأعمى بصَرَه ويجعل الأكمه يتكلم بإذن الله تعالى، وكان قد تكلم في مهده وهو صغير: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٣٠].

عيسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خلقه الله تعالى بكلمة كُنْ من غير أب، كما خلق آدم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بكلمة كن من غير أمٍّ ولا أب، وأرسله الله إلى بني إسرائيل، وآتاه الإنجيل مُصدقًا برسالة موسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومُبشرًا بنبيِّ العالمين محمدٍ ﷺ.

ومن عجائب أهل الزمان أننا رأينا من أبناء المسلمين من يأبى إطلاق حكم الكفر على من زعم أن عيسى هو الله، وعلى من زعم أنه ثالث ثلاثة، وكتاب الله تعالى وكلام نبيه ﷺ يردان عليه ويُنْبئانه الخبر اليقين.

النصارىٰ ليسوا مسلمين، ولا يُقبل منهم دين غير الإسلام الذي يقوم علىٰ توحيد الله تعالىٰ وعلىٰ الإيمان برسله وكتبه جميعًا، ولا يسعهم بعد مبعث محمد ﷺ إلا ذلك. أخرج البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عَنْ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ».

أقول: النصارىٰ ليسوا مسلمين بل هم من أهل الكفر والشرك، ولا يلزم من إطلاق هذا الحكم إعلان الحرب عليهم، بل نتبع فيهم شرع الله الذي علمنا كيف نتعامل معهم، فثمة فريق منهم نجادله بالتي هي أحسن، ولا يحلُّ لنا أن نعتديَ علىٰ نفسه أو ماله، وهم الذميون والمعاهدون والمستأمنون، هؤلاء لهم من الحقوق في الشرع الكثير فتأملوا.

أما من قاتلنا أو اعتدىٰ علينا أو حارب ديننا ونشْرَهُ في الأرض فهؤلاء نجاهدهم، ونُعمل حكم الله تعالىٰ فيهم.

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ هذه حقيقة دعوة سيدنا المسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لقد دعاهم إلىٰ عبادة الرب الخالق الرازق المحيي المميت، خذوها من كلام ربكم وخالقكم وسيدكم ومولاكم، ولا تأخذوها عن عدو الله وعدوكم. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ (أي: لضرائر)، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ». ومعنىٰ الحديث أنه كما أنَّ أولاد الضرائر أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفة، فكذلك دين الأنبياء واحد وهو الدعوة إلىٰ توحيد الله، وشرائعهم فيها اختلاف.

حتىٰ إن الإنجيل الذي اعتراه ما اعتراه من التحريف ناطق بتوحيد الله تعالىٰ، مُثبت أن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بَشَرٌ، ومما جاء عن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قوله: «وهذه هي الحياة الأبدية: أَن يعرفوك؛ أنت الإله الحقيقي وحدك. ويسوع: المسيح الذي أرسلته». يوحنا: ١٧ – ٣٠، وقال: «وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله». يوحنا: ٨ – ٤٠، وقال: «للرب إلهك نسجد، وإياه وحده نعبد». متّىٰ: ٤ – ١٠، وقال: «ليس لأعملَ لمشيئتي بل مشيئةِ الذي أرسلني». يوحنا: ٦ – ٣٨.

فهذه النصوص وغيرها من كتبهم قام عليها رهبانهم، وأفسدوا معانيها ودلالاتها، فضلًا عما حذفوه منها.

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ يخبرهم عيسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ الله حرّم دخول الجنة على من أشرك في عبادته أحدًا من البشر أو من غير البشر، وأن مقرّ المشركين جميعًا في نار جهنم فلا تشركوا معه أحدًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٤٨].

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ الشرك ظلمٌ عظيمٌ، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]، ظلمٌ لأنه وَضْعٌ للعبودية في غير موضعها، ولأنه ينافي توحيد الله وإفراده بالرغبة والرهبة.

والمشرك ليس له دعوة مستجابةٌ في الآخرة، ولا نصير له ولا منقذ ولا معين، ولا يرضى الله تعالى منه فداءً، ولا يقبل شفاعة أحدٍ فيه ليدخلَ الجنةَ.

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾

التثليث من العقائد التي يصعب فهمها على النصارى أنفسِهم، فهم يزعمون أن الإله واحد ولكنه إله حل في ثلاثة أقانيم، لكل واحد منها صفة الكمال والقِدَم والقدرة، والآلهة الثلاثة هي: الآب وهو لفظ يطلقونه على الله، والابن وهو عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وروح القدس وهو منبثق من الآب عند بعض طوائفهم، ومنبثق من الآب والابن عند طوائف أخرى.

والمسيحيون يؤمنون أن روح القدس هي روح الله الذي يرشد البشر ويكون دليلًا لهم، فهم يقولون: هذه ثلاثة آلهة وكلها إله واحد، ولهم في ذلك فلسفات وتفسيرات لا أظن أن عقيدة العبودية للربِّ تكون على هذا النحو من التعقيد، بل لا يكون فيها هذا التناقض الذي يخالف العقل، ويزعم أن الواحد ثلاثة وأن الثلاثة واحد، ولعل هذا أكثرُ ما يُتعبُ النصارى في فهمهم لعقيدتهم، وقد يأتي بهم إلى دين التوحيد الخالص الموافق في عقيدته للعقل وكذا الفطرة.

من صفات العقيدة التي أرادها الله تعالى للبشرية جمعاء أن تكون موافقة للعقل والفطرة، وأن تكون طريَّةً سهلة قريبة من الفهم، وهذا ما جاءت به الأنبياء والرسل جميعًا في عقيدة التوحيد.

أما إذا كانت العقيدة عسيرة الفهم صعبة المَنال، فكيف نطلب من المخاطَبين في كلِّ زمان ومكان أن يعقِدوا قلوبهم علَيْها ويَثْبُتوا، وكيف نحفظهم بها من الضياع الذي تغرَق فيه طرائق تفكيرهم، ومن الانحراف إلى الإلحاد والعَداء للدين.

ولفظ «الروح القدس» موجود في ديننا في قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠]، وهو لفظ يشير إلى مَلَك من ملائكة الله العظام والمقربين، وهو سيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي هو رسول الله تعالى إلى أنبيائه.

وسيدنا جبريل مقدس، أي: مطهر عن العيوب والنقائص عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هذا هو الدين الصحيح الذي جاء به كل الأنبياء والرسل، دينٌ يدعو إلى أنه لا إله إلا الله، لا شريك له في مُلكه وخلقه وتدبيره، إلهٌ عظيم له صفات الكمال والجلال، له ما في السماوات والأرض، وقد خضعت لعظمته كلُّ الخلائق سبحانه.

قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣١].

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تهديد ووعيد بالعذاب الموجع في الآخرة لمنْ بقيَ على افترائه وكذبه ولم يصحِّح اعتقاده، ولم يَنْتَهِ عن نِسبة الولد والشريك للرب جَلَّ في علاه.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

يخاطب الله تعالى النصارى في هذه الآية ليخبرَهم أنَّ أبواب التوبة مفتوحة لهم، وأن التوبة التي يريدها الله تعالى قائمةٌ على أن يتخلصوا من عقائدهم التي صنعتها الأيدي الآثمة ويرجعوا إلى نداء الفطرة فيهم.

يا أيها النصارى، قولوا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوا أحد.قولوا ولا تترددوا: آمنا بالله وكتبه ورسله جميعًا لا نفرق بين أحد منهم، واعلموا أن الله غفور رحيم يقبل منكم أوبتكم ورجعتكم، ويكرمكم بما يكرم به عباده الصالحين الموحدين.

قال الله تعالى في حق من يعبدون الأصنام مبينًا: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وهذا من عظيم فضل الله على الناس.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رسولٌ أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل يدعوهم، كما أرسل رسلًا من قبله إلى بني إسرائيل وغيرهم، ومعجزاته علامة على أنه مرسل من عند الله، كما أجرى الله معجزات على يد إخوانه من الرسل. قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزُّخْرُف: ٥٩].

وأُمُّهُ مريم بنت عمران عليها السلام، ليست نبيّةً، ولا ندعوها من دون الله كما تفعل بعض طوائف النصارى، ولكنها بنت الرجل الصالح عمران.

وهي صِدِّيقة آمنت بخالقها إلهًا واحدًا، وصدقت برسله وكتبه واليوم الآخر، مؤمنةٌ مصطفاةٌ أكرمها الله تعالى في قرآننا بسورة كاملة على اسمها، وهي التي صَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ.

مريم بنت عمران هي التي تقبَّلَ الله دعاء أمِّها فيها لما أعاذتها من الشيطان الرجيم كما في سورة آل عمران، وقد أخرج البخاري ومسلم، أن الله تعالى استجاب لها دعوتها هذه؛ فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ:«مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ، غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا «ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾».

هي التي أنبتها الله نباتاً حسنًا فجمّلها وأكرمها بحسن الخُلق، ويسّر لها أسباب القبول، وَقَرَنَهَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ تَتَعَلَّمُ مِنْهُمُ الْخَيْرَ وَالْعِلْمَ وَالدِّينَ، كما دلَّ على ذلك قول الله:«وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا»، أي: كان هو القائم عليها رعايةً وتعليمًا وإنفاقًا.

هي التي جاء في حقها ما أخرجه أحمد في مسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَطَّ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ لِمَ خَطَطْتُ هَذِهِ الْخُطُوطَ؟ «قَالُوا: لَا. قَالَ:« أَفْضَلُ نِسَاءِ الْجَنَّةِ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ ابْنَةُ مُزَاحِمٍ».

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ عيسى ومريم عليهما السلام يَحْتَاجَانِ إِلَىٰ أكل الطعام، ويحتاجان إلى أنْ يُخْرجا الطعام كغيرهما من الناس، وهذه صفات تدل على أنهما بشر. سبحان الله كيف يحاورهم القرآن، وكيف يفتح لهم عقولهم لعلهم يرشدون.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ تأمل يا رسول الله ﷺ، وتأملوا أيها المسلمون كيف يؤفكون، أي: كيف ينصرفون عن الحق إلى مذاهب أهل الضلال، عجبًا لهم بعد كل هذا البيان والوضوح.

وصدودهم هذا شاهد على عدم قبولهم للحق وتكبرهم عليه، بخلاف من صَدَق منهم في بحثه عن الطريق المستقيم حتى وجده في الإسلام فأقبل عليه ورضيه دينًا، ولكنهم قليل.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾

قل يا محمد ﷺ لهؤلاء الذين عبدوا عيسى وزعموا أن الله ثالث ثلاثة: من القادر على نفعكم ودفع الضر عنكم؟ ومن الذي تعدُّونه لرغبتكم ورهبتكم؟ ومن الذي تنطقون باسمه إذا أُغلقت الأبواب؟ هل إلهٌ غير الله الذي في السماء يملك ذلك؟!

صحيح أن السياق في النصارى وما يعتقدونه، ولكنَّ عمومه يدخل فيه كلُّ من أعَدَّ لرغبته ورهبته غيرَ الله تعالى، وكل من اعتقد أن فلانًا يملك له ضرًا أو نفعًا، وكلُّ من قدم رضا الخلق على رضا الخالق جلَّ وعلَا.

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كيف تشركون مع من يسمع سِركم ونَجْواكم، ويعلم ما تُوسوس به أنفسكم، هل رأيتم بشرًا يفعل ذلك؟ ما لكم كيف تحكمون!

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

الغلوُّ في الدين هو مجاوزة الحد في الاعتقاد والطاعة، وهو علامة انحراف أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فمِنْ غلُوِّ اليهود في دينهم أنهم حرفوا التوراة وتمسكوا بها بعد مبعث عيسى ومحمد عليهما صلوات ربي وسلامه، وزعموا أنهم شعب الله المختار.

ومن غلو النصارىٰ أنهم جعلوا نبي الله عيسىٰ إلهًا، وجعلوا أمَّه ممن تُرجىٰ وتُدعىٰ من دون الله، وادَّعَوا تثليث الآلهة.

الآية هنا فيها أمر للنبي ﷺ ولكل من اقتدىٰ به، بأن يقولوا لِعُمُومِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ: إياكم أن تبقوا علىٰ ما أنتم عليه من الضلال، ومن الكفر بالله العظيم، ومن اتباع أهوائكم فيما تدينون وتعتقدون، لا تُحرفوا دين الله ولا تظلموا أنفسكم بما تنسبوه لله العظيم ولأنبيائه وكتبه.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾

القوم الذين ضلوا من قبل وأضلوا هم الأحبار والرهبان الذين شرعوا لهم من أنواع الاعتقاد والعبادة ما لم يأذن به الله، الذين سلكوا بأقوامهم وأممهم طريق الغواية والضلال ولم يكونوا مؤتَمنين علىٰ توراتهم ولا علىٰ إنجيلهم.

الآية ترشد عموم النصارىٰ واليهود بألا يتبعوهم في ذلك، فهؤلاء قد ضلوا من قبل، وكانوا سببًا في ضلال من حولهم، ثم لَمَّا جاءهم محمد ﷺ بالإسلام ليردّهم إلىٰ الحق والصواب، ويدعوهم إلىٰ جادة الطريق القويم الذي لا عوج فيه ولا غلو ولا تكلف كفروا وكذَّبوا وضلوا عن سواء السبيل، أي: عن الطريق المستقيم الذي فيه النجاة.

وقد حذَّر ﷺ أمَّته من الغلو لأنه لا يأتي بخير، كما دلَّ علىٰ ذلك ما أخرجه أحمد وابن ماجه وغيرهما، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ».

وأخرج البخاري عن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال عَلَى المِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ».

الحمد لله الذي أقام لهذا الدين علماءه الربانيين المؤتمنين عليه، وعلَّمنا ألا نأخذ عقيدتنا وعبادتنا إلا من الأدلة الصحيحة الصريحة، وأن نحذرَ أهل البدع وتلبيسهم في العقيدة والعبادة علىٰ الناس.

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

ما أصعبها من آية لمن تأملها، انظروا كيف تنالُ لعنة الله تعالىٰ أهلَ العصيان والاعتداء على حرمات الله، لعنة الله التي هي الطرد من رحمته وعَوْنه وهدايته وتوفيقه، وهي الإبعاد عن الحفظِ والنصرِ والنجاةِ.

بنو إسرائيل كان منهم الصالحون ومنهم الكافرون، ولعنة الله تعالىٰ أحاطت بمن كفر منهم كما ذكرت الآية، اللعنة هذه جاءت على لسان أنبياء الله بوحي من الله، جاءت على لسان نبي الله تعالىٰ الملك العادل القوي الأوَّاب داودَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وجاءت على لسان من أكرمه الله، وجعل خَلْقه معجزة بذاتها، وأجرىٰ على يديه المعجزات تلو المعجزات، نبي الله عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذان نبيان أُرسلا إلىٰ بني إسرائيل لهدايتهم وإرشادهم، وتصحيح عقائدهم وطرائق عبوديتهم، ولكن كثيرًا منهم عاندوا وامتنعوا فلعنهم أنبياؤهم.

أكثرُ بني إسرائيل كفروا وعصوا، وتركوا الواجبات، وأقبلوا على المحرمات، واعتدوا في عقائدهم فحرفوها، ونسبوا إلىٰ خالقهم ما لا يليق به زورًا وبهتانًا، وقتلوا عددًا من الأنبياء والصالحين، ووصل الحال بهم إلىٰ ما ستذكره الآية الآتية فانظروها:

﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

هذه مصيبة من مصائبهم نعوذ بالله منها، يعرفون المنكرات ويدركون أنها سبب سخط الله عليهم وغضبه ثم لا يحركُ ذلك فيهم شيئًا، يرون المنكرات تكثر فيهم وبينهم ولا ينهىٰ أحَدُهم عن المنكر، ولا يُذَكِّر غيرَه وإن رآه متلبسًا به.

ولعلكم لو تتبعتم ما يحصل في انتشار المحرمات لوجدتم أن المنكر ربما يبدؤُه واحد أو نفرٌ قليل، فَإِذَا لَمْ يَجِدُوا مَنْ ينكر عليهم تَزَايَدُوا، ثم جعلوا يُقدِّمون الحرام في قوالب جميلة وبراقة تعصف بقلوب الضعفاء والجهلة من الناس، فيقلدونهم في فعل هذا المنكر لعلهم يظفرون براحة القلب ولذة الحياة، ثم يمتد الأمر في ذلك حتىٰ تَعُمَّ المعصية، وتصبحَ جزءًا من حياة الناس.

هذه الحالة تنبئك عن قلوب صدأت وانغمست في الحرام، انغمست فيه هي ومَنْ حَولها من القرابة والصُّحبة، وأخطر ما فيها أنها لم تَعُدْ ترىٰ الحرام حرامًا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

هذه الحالة تدلك علىٰ أن المجاهرة بالذنوب أصبحت هي الأصل، وأن الحياء نُزع من هؤلاء، صحيح أن الواحد قد يُبتلىٰ بذنب ما في خلوته ولكنه ما يلبث أن يتوب ويرجعَ ويستغفر، أمَّا أَنْ يجاهر بالمعصية أمام الآخرين، ويراه الآخرون ولا تتحرك قلوبهم ولا ألسنتهم، ولا ينكرون بأيديهم إن كانوا أصحاب ولاية، فهذا هو الضلال العظيم والخسران المبين.

كل ذلك بسبب موت قلوب العلماء وطلبة العلم والعباد الذين لم يُنكروا، لم ينكروا ربما لهوىً في نفوسهم، أو لأنهم طلاب دنيا ويخشون علىٰ مناصبهم وكراسِيهم، أو لأن ذنوب الخلوات أضعفتهم عن ذلك، أو لأن تعظيم الرب وخشيته خفتت وأصبح أوهن من خيط العنكبوت.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ذمٌّ لهم علىٰ فعلهم المنكرات وسكوتهم عنها، وهذا الذم ليس لهم فقط حتىٰ لا نغتر نحن بأنفسنا، بل هو ذم لكل من سار علىٰ طريقتهم واقتفىٰ أثرهم.

أخرج أحمد والترمذي وأبو داود وغيرهم بسند ضعفه أكثر أهل العلم، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي المَعَاصِي فَنَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ الله قُلُوبَ بَعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ (أي: أصبحت متشابهة في الوقوع في الحرام والحرمان من الهداية) وَلَعَنَهُمْ ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾» قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّىٰ تَأْطُرُوهُمْ عَلَىٰ الحَقِّ أَطْرًا (يعني: لا تنجون من العذاب إلا بمنع العصاة والإنكار عليهم)».

وفي رواية أبي داود: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَىٰ الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ الله وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ الله قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ»، ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿فَٰسِقُونَ﴾، ثُمَّ قَالَ: «كَلَّا وَالله لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَىٰ يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ أَطْرًا (أي: تلزمونه بالحق حتىٰ يستقيم)، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ قَصْرًا».

انظروا عناية شريعتنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجعلوا هذه الشعيرة هواءَكم وماءَكم، لعل الله تعالىٰ يجري علىٰ أيدينا الخير، ويجعلنا من مفاتيحه في الأرض، ولعل الله يكرمُنا بأن نكون سببًا لنجاة أمتنا مما لحق بني إسرائيل من الذم واللعن.

في كتاب ربنا أمْرٌ لنا بأن يكون مِنَّا من يقومُ بهذه الفريضة التي هي طريق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. هذا ما يحفظ علىٰ الأمة دينها، ويبقيه مُتربِّعًا في القلوب بهيبته التي أرادها الله له.

بل كانت خيرية هذه الأمة علىٰ باقي الأمم في ذلك، كما دلَّ عليه قولُ الله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

النهيُ عن المنكر يحتاج إلىٰ علم وقوة، وهو علامة أهل الصلاح والغيرة علىٰ محارم الله، وفيه النجاة من لعن الله والطرد من رحمته، وفيه النجاة من سخط الله ونزول نقمته وعدم استجابة الدعاء.

أخرج أحمد وابن ماجه وأبو داود واللفظ له، عن جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله مِنْهُ بِعِقَابٍ».

وأخرج أحمد وغيره بسند حسن، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ ليُوشِكَنَّ الله أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ».

هل تعلمون أن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاء ذِكْر صفاته في التوراة والإنجيل مقرونًا بهذا الوصف، كما قال الله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وكذلك جاء ذكر أهل الإيمان الذين يوالي بعضهم بعضًا، كما في قوله سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

واعلموا أنَّ الأصلَ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنه واجبٌ على كل فرد من أفراد هذه الأمة بقدر استطاعته. أخرج مُسْلِم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَده، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ».

ولا يُقبل ممن كان قادرًا على تغيير المنكر أن يقعد عن ذلك، ولا يقومُ بواجبه، ففي الحديث الذي أخرجه أحمد وابن ماجه عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الله لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ الله عَبْدًا حُجَّتَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ، رَجَوْتُكَ وفَرِقْتُ مِنَ النَّاسِ (يعني: خاف منهم)».

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

تقرأ في هذه الآية وصْفًا لخَصْلةٍ سيئةٍ من خصال بني إسرائيل السيئة، وما أكثرها، وتقرأ فيها توبيخًا يحمل تحذيرًا لنا من أن نخطوَ خطاهم في ذلك.

هذا مظهر آخر من مظاهر عدوانهم وعصيانهم، تراهم يناصرون أهل الكفر ويحبُّونهم ويتوددون إليهم، والمقصود بأهل الكفر هنا هم المشركون الذين ليس لهم دين سماوي من عبدة الأصنام وغير ذلك، مع أن الأصل في بني إسرائيل ألا يفعلوا ذلك لأنهم أهل كتاب، ولأن من معالم الإيمان والاعتقاد الصحيح أن يكون الولاء والبراء في الله ولله.

هذا الأمر في بني إسرائيل كان فيهم قبل بعثة نبينا ﷺ، وقد ظهر جليًّا بعد بعثته ﷺ وبعد هجرته إلى المدينة أعزها الله، فتأليبهم الأحزاب وإعانتهم لهم وتحريضهم على المسلمين معلومة ومعهودة، وأفعالهم في خيبر ودوام تواصلهم مع كفار قريش ومدحهم لدينهم، وذمهم لدين محمد ﷺ يعلمه كل من عاش مع سيرة الحبيب ﷺ.

أخرج أهل التفسير وأهل السير بأسانيدهم، أن حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ وَكَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ (وهما من سادات يهود) جاءا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فسألتهم قريش عن دين محمد ﷺ، وهل هو خير أم دين قريش وخصالهم التي ما زالوا عليها، فردت اليهود عليهم بأنهم خير من محمد ﷺ وصحبه، وأنهم أهدى سبيلاً من المؤمنين، وأن ما هم عليه خير من دينه، ففرحت قريش بذلك.

وهذا الأمر فيهم ممتدٌّ إلى زماننا، فهم يعينون كل عدوٍّ للإسلام وأهله، ويُمِدونه بالمال والسلاح والمشورة، فضلًا عن عدوانهم بأنفسهم.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾

الذي قدمته أنفسهم لهم هو العمل السَّيِّء من موالاة أهل الشرك وعداوة أهل الإيمان، هذا الذي جعل سخط الله عليهم مُسْتَمِرًّا إِلَىٰ يَوْمِ مَعَادِهِمْ، وسيَخْلدون في النار ويقاسون عذابها الأليم.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

لفتة قرآنية لمعنىً من معاني الصدق في العبودية والإيمان، تنفعنا في مَعْرض رؤيتنا لكثير ممن يزعم الإيمان بلسانه، وتراه يرتمي في أحضان أهل الكفر والشرك يدافع عنهم، ويرفع رايتهم، ويحبهم، ويحكم بشرائعهم، وينصرهم على بلاد المسلمين.

إيمانهم لو كان صادقًا لما اتخذوا أهل الشرك أولياء، ولجعلوا ولاءهم في الله ورسوله ﷺ.

والنبي هنا هو محمد ﷺ الذي كان اليهود يعينون أهل مكة عليه كما تقدم.

القرآن يبين حقيقتهم، ويذكر أن كثيرًا منهم فاسقون، أي: خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ الله وَرَسُولِهِ، مخالفون لآيات وَحْيه وما نَزَلتْ به.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

خطاب حضاري يزيدنا نورًا وبصيرةً في حال الأمم والأديان من حولنا لئلا نضل، ولئلا يكونَ اتِّباعُ الهوى حاكمًا على الناس من حولنا.

أشد الناس والأمم عداوة لنا اليهود والمشركون، أما اليهود فكفرهم كفر عِنَاد وَجُحُود ومدافعة لِلْحَقِّ، يحتقرون غيرهم من الناس، ويسعون بالفساد في كل الأرض، وقد سَحَرُوا رَسُولَ الله ﷺ وهَمُّوا بقتله، ويكفي أنهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار، وأن الأمم الباقية إنما وجدت لخدمتهم ومصلحتهم، وقد أفاضت الآيات قبل ذلك في بيان خصالهم.

لا يزالُ اليهود على حالهم في عداوتهم للمؤمنين، وها هم يحتلون أرض مقدَّسةً عند أهل الإسلام ويزعمون أنها لهم، يقتلون أهلها أو يحبسونهم أو يُهجِّرونهم، بل يعتدون على دول الإسلام من حولهم ويتفننون في محاربتها والتضييق عليها في شؤون حياتها.

أما المشركون فهم الذين مكروا الليل والنهار ليقضوا على نور الهداية أول ما أضاء، عذبوا أهل الإسلام، وقتلوا منهم من قتلوا، وهموا كذلك بقتل نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وسارت جيوشهم نحو المدينة لاستئصال شأفة هذا الدين، ولا زالت دولهم حتى زماننا تحارب الإسلام وأهله، وتضيق عليهم ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾

غالب الذين يدخلون في الإسلام هم من النصارى، وقد وصف القرآن أَتْباع سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، وقد قَدِمَت وفود عدة من نصارى نجران والحبشة وغيرهم إلى نبينا ﷺ، فلما سمعوه آمنوا وصدقوا كما أسلم النجاشي ملك الحبشة من قبلهم، وهذا ما لا نجده في غيرهم من عبدة الأصنام ومن اليهود وغيرهم من ملل الكفر، فهؤلاء لا يسلمُ منهم إلا أفرادٌ معدودون.

هذا يدلك على أن أقرب الأمم المخالفة للإسلام من أهل الكفر هم النصارى، وسياق الآية امتدحهم في قربهم من المؤمنين، ثم أثنى على من آمن منهم برسالة نبينا ﷺ في تتمة الآيات.

وقد قلت: من أهل الكفر لئلا يَظُن ظانٌّ أن القرآن يمدحهم على كفرهم، فإن القرآن الكريم الذي قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، هو ذاته القرآن الذي قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾. قالها مرتين في الآيتين ١٧، ٧٢ من هذا السورة، وهو ذاته القرآن الذي قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة المائدة: ٥١].

والسياق القرآني يستطردُ في بيان حال من مدحهم من النصارى، قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ القسيسون هم رؤساء النصارى في العلم والعمل، والرهبان هم الذين ينقطعون عن الدنيا وملذاتها إلى العبادة في صوامِعِهم أو في كنائسهم.

النصارى منهم عبادٌ وأهلُ خشية وانقطاعٍ إلى الله تعالى، ومنهم علماءٌ يحرصون على الحق ويتواضعون له، ويسارعون إلى اتباعه حالَ معرفته، وهم لا يستكبرون عن الخضوع والإذعان للحق كما يستكبر اليهود وغيرهم من المِلل والنِّحَلِ.

ولكن هل امتدح القرآن جميع الرهبان والقسيسين منهم؟ الجواب: لا، ولكنه امتدح الذين يؤمنون بنبينا وتفيض أعينهم من الدمع بمعرفتهم الحق واتباعه كما ستذكر الآيات.

وقد جاء في نصوص أخرىٰ ذمٌّ لطائفة منهم حملوا الكفر وأصروا عليه، وأرادوا أن يطفؤوا نور التوحيد في الأرض، وكذلك اتخذوا دينهم طريقًا لتحصيل منافعهم التي تخصهم في دنياهم. قال الله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال سبحانه عنهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة: ٣٤].

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾

هذا سبب قربهم من المؤمنين ومودتهم لهم، فإن كثيرًا منهم سارعوا إلىٰ الإيمان الحق، وتأثَّروا وفاضت أعينُهم لما سمعوا آيات القرآن تُتلىٰ عليهم، وفهموها وعرفوا ما تريدُه منهم، عرفوا أنه الحق الذي صدقوا ربهم في معرفته وتحْصيله.

وما أجمل دعاءهم هنا لما طلبوا من الله أن يكتبهم من الشاهدين علىٰ صحة مبعث هذا النبي ﷺ، وصحة عقيدته والقرآن الذي أُنزل عليه، اكتبنا مع هذه الأمة التي تشهد علىٰ جميع الأمم من قبلها، دعاء تلمس فيه إخلاصهم في توبتهم من الكفر، وتلمس فرحتهم بذلك.

ولقائل أن يقول: وكيف عرفوا أنه الحق، والجواب أنه نداء الفطرة من جهة، ونداء العقل من جهة أخرىٰ، بل هو نداء نصوصٍ علموها في إنجيلهم تبشر بمبعث نبينا ﷺ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ الْمَوْعُود بِهِ.

جاء فِي إِنْجِيلِ يُوحَنَّا إصحاح ١٥ مِنْ قَوْلِ عِيسَىٰ: «وَمَتَىٰ جَاءَ الْمُعَزِّىٰ (وهو نبينا ﷺ) رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي مِنْ عِنْدِ الْأَبِ يَنْبَثِقُ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِي وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا لِأَنَّكُمْ مَعِي مِنَ الِابْتِدَاءِ».

وفِي إِنْجِيلِ مَتَّىٰ إصحاح ٢٤ مِنْ قَوْلِ عِيسَىٰ: «وَيَقُومُ أَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ كَثِيرُونَ وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ وَلَكِنَّ الَّذِي يَصْبِرُ إِلَى الْمُنْتَهَىٰ فَهَذَا يَخْلُصُ وَيَفُوزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ هَذِهِ شَهَادَةٌ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ».

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

هَذَا الصِّنْفُ مِنَ النَّصَارَىٰ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٩].

يقولون في أنفسهم وعندما يعارضهم أهلُ مِلَّتهم على إسلامهم: قد ثبتَ لنا أنَّ هذا النبيَّ مُرسَلٌ من عند الله، وأن القرآن كلام الله وشريعته التي ارتضاها لعباده، فلا طريق للنجاة وصحبة الأخيار في الجنات إلا أن نؤمن بالله العظيم إلهًا واحدًا، ولنْ يصرفنا عن طريق الهداية شيءٌ.

﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

أَيْ: فَجَازَاهُمْ عَلَى إِيمَانِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ وَاعْتِرَافِهِمْ بِالْحَقِّ جناتٍ تجري تحتَ قصورها وبنائها الأنهارُ، سَاكِنِينَ فِيهَا أَبَدًا، لَا يُحَوَّلُونَ وَلَا يَزُولُونَ.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ كما أحسنوا في اتِّبَاعِهِمُ الْحَقَّ وَانْقِيَادِهِمْ لَهُ، فإن الله تعالى سيجزيهم أحسنَ الجزاء، فالزموا يا من تستمعون الآيات طريق الإحسان في دينكم، فإن الجزاء عظيم.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾

يا خسارة من ظلم نفسه، وأوردها المهالك بإصراره على الكفر والتكذيب بآيات الله بعد أن جاءته وعرفها، وبعد أن قامت عليها دلائل الإعجاز التي لا يقف أمامها منصفٌ للحق ومتجردٌ له.

الأشقياء هم أهل النار الذين يدخلونها ويلازمونها ولا يتحولون عنها. نسأل الله تعالى العافية والسلامة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ ﴾

نداء من الله تعالىٰ إلىٰ كل من خالطت بشاشة الإيمان قلبه: لا تكونوا كالنصارىٰ في تحريم طيباتٍ أحَلَّها الله لكم، فإنهم ابتدعوا رهبانية ما كتبها الله عليهم، وهذه الرهبانية جعلتهم لا يتزوجون تقربًا إلىٰ الله تعالىٰ، بل حَرَّموا علىٰ أنفسهم ألوانًا من الأطعمة، وابتدعوا في طريقة صيامهم وصلاتهم وغير ذلك.

يا أهل الإيمان: لا تكونوا مثلهم، واحرصوا علىٰ اتباع نصوص الوحي في الكتاب والسنة ترشُدوا، ولا تظنوا أن التضييق علىٰ النفس كثيرًا في باب المباحات والميلَ إلىٰ تحريمها هو الدين.

واعلموا أن ما أباحه الله لكم إنما أباحة لتسعدوا، وتُوسِّعوا علىٰ أنفسكم وأهليكم، وتنالوا لذة ذلك. قال الله تعالىٰ في حق أهل الجاهلية: ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وقد نزلت آيات تخاطب نبينا ﷺ لما حرم العسل علىٰ نفسه، جاء فيها قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [التحريم: ١-٢]، أي: فرض لكم الكفارة في اليمين لترجعوا إلىٰ ما أباحه الله لكم.

وأخرج البخاري عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «رَدَّ رَسُولُ الله ﷺ عَلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ (الانقطاع عن النساء وترك الزواج)، وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لاَخْتَصَيْنَا (لقطعنا الخصيتين حتىٰ لا نشتهي النساء)».

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَيْسَ مَعَنَا نِسَاءٌ، فَقُلْنَا: أَلاَ نَخْتَصِي؟ فَنَهَانَا عَنْ ذَلِكَ» الحديث.

وعند أحمد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ شَابٌّ إِلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: أَتَأْذَنُ لِي فِي الْخِصَاءِ؟ فَقَالَ: « صُمْ، وَسَلِ الله مِنْ فَضْلِهِ».

ومن جمال ديننا أنه جاء بأوامر ونواهٍ فيها كُلْفة ومشقَّة، ثم جاء برخص شرعية ترفع الحرج عن الملكف إذا كانت المشقة مما لا يُطاق، كل ذلك لئلا يشق الناس علىٰ أنفسهم، ولئلا يظنوا أنه كلما شق الواحد علىٰ نفسه أكثر كلما كان الأجر أكبر.

هذه الطريقة في التفكير ليست صحيحة، والصواب أن الملكف كُلما اتَّبعَ ما في الكتاب والسنة وحرص على هدي محمد ﷺ وصحبه، كلما كان ذلك أحبَّ إلى الله وأرفعَ في الدرجات.

أخرج البخاري ومسلم واللفظ للبخاري، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا (ظنوا أن عبادته قليلة وليست كثيرة)، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

وقد جاء في كتاب الله تعالى آيةٌ أنكرت على من حرَّم على الناس الطيبات من الرزق، وذكرت أن الله تعالى جعل هذه الطيبات لجميع خلقه في الدنيا، وجعلها خالصة يوم القيامة للذين آمنوا فقط. قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٣٢].

وانتبهوا هنا على أن الآية تتكلم عمن يُحرِّمون على أنفسهم أو على غيرهم ما أحل الله، ولا يدخل في ذلك من أراد تربية نفسه أو بعض من يعول على ترك التوسع في بعض المباحات، يُربيهم على ذلك ليتعلموا الصبر على الحرمان ويألَفُوه، يربيهم بقدر الحاجة وفي أوقات دون أوقات.

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: ولا تعتدوا على أحكام هذه الشريعة وتنسبوا إليها ما ليس فيها فتُلْحقوا الضرر بأنفسكم وغيركم من حيث لا تشعرون، لا تفعلوا ذلك اعتقادًا ولا قولًا ولا فِعلًا.

وكذلك لا تُفتوا غيركم بما لا تعلمون ولا تضبِطون، ولا تُحرموا على أنفسكم مباحًا بنذر أو يمين؛ كل هذا مما لا يحب الله أهله وأصحابه، ولا يرضى عنهم ولا عن فعالهم.

﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

تنعَّموا بما أباحه الله لكم من خيرات البحار والأرض، ما دام أن الشرع أحَلَّه لكم واكتسبتموه بطريق مشروع غير محرم.

والتنعم بها لا يقتصر على الأكل وإن جاءت الآية به، ولكنه يكون بالانتفاع بجميع أوجه الانتفاع مما أذن الله تعالى به، ومجيء الآية بلفظة الأكل إنما هو إشارة إلى أكثر ما يفعله الناس فإنهم يكثرون من تحريم الأكل على أنفسهم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ هذا ما أراده الشرع منا فيما أحلَّ وحرَّم، أراد منا أن نلزم التقوى التي تقوم على تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمورات واجتناب المنهيات، نراقبه في ذلك ونعلم أنه محيط بنا وبأقوالنا وأعمالنا، وأن المُنتهى إليه سبحانه.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩﴾

الْأَيْمَانُ جَمْعُ يَمِينٍ، وَالْيَمِينُ هو الْقَسَمُ وَالْحَلِفُ بِذِكْر اسم من أَسْمِاء الله تَعَالَى أَوْ صفة من صفاته على فعل شيء أو تركه، أو القسم والحلف على خبر ما.

والحلف بغير أسماء الله تعالى وصفاته منهيٌّ عنه، فقد أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ، وَعُمَرُ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: «أَلَا إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ».

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ الله، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ».

والأيمان عند أهل العلم ثلاثة: إما أن تكون اليمين يمين لغو: وهي التي يَجري فيها الحَلِف على اللسان بدون قصد ولا نية، كما بينت ذلك أُمُّنا عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيما أخرجه البخاري عَنْها أنها قالت: «أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ (تقصد التي في سورة البقرة) فِي قَوْلِ الرَّجُلِ: لاَ وَاللَّهِ وَبَلَى وَاللَّهِ». المقصود أنه يقول ذلك بدون قصد.

واليمين اللغو كما نصت الآية لا كفارة فيها، ولا مؤاخذة عليها، ولا يلزم الوفاء بها لنص الآية الكريمة هنا. أخرجَ البُخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله». فهذا التَّوجيهُ النَّبويُّ جاءَ لقومٍ أَسلموا حديثًا، وكانتْ أَلسنتُهم مُعتادةً على الحَلِفِ بالأصنام، فأُمِروا إنْ سَبقَ لسانُهم وأقسمَ باللات والعُزى بدونِ قصْدٍ، أن يتلفَّظُوا بكلمةِ التوحيدِ، مُراعاةً لِحَلِفِهم الذي له حكمُ اللَّغوِ.

وألحق بعض العلماء باليمين اللغو ما لو حلف الرجل على الشيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن، كما لو حلف خطأً على وجود أحد في البيت ظانًّا ذلك وتبين أنه لم يكن فيه، فلم يُوجِبوا الكفارة في هذه الحال، وخالفهم في وجوب الكفارة آخرون.

واليمين الثانية هي اليمين المنعقدة، وهي التي يَجري فيها الحلف بقصد ونية، يحلف صاحبها على فعل شيء في المستقبل أو على تركه كأن يقول: والله لا أزور فلانا، والله لأعطين المال غدًا لفلان.

هذه اليمين هي الذي جاءت الآية هنا ببيان كفارتها، والكفارة تكون إذا حنث الحالف في يمينه، أي: خالف ما حلف عليه ولم يلتزم به، إما لأنه لم يستطع ذلك، أو لأنه رأى أن يمينه لا يأت بخير فندم وأراد مخالفة ما حلف عليه. أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ».

فمن حلف بالله لا يزور رحمه، أو لا يتصدق على فقير أو غير ذلك، فليكفر عن يمينه وليُقْبِل على صلة الرحم والصدقة.

واليمين الثالثة هي الغموس، وهي التي يحلف فيها صاحبها ويكذب؛ يحلف على شيء حصل في الماضي أو يخبر عن شيء في الحاضر أو في المستقبل، نفيًا أو إثباتًا، ويكون في حلفه هذا كاذبًا قاصدًا لذلك، بخلاف ما لو أخطأ فيما أخبر عنه فإنه يكون لغوًا كما تقدم.

واليمين الغموس من الكبائر، وجمهور الفقهاء على أنه لا كفارة فيها، وليس لها إلا التوبة الصادقة على تفصيل فيما يكون غموسًا عندهم.

وذلك خلافًا للشافعية الذين جعلوا فيها الكفارة كما في اليمين المنعقدة بل هي عندهم يمين منعقدة. أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «جاءَ أَعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ما الكبائر؟ قال: الإشراكُ باللهِ. قال: ثم ماذا؟ قال: عُقوقُ الوالدين. قال: ثم ماذا؟ قال: اليمين الغَمُوسُ. قلتُ: وما اليمينُ الغموسُ؟ قال: الَّتِي يُقْتَطَعُ بِهَا مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ».

وأخرج مسلم عن أبي أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ، قال: «مَنِ اقْتَطَعَ حَق امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ الله لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّة. فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا؟ قال: وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا من أرَاك».

وأخرج أحمد والترمذي عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أُنَيْسٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ، وَمَا حَلَفَ حَالِفٌ بِاللَّهِ يَمِينَ صَبْرٍ (أي: يحبس نفسه على اليمين الكاذبة ويتجرأ عليها ولا يبالي في كذبه فيها)، فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ (يعني زاد فيها شيئا كاذبًا وإن كان قليلًا) إِلَّا جُعِلَتْ نُكْتَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ (يعني: سيبقى أثرها في قلبه إلى يوم القيامة ولن تُكفر قبل ذلك)».

وإتماما لفقه اليمين الغموس، أقول: اعلموا أن الشرع أذن في حالات بخصوصها بالحلف كاذبًا، وذلك في حال الحاجة أو الضرورة التي بيَّنها الشرع وقدَّرها، كما هو الحال في الكذب للإصلاح بين المتخاصمين، فقد أخرج البخاري ومسلم عن أُمِّ كُلْثُوم بِنْتِ عُقْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا».

وكما هو الحال في الكذب على الزوجة للتحبُّبِ والتودُّدِ، فقد دل على ذلك الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي بسند مختلف فيه عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يَحِلُّ الكَذِبُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: يُحَدِّثُ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ لِيُرْضِيَهَا، وَالكَذِبُ فِي الحَرْبِ، وَالكَذِبُ لِيُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ».

وليس المراد بالكذب على الزوجة ما يؤدي إلى أكل الحقوق ، أو الفرار من الواجبات ونحو ذلك، فهذا محرم ولا يَعْنيه الحديث.

بل قد يكون الكذب واجبًا كما لو سألك عدوك أو سألك ظالم عن أخيك المسلم ليقتله، فلا يحل لك أن تخبره بمكانه، ووجب عليك الحلف كاذبًا إذا لزم، وقد دل على ذلك ما أخرجه أبو داود عن سُوَيْدِ بْنِ حَنْظَلَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجْنَا نُرِيدُ رَسُولَ الله ﷺ، وَمَعَنَا وَائِلُ بْنُ حُجْرٍ، فَأَخَذَهُ عَدُوٌّ لَهُ فَتَحَرَّجَ الْقَوْمُ أَنْ يَحْلِفُوا، وَحَلَفْتُ أَنَّهُ أَخِي فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّ الْقَوْمَ تَحَرَّجُوا أَنْ يَحْلِفُوا، وَحَلَفْتُ أَنَّهُ أَخِي، قَالَ: «صَدَقْتَ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ».

﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ﴾ هذه كفارة اليمين المنعقدة التي حلف صاحبها على فعل أمر أو اجتنابه، ثم خالف ما أقسم عليه.

كفارة ذلك أن يختار واحدًا من ثلاثة: الإطعام أو الكسوة أو العتق، فإن لم يقدر على أحدها فيصوم ثلاثة أيام، فالصيام لا يجزئ ولا يصح إلا إذا لم يقدر الحَانِث في يمينه على فعل واحد من الثلاثة المذكورة، فانتبهوا.

وإليكم بيان خصال هذه الكفارة وشيئًا من فقهها، فإنها تكون كذلك في بعض أنواع النذور عند الفقهاء والتي يحملونها محمل اليمين، وكذلك الأمر في بعض صيغ الطلاق:

١- إطعام عشرة مساكين لا يجدون ما يكفيهم، وإطعامهم يكون مرة واحدةً لكل واحد منهم، ويكون من الطعام الغالب الذي يأكله أهل الحانث في بيتهم، لا مِن أَرْدَئِه ولامن أَجودِه.

ومقدار ما يعطيه الحانث في يمينه هو نصف صاع لكل مسكين من غالب طعام البلد الذي هو فيه كالأرز والتمر ونحو ذلك، ومقداره كيلو ونصف تقريبًا، وإذا كان يعتاد أكل الأرز مثلاً ومعه إدام وهو ما يسمى في كثير من البلدان (الطبيخ)، فينبغي أن يعطيهم مع الأرز إداماً أو لحماً أو دجاجًا، ولو جمع عشرة مساكين وغدَّاهم أو عشَّاهم كفى، على تفصيل في ذلك عند أهل العلم.

ولا بد من عشرة مساكين في حال الإطعام هنا، وأجاز الحنفية الإطعام لنفس المسكين ولكن في عشرة أيام وليس في يوم واحد، يعني: يطعمه كل يوم مرة، وهذا خلافا للجمهور الذين يشترطون عشرة مساكين مختلفين.

وهؤلاء العشرة قد يكونون في أسرة واحدة مكونة من أب وأم ومن يعولون من الأولاد وغيرهم، فهنا يجوز تسليم الطعام لرب الأسرة ليطعمَهم جميعا.

٢- أما الكسوة فهي اللباس، ولا تجزئ في أقل من عشرة مساكين ومحتاجين، وتكون مما تعارفه الناس فيما بينهم، فبعض الناس كسوته العباءة في بلده، وبعضهم الثوب، وبعضهم غير ذلك، والرجل له كسوته، والمرأة لها كسوتها.

ومن أهل العلم من جعل القدر المجزئ في ذلك هو ما تصح الصلاة فيه ويستر العورة، ومنهم من ضبطه بما يستر عامَّة البدن، ومنهم من ضبطه باللباس الذي يُطلَق عليه أنه كسوةٌ عرفًا.

٣- أو تحرير رقبة، وتحريرها يكون بعتقها وتخليصها من العبودية وجعلها حرة لوجه الله، سواء أكانت هذه الرقبة عبدًا أم أمةً.

وهنا موطن من المواطن التي أراد الشرع فيها أن يُظهر حرصه على تحرير العبيد من الرق، كما أظهره في كفارة القتل الخطأ، والظِّهار، والجماع في نهار رمضان، وكما جعله مَصْرِفًا من مصارف الزكاة، وكما شرع له أحكامًا كثيرةً تحفظ على العبيد والإماء إنسانيتهم ومكانتهم، وهذا لا يخفى على من عرف الشرع وتأمَّله.

وهذه الخصال الثلاث يختار الحانث في يمينه أيَّ واحدة منها ويفعلها، فإن فعل أي واحدة أجزأ عنه وذهب الإثم.

ولا يجوز عند جمهور الفقهاء إخراج النقود بدلًا من هذه الخصال، وذلك خلافًا للحنفية الذين يجيزون ذلك في الكفارات، وفي الزكاة كما هو معلوم لديكم.

٤- صيام ثلاثة أيام، وهذه لا تكون إلا إذا عجز الحانث في يمينه عن فعل واحدة من الخصال الثلاث المذكورة كما تقدم، وهل يشترط صيامُها متتابعة؟ عند الحنفية والحنابلة نعم، بخلاف المالكية والشافعية الذين لا يشترطون التتابع في المعتمد عندهم.

ولا يجوز عند الحنفية تعجيل الكفارة قبل الحِنْث في اليمين، أي: قبل فعل خلاف ما أقسم عليه، وذلك بخلاف ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من جواز تعجيل الكفارة أو تأخيرها عن الفعل، وإن كان تأخير الكفارة أفضلَ عند المالكية والشافعية.

وقد استثنى الشافعية من ذلك الصيام فإنه لا يجوز تقديمه على الحنث.

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ هذا هو حكم كفارة اليمين إذا حنثتم في يمينكم وخالفتموه، واحفظوا أيمانكم عن الحلف بها كذبًا، واحفظوها عن الإكثار من استعمالها، واحفظوها عن مخالفتها إلا لخير، فإن خالفتموها فبادِروا بإخراج كفارتها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ الحمد لله الذي بين لنا وأكرمنا بأحكام شريعته التي تحفظ علينا ديننا وأعمالنا. والمطلوب: اشكروا الله تعالى على ذلك قولًا، وكذا اشكروه عملًا باتباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾

كما أن السياق القرآني أباح الطيبات من الطعام والشراب، فإنه حرَّمَ الشراب المُسكر الذي يعود على النفس والأهل والمجتمع بالخَيْبة والخسران، وحرم أعمال الشياطين وطرائقَهم في إضلال الخلق عن مصالحهم وحاجاتهم.

هنا نداء من الله تعالى لأهل الإيمان الذين ربطوا قلوبهم على حب الله تعالى وسَعَوا لرضوانه، نداء يأمرهم فيه ربهم باجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، ثم أخبرهم أن اجتنابها هو طريق الفلاح والنجاح لمن طلبه بصدق، يكفيه أنه أغلق على الشيطان أبواب إفساده، وأحسن مدافعة عدو الإنسان الأول والأشد.

وفي معاني ما حرمت الآية هنا وفِقْهِ ذلك، أقول مستعينًا بالله:

١- أما الخمر فهو كلُّ ما خامرَ العقلَ فسَتَرَهُ وحَجَبَه عن التّفكيرِ، وهو يَصْدُقُ على كلِّ مُسْكرٍ مصنوعٍ من عصيرِ العِنَبِ أو التَّمْرِ أو الشّعيرِ أو غيرِ ذلك؛ لقولِه ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْر، وَكلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ». أخرجَه مسلمٌ.

وفي شُرْبِ الخمرِ من المَضَارِّ على البَدَنِ والعقلِ والمجتمعِ ما تعلمونَه، ومن ذلك إضعاف عمل عدد من أجزاء البدن، وإفساد التصور والتفكير والإدراك، وإضعاف العقل حتى إن صاحبه قد يقتل أو يزني أو يعتدي على أقرب الناس إليه إذا سكر، فضلًا عن استنزافه للمال وللثروة بلا فائدة، وقد يبعث في النفس دِياثةً وانعدامًا للغَيْرة، وقد يحصل بسببها طلاق وضياع للأبناء وتعريضهم لما لا تُحمد عقباه، وغير ذلك من المصائب.

ولذلك كان شُرْبُهَا من الكبائرِ، وتُقَامُ عقوبَةُ الجَلْدِ على من شَرِبَهَا في الدّنيا: ثمانينَ عند جمهور الفقهاء، وأربعين عند الشافعية، وما زاد إلى الثمانين يكون بحسب اجتهاد الإمام.

وقد جاءتْ نُصوصٌ متعدّدةٌ في تحريمِهَا وتحريمِ الإعانةِ على شُرْبِهَا، من ذلك: ما أخرجَه أحمدُ وغيرُ واحدٍ من أصحابِ السُّنَنِ، واللّفظُ لأحمدَ وأبي داودَ، عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لَعَنَ الله الْخَمْرَ، وَشَارِبَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَآكِلَ ثَمَنِها».

وأخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ».

وأخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ».

وأخرجَ أحمدُ وابنُ ماجه والترمذيُّ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ وَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ الله عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ، فَشَرِبَ، فَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ، تَابَ الله عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ، فَشَرِبَ، فَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ الله عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ، كَانَ حَقًّا عَلَى الله، أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ رَدَغَةِ الْخَبَالِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَا رَدَغَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: «عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ».

والمقصود من عدم قبول صلاته: أنّه لا يُؤْجَرُ عليها ولا يأخذ حَسَناتٍ، مع أنّه يجبُ عليه أنْ يصلّيها في الأربعينَ يوماً لإسقاطِ الفَرْضِ من ذِمَّتِهِ.

أخرج أحمد وغيره بسند حسنه بعض أهل العلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حُرِّمَتِ الْخَمْرُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، وَيَأْكُلُونَ الْمَيْسِرَ، فَسَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ عَنْهُمَا، فَأَنْزَلَ الله عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ النَّاسُ: مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، إِنَّمَا قَالَ: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ. حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ، صَلَّى رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، أَمَّ أَصْحَابَهُ فِي الْمَغْرِبِ، خَلَطَ فِي قِرَاءَتِهِ، فَأَنْزَلَ الله فِيهَا آيَةً أَغْلَظَ مِنْهَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، وَكَانَ النَّاسُ يَشْرَبُونَ حَتَّى يَأْتِيَ أَحَدُهُمُ الصَّلَاةَ وَهُوَ مُفِيقٌ. ثُمَّ أُنْزِلَتْ آيَةٌ أَغْلَظُ مِنْ ذَلِكَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، فَقَالُوا: انْتَهَيْنَا رَبَّنَا.

وأخرج أحمد وغيره من أصحاب السنن عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩] ، قَالَ: فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي

الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي النِّسَاءِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء: ٤٣] فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ الله ﷺ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ يُنَادِي: «أَلَا لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سَكْرَانُ»، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا.

٢- وأمّا المَيْسِرُ فهو القِمَارُ، وهو عَقْدٌ يقومُ على المُرَاهَنَةِ والشّرطِ من الطَّرَفَيْنِ، ومن صُوَرِه ما يُعْرَفُ الآنَ بأَوراقِ اليانصيبِ، وكذلك ما يُسَمّىٰ بالنرد، وهي ما يُعرف عند كثير من الناس بطاولةِ الزّهر إذا كانت عن مالٍ وشَرْطٍ.

والميسر فيه أكل لأموال الناس بالباطل، وفيه غرر وجهالة في العاقبة، يعني: لا ندري يكون أو لا يكون، وفيه من نشر الضغائن والأحقاد بين أفراد المجتمع ما فيه كما ستبين ذلك الآية التالية.

وقد نص غير واحد من أهل العلم على أن الميسر من الكبائر، وأن كَسْبَ المُقَامر كَسْبٌ خَبِيثٌ وَهُوَ مِنَ الْمَال الْحَرَامِ، وَيجب عليه رده وإرجاعه إِلَىٰ أَصحابه إِنْ عُلِمُوا، وَإِلاَّ تصدق به على الفقراء، ولا أجر له على ذلك.

أخرج مسلم عَنْ بُرَيْدَةَ بن الحصيب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لَعِبَ بالنّردشيرِ، فكأنّما صَبَغَ يَدَه في لَحْمِ خِنْزيرٍ ودَمِهِ». والنَّرْدُ هي لَفْظَةٌ عَجَمِيَّةٌ مُعَرَّبَةٌ، ولَفْظَةُ «شير» معناها حُلْو.

والنَّرْدُ الذي يكون في طاولة الزَّهرِ إنْ كان عن مالٍ فهو من ميسر القِمَارِ، وإنْ لم يَكُنْ عن مالٍ فهو من ميسر اللهو وهو حرامٌ كذا عندَ جمهورِ الفُقَهاءِ لِعُمومِ النُّصوصِ.

٣- وأما الأنصاب فهي حجارة منصوبة تذْبَحَ عَلَيْهَا الْقَرَابِينُ الَّتِي يُتَقَرَّبُ بِهَا لِلْآلِهَةِ وَلِلْجِنِّ، كَانَ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهِم يَذْبَحُونَ عِنْدَهَا، وَيُشَرِّحُونَ اللَّحْمَ وَيَضَعُونَهُ عَلَىٰ النُّصُبِ، يعني: يُقدسون الأحجار، فَنَهَىٰ الله الْمُؤْمِنِينَ عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ هَذِهِ الذَّبَائِحِ الَّتِي فُعِلَتْ عِنْدَهَا حتىٰ لو ذكر اسم الله عندها، فإنها لا تخلو أن تكون شعارًا من شعارات أهل الشرك.

٤- وأما الأزلام فوَاحِدُهَا زُلَم، وَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهِم يستقسمون بها، يعني يطلبون معرفة ما قُسِم لهم وما قُدِّر من خير أو شر بالأزلام، وكانوا يُعلقون أمرهم وقراراتهم بها.

وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قِدَاحٍ ثَلَاثَةٍ، يعني: أَعْوَاد نحتوها من خشب، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ سَفَرًا أَوْ زواجًا أو عَمَلًا لَا يَدْرِي أَيَكُونُ نَافِعًا أَمْ ضَارًّا، ذَهَبَ إِلَىٰ حارس صَنَمِهِمْ والمسؤول عنه فاختار أحدَ هذه الْأَزْلَامَ بعد تحريكها.

وقد ذكر عدد من المفسرين أن هذه الأعواد مَكْتُوبٌ عَلَىٰ أحدها: «أَمَرَنِي رَبِّي» وَعَلَىٰ الْآخَرِ: «نَهَانِي رَبِّي». وَالثَّالِثُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَإِذَا حركها فَطَلَعَ السَّهْمُ الْآمِرُ فَعَلَهُ، أَوِ النَّاهِي تَرَكَهُ، وَإِنْ طَلَعَ الْفَارِغُ أَعَادَ الِاسْتِقْسَامَ.

وقد تكون هذه الأعواد في كنانة أحدهم، أي: في بيت السهام، وكان يأخذه معه إذا خرج في سفره، كما دل علىٰ ذلك ما أخرجه البخاري في قصة سُرَاقَةَ بْنِ جُعْشُمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولحاقة بالنبي ﷺ وأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهما مهاجران، وذلك قبل أن يسلم، فقد جاء عنه قوله: «حَتَّىٰ دَنَوْتُ مِنْهُمْ، فَعَثَرَتْ بِي فَرَسِي، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَىٰ كِنَانَتِي، فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الأَزْلاَمَ فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا: أَضُرُّهُمْ أَمْ لاَ، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي، وَعَصَيْتُ الأَزْلاَمَ» الحديث.

وأخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا قَدِمَ أَبَىٰ أَنْ يَدْخُلَ البَيْتَ وَفِيهِ الآلِهَةُ (يعني داخل الكعبة)، فَأَمَرَ بِهَا فَأُخْرِجَتْ، فَأَخْرَجُوا صُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي أَيْدِيهِمَا الأَزْلاَمُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَاتَلَهُمُ الله، أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا قَطُّ». فَدَخَلَ البَيْتَ، فَكَبَّرَ فِي نَوَاحِيهِ، وَلَمْ يُصَلِّ فِيهِ.

وفي زماننا يُمارِس عدد من السحرة والكذابين طقوسًا شبيهة بالأزلام، يوهمون الناس بإرشادهم للخير عن طريقها، كما يفعلون فيما يسمىٰ بقراءَةِ الكف، والفنجان، وتحضيرِ الأرواح، واستشارةِ الكهنة والعرافين، وغير ذلك.

ومن جمال ديننا وروعته أنه يربط قلوبنا بالخالق وكفىٰ، ولا يرضىٰ بأي استعانة بغير الله تعالىٰ فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، ومن ذلك علم الغيب الذي يبحث عنه المستقسمون بالأزلام وغيرهم ممن يقرأ في الكف والفنجان ويذهب إلىٰ العرافين ويُصدقهم. قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

بل شرع لنا هذا الدين حال حَيْرتنا في فعل أمر ما أو اجتنابه أن نفزع إلىٰ خالقنا، وأن نَفِرَّ إليه فيما هو معروف عندنا بدعاء الاستخارة الذي يكون مع صلاة تخصه، كما دل علىٰ ذلك ما أخرجه البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي

الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ، يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي» قَالَ: «وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ».

وقد وصفت الآية المذكوراتِ هنا بأنها رجس من عمل الشيطان، وَالرِّجْسُ هو الْخُبْثُ الْمُسْتَقْذَرُ والقبح العظيم، ووصفتها في أوائل السورة بأنها فسق في قول الله تعالىٰ: «ذلكم فسق» أَيْ: تَعَاطِيها رجسٌ وفِسْقٌ وَغَيٌّ وَضَلَالٌ وَجَهَالَةٌ.

وقد بلغ التحذير منها والتنفير أن بينت لنا الآيات حرص الشيطان عليها، وكأنها طريقه إلىٰ فرحِهِ وسعادته، وكأنه يبذل من أجلها الحيلة وراء الحيلة، ويتَلوَّنُ في إيقاع أوليائه فيها ليظفر منهم بما يريد مما ذكرته الآية الآتية.

اجتنبوا أيها المؤمنون هذه الكبائر، كونوا في جانبٍ بعيدٍ عنها ولا تقتربوا منها، ولا تتبعوا خطوات الشيطان فيها، واجتهدوا في ذلك لتَسْلموا وتُفلحوا في الدَّارَيْن.

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

انتهوا يا من شرح الله صدورهم للتقوىٰ، انتهوا يا من آثرَ الآخرة علىٰ الدنيا، انتهوا عن الخمر والميسر لئلا تثور بينكم الخصوماتُ والعداواتُ، والكراهيةُ التي تُفسد عليكم قلوبكم ومعايشكم، وتُذْهب نومكم وراحتكم، وتَفْتك بأُخُوَّتكم ومحبتكم لبعضكم.

شرب الخمر وفعل الميسر بابان عظيمان من أبواب القتل والعدوان، والفسق والفحش، وَمِنْ إِفْشَاءِ الْأَسْرَارِ وَهَتْكِ الْأَسْتَارِ، ومن التقصير في حق الوالدين والأهل والأرحام، ومن الخيانة التي أتعبت أصحابها ومَنْ حولهم.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ».

الخمر والميسر باب فتنة عظيمة في الدين، يصرف أهله عن ركن الإسلام الذي هو علامة فارقة بين المسلمين وأهل الكفر، يصرفهم عن سر حفظ الله لهم وسبب حلاوة أرواحهم، ألا وهو ذكر الله وتعظيمه والتسبيح بحمده وآلائه، فشارب الخمر لا عقل له ليصليَ، أوليعظمَ ربه بلسانه.

والمقبل على الميسر أذهب تعلقه بها وجلوسُه إليها كلَّ حرص من قلبه على صلاته ودينه، ونجده لو فعل ذلك فإنما يؤدي حركات لا يتحرك فيها القلب ولا يخشع؛ وهذا أمر معلوم ومشاهد في كل من انغمس في هذه الفتن أعاذنا الله وإياكم منها.

التعبير القرآني وصفَ الخمر بأنها رجسٌ من عمل الشيطان، وجاء تحريمُها مقرونًا مع الأنصاب والأزلام، وهما من أعمال أهل الكفر، واستعمل القرآن أبلغ أنواع طلب الترك والهجران بقوله: «فاجتنبوه»، وقوله: «فهل أنتم منتهون».

ثم حصل التنفير منها بالإخبار عما يحصل مع شاربها من ترك فريضة الصلاة والانشغال عن ذكر الله. ومثل ذلك الميسر فإنه قرين الخمر في الآيات.

والغالب على الظن أنَّ من ابتُلي بشيء من ذلك، وتوقف مع آيات الله هنا، فإنه لا ملجأ أمامه إلا أن يفِرَّ إلى الله، ويطلقها توبة صادقة لا رجعة عنها.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

هذا أمر الله قد جاءكم في ذلك، وهذا رسول الله ﷺ يُبلِّغكم وَحْي الله إليكم في ذلك، فاحذروا من تعريض أنفسكم لسخط الله تعالى وعقوبته، ولا تستعجلوا بالحرام لذائذ سيعطيكم ربي بالصبر عنها ثوابًا عظيمًا في دار كرامته، ولا تظنوا أن السعادة تنتظركم بإقبالكم على المعاصي، ولا تغتروا بما تجدونه من حلاوة عند أول الأمر، فإن العبرة بما بعد ذلك من فساد القلب، وبؤس الحياة، وسوء الوفود على الله تعالى غدًا.

وهذا الخطاب الرباني هنا ضَرَبَ معه أصحابُ النبي ﷺ أرْوع الأمثلة في سرعة الاستجابة، وذلك في تركهم لأمر ألفوه من سنين كثيرة، فقد أخرج مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَخْطُبُ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الله تَعَالَى يُعَرِّضُ بِالْخَمْرِ، وَلَعَلَّ الله سَيُنْزِلُ فِيهَا أَمْرًا، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلْيَبِعْهُ وَلْيَنْتَفِعْ بِهِ» ، قَالَ: فَمَا لَبِثْنَا إِلَّا يَسِيرًا

حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ الْخَمْرَ، فَمَنْ أَدْرَكَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ وَعِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلَا يَشْرَبْ، وَلَا يَبِعْ» ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ النَّاسُ بِمَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْهَا فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ فَسَفَكُوهَا (يعني: أراقوها).

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾

هذا واجب الدعاة إلى الله تعالى، أن يبلغوا بلاغًا بيِّنًا وكافيًا ووافيًا، وأن يُخلصوا لله تعالى فيه، وأن يجتهدوا في الوصول إلى من يتعطش لتذكرة وموعظة، إلى من يطلبهم ليأخذوا بيديه إلى النجاة؛ هكذا فعل نبينا ﷺ مع قومه، وهكذا سار الدعاة الصادقون من بعده مع أهليهم وأحبابهم.

فإن أبى أولئك إلا طريقَ الشيطان قلنا لهم: يا من اتبعتم أهواءكم، ووقفتم مع الباطل ورضيتم بحياة أهل الخمور والفجور: إنما ضلالُكم على أنفسكم، وأنتم الخاسر الحقيقي فيما يحصل، و هؤلاء رسل الله والدعاة إلى دينه قد أدُّوا ما عليهم من الأمانة، والموعد غدًا في أرض المحشر فتوبوا قبل أن يفجأكم قَدَرُ الله فيكم.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كُنْتُ سَاقِيَ القَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ، وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الفَضِيخَ (نوع من أنواع الشراب)، فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ مُنَادِيًا يُنَادِي: «أَلاَ إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ» قَالَ: فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ، فَأَهْرِقْهَا، فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا، فَجَرَتْ فِي سِكَكِ المَدِينَةِ، فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ: قَدْ قُتِلَ قَوْمٌ وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾».

أي: لمَّا نزل تحريم الخمر سأل عدد من الصحابة عن أولئك الذين ماتوا قبل تحريمها وكانوا قد شربوها، فنزلت الآية هنا لتبين حالهم، وكيف رُفِعَ عنهم الإثمُ والحرج في ذلك، وأنهم ممن لا ينالهم الوعيد المذكور في تحريم الخمر إذا كانوا قد ماتوا على الإيمان والتقوى، وماتوا على الإحسان وعمل الصالحات.

نتعلم من هذه الآية أن سرعة الاستجابة لأمر الله والحرص على طاعته فيما أمر هو مفتاح تحصيل محبة الله تعالى للعبد، وأعانته على الطاعة، وكأن الآية تنادي علينا لتقول لنا: كونوا من أهل الإيمان الذين لا يزيغون عن الصراط المستقيم، وقولوا: سمعنا وأطعنا يا ربنا، وأَقْبلوا على عمل الصالحات وسارعوا فيها وسابقوا إليها، وأحسنوا في ذلك كله بإخلاصكم للرَّبِّ العظيم واتباعكم هديَ نبيكم محمدٍ ﷺ.

هذا هو حال من رفعت عنه المَلامة ممن شرب الخمر ومات قبل تحريمها، وهذا ما نفعه عند خالقه، وكأنه لو جاءه التحريم وهو على هذه الدنيا لبادر إلى الطاعة بطيب نفس وحُب ورضا.

والآية بعمومها تأذن لنا في الأكل من الطيبات والتوسع فيها، ما دامت قلوبُنا معقودةً على الإيمان والإحسان والعمل الصالح.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤ ﴾

تكليف وابتلاء واختبار لأهل الإيمان، غايته الوصول بالنفس المؤمنة إلى مراقبة الله تعالى في السر والعلن، وتحقيقِ تمام الخشية لله العظيم، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك: ١٢]، وغايته كذلك تربيةُ هذه النفس على مخالفة ما تهوى وإن كان في زمن ومكان يسيرَيْن، ثم الثباتُ على المبادئ أمام عَرَضِ الدنيا وشهواتها وزينتها. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

الصيد مما أباحه الله تعالى للناس وامتنَّ عليهم به، أباح لهم أن يصيدوا بأيديهم بإمساكه أو بأخذه من عند البيض والفراخ، أو يصيدوه برماحهم، أو بجارحٍ من جوارح الطير والسباع.

معلوم لديكم أن ثمة صنفًا من الناس تعلَّق قلبه وعقله بالصيد، وربما كان تجارة رابحة له، وقد يمضي فيه وقتًا لا يُستهان به، ويقطع من أجله المسافات، وقد تشتد الحاجة إليه في السفر إن كان طويلًا، ولذلك وصف الله تعالى تمام البلاء هنا بأنْ تنالَه أيديهم ورماحهم، يعني: يكون قريبًا منهم يسهل صيده، ويكونون قادرين عليه.

الخطاب الرباني هنا ينهى عن الصيد والتعرض له في حالين، ويُبقي غيرهما على الإباحة:

الحال الأول: ونحن محرمون لأداء الحج أو العمرة، فعندما يصل الواحد منا ميقاته ويحرم للنسك وينوي، فمن محظورات إحرامه أن يصيد بنفسه، أو أن يعين على الصيد بالإشارة إليه أو تقديم آلةٍ للصائد ليصيدَه، أو أن يؤذي الصيد أو يستوليَ عليه، أو أن يبيع الصيد أو يشتريه، أو يقبله هِبَةً أَوْ وَصِيَّةً.

ويحرم كذلك عليه الأكل منه إذا صاده شخص غير مُحْرِم من أجله، يعني: من أجل المُحْرِم، وذلك عند جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة، بخلاف الحنفية الذين يجيزون له الأكل وإن صاده لأجله، بشرط ألا تكون منه إعانة على عملية الصيد.

واتفق أهل العلم على جواز أكل المحرم من الصيد إذا ذبحه شخص غير محرم لنفسه ولعائلته، ولم يقصد به إطعام المحرم، ولا صاده لأجله.

الحال الثاني: مختصٌّ بمن كان في حرم مكة، فإذا دخل الواحد منا حرمها، أو كان يعيش فيها فليعلم أن صيدها محظور، وأن كل ما فيها آمن. أخرج البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «حَرَّمَ الله مَكَّةَ فَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلاَ لِأَحَدٍ بَعْدِي، أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، لاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا (أي: لا يقطع نباتها ولا شجرها) وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلاَ تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُعَرِّفٍ».

وحُرمة الصيد تكون كذلك في مدينة رسول الله ﷺ، وذلك عند جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة، لما أخرجه مسلم عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا، لَا يُقْطَعُ عِضَاهُهَا (أي: شجرها)، وَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا».

وانتبهوا هنا إلى أن حرمة الصيد في مكة والمدينة تكون للمحرم وتكون لغير المحرم كذلك، وهو ما يسميه الفقهاء بالشخص الحلال، فسواء كان محرمًا أو حلالًا فلا يحل له الصيد.

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فمن خالف بعد هذا الإعلام والإنذار، وفعل ما حرم الله عليه، فله عقاب شديد مؤلم موجع لمخالفته أمرَ الله وشرعَه، إلا من تاب فتاب الله عليه، وكفَّر عن فعله فيما تجب فيه الكفارة كما سنبينه في الآية بعدها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ٩٥﴾

نداء آخر لأهل الإيمان يدل على عناية الشرع بهم، ينهاهم فيه نهْيَ تحريم عن قتل الصيد في حال الإحرام، ثم يبين لهم الكفارة التي تلحق فاعل ذلك، فضلًا عما يلزمه من التوبة إذا أقبل على مخالفة أمر الله متعمدًا عالمًا بالحرمة.

وقد ذهب الشافعية والحنابلة إلى أن المحظور على المحرم هو كل صيد بري يجوز أكل لحمه، وهو متوحش، أي: لا نقدر على تذكيته وذبحه، فيدخل في ذلك الحمام والأرانب والنعامة، والبقر أو الحمار الوحشيين، والغزال والجراد والضَّبُّ والضَّبُع، وغير ذلك.

ولا تدخل حيوانات البحر لأنها ليست برية فيجوز للمحرم صيدها، ولا يدخل في ذلك صيد الحيوان الذي يَحْرم أكله كالأسد والنمر والصقر والنسر ونحو ذلك، ولا يدخل في ذلك غير المتوحش كالغنم والدجاج والإبل والبط ونحو ذلك، ولا يدخل في ذلك الْهَوَامُّ وَالْحَشَرَاتُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ، بخلاف المالكية فيما لا يؤذي منها، فإنهم يرون أن ما لا يؤذي منها يحرم قتله.

وقد أجمع أهل العلم على جواز قتل المحرم لدوابَّ جاءت النصوص الشرعية بجواز قتلها، كما في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ لَيْسَ عَلَى الْمُحْرِمِ فِي قَتْلِهِنَّ جُنَاحٌ: الْغُرَابُ، وَالْحِدَأَةُ (من الطيور الجارحة)، وَالْعَقْرَبُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ (أي: الجارح المتوحش)». وفي رواية: «يُقتلن في الحل والحرم».

ويجوز كذلك قتل كل حيوان مؤذ بطبعه، كالأسد والنمر والفهد والذئب والحية وغير ذلك. وبعض العلماء قيد جواز ذلك بما لو صالت وهجمت على المحرم.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ هنا بيان فدية من ارتكب محظور قتل الصيد متعمدًا، سواء قتله وهو محرم، أو قتله في حرم مكة وإن كان غير محرم.

الفدية يخير فيها مرتكب المحظور بين ثلاثة أمور: الهدي أو الإطعام أو الصيام، أما إذا لم يكن له مِثْل من الأنعام فهو مخير بين الإطعام أو الصيام، وهذا مذهب جمهور أهل العلم.

جاء هنا الأمر الأول، وهو أن يهدي لأهل الحرم بهيمة من النَّعَم، أي: الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، وتكون مثل الصيد في الصورة والخلقة، أي: مماثلة له أو قريبة في ذلك، فإذا كان الصيد كبيرًا كالنعامة مثلا فيهدي لفقراء الحرم إِبِلًا، وإذا كان المصيد بقرة وحشية أو حمارًا وحشيًّا فيهدي بقرة إنسية، وإذا كان المصيد غزالًا أو ثعلبًا فإنه يهدي شاة، وهكذا.

أما إذا كان الحيوان المصيد لا مثيل له من النعم كالضب والجراد والعصفور والْبَطَّةِ وَالإِوَزَّةِ فإنه يعدل إلى القيمة كما سيأتي بيانه.

أخرج غير واحد من أصحاب السنن عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «جَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الضَّبُعِ يُصِيبُهُ الْمُحْرِمُ كَبْشًا، وَجَعَلَهُ مِنَ الصَّيْدِ». والصحابة حكموا في النعامة ببدنة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال وفي الأرنب وفي الحمام بشاة.

وهذه الكفارة إنما تجب إذا حصل القتلُ، بخلاف ما لو جَرحَ الصيد، أو قطعَ عضوًا منه فلا تجب الفدية.

والمذاهب الأربعة على أن لفظة «متعمدًا» في الآية لا مفهوم لها، بمعنى أن الكفارة تلزم كذلك من قتل الصيد خطأ أو نسيانا وإن كان الإثم مرفوعا عنه، وسبب ذلك أن الفدية هنا كانت بسبب إتلاف صيد، والإتلاف يجب فيه الضمان في الشريعة وإن كان خطأ او نسيانا.

ومن أهل العلم من أسقط الكفارة عن المخطئ والناسي، وهو قول أهل الظاهر.

والفدية المذكورة هنا لا تلزم من صاد في المدينة مع أنه آثم فيما فعل إن كان متعمِّدًا، وذلك عند أكثر أهل العلم، بخلاف ما لو كان مُحرمًا فإن الكفارة تلزمه لإحرامه لا لكونه اصطاد في المدينة.

هذا الجزاء من النَّعم ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أَي: يقضي به ويُقدِّره رجلان عدْلان من المؤمنين؛ لأن المماثلة بين النعم وبين الصيد مما يخفى على أكثر الناس، وكذلك الحال فيما لو كان المصيد لا مثيل له من النعم، ويريد مرتكب محظور الصيد أن يعرف قيمةَ ما يخرجُه، فإنه يسأل اثنين ممن تَحَقَّقَتْ فِيهِما صِفَةُ الْعَدَالَةِ وَالْمَعْرِفَةِ.

وننبه هنا على أن محل اجتهاد الحَكَمين عند الشافعية والحنابلة إنما يكون فيما لم يرد عن النبي ﷺ فيه شيء، ولا جاء عن الصحابة فيه قضاء.

وهذا الجزاء من النعم يكون ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي: يلزم الصائد أن يذبح ما لزمه في الحرم المكى، ويقوم بتوزيعه على الفقراء هناك، فإن لم يكن موجودًا هناك فإنه يُوكِّل غيره بالذبح.

إذًا، الخيار الأول في كفارة من قتل الصيد وهو محرم أَو قتله في الحرم، أن يفدي بمثله من النعم إن كان له مثيل كما مر معنا، هنا يأتي بيان الخيارين الآخرين:

﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ الخيار الثاني أن يطعم المساكين بقيمة ما قتل من الصيد، يطعم في الحرم عند بعض العلماء، أو في المحل الذي قتل فيه الصيد عند آخرين.

وطريقة ذلك عند جمهور الفقهاء أَنْ يُقَوِّمَ الْمِثْل دَرَاهِمَ، سواء كان المثل إبلًا أو بقرًا أو غنمًا، يعني: يعرف كم ثمنها ثُمَّ يَشْتَرِيَ بِه طَعَامًا، وَيَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَىٰ مَسَاكِينِ الْحَرَمِ.

وعند المالكية يقوم الصيد نفسه وليس المثل.

أما إذا لم يكن للصيد مِثل فإنه يقوم ما صاده، ويَشْتَرِيَ بمقدار قيمته طَعَامًا يَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَىٰ مَسَاكِينِ الْحَرَمِ. وَعِنْدَ مَالِكٍ: يتصدق عَلَىٰ الْمَسَاكِينِ فِي مَوْضِعِ الصَّيْدِ.

وعند الحنفية يقدر قيمة الصيد رجلان عدلان، ثم يَشْتَرِيَ بِالْقِيمَةِ طَعَامًا وَيَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَىٰ الْمَسَاكِينِ، وَلاَ يَخْتَصُّ التَّصَدُّقُ بِمَسَاكِينِ الْحَرَمِ، ولا بموضع الصيد.

وأما الخيار الثالث فهو الصيام، ويجوز الصيام في الحرم أو في غيره من البلاد، والواجب عليه أن يصوم عن كل مُدٍّ يومًا، بمعنىٰ: أنه يُقدر لحم المِثل من النعم كم مُدًّا يبلغ، ويصوم عن كل مد يومًا. ومُدُّ الطعام الواحد يكون بقدر ما يملأ الكفين المعتدلين من الإنسان.

وفي المسألة تفصيل نفيس يراجع في بطون كتب أهل الدراية والعلم.

﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾ أي: أوجبنا عليه الفدية ليذوق سوء عاقبة فعله الذي اعتدىٰ فيه علىٰ حرمة الإحرام أو الحرم، ولعل هذا من لطف الله تعالىٰ بعباده، أن شرع لهم من الكفارات ما يفعلونه إذا ندم واحدهم علىٰ مخالفة أمر لله تعالىٰ في حرماته.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾ أي: تجاوز الله عنكم ما فعلتم قبل هذا البيان القرآني العظيم، فانتبهوا واحرصوا علىٰ الطاعة فإنها لكم.

﴿وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ﴾ تحذير عجيب في حق من يتهاون في شعائر هذا الدين، الحج والعمرة ومكة والمدينة نعظمها ونعلم أن تعظيمها من تعظيم الرب جل وعلا، ونَحْذر نقمة الله علينا وانتقامه منا إن تجرأنا علىٰ حدوده وشرعه في ذلك؛ أيُّ تربية هذه!

صحيح أن الله تعالىٰ غني عن خلقه، وأن صيد الحمامة أو الأرنب أو غيرِهما للمحرم بالحج أو العمرة قد لا يؤثر كثيرًا علىٰ الآخرين، وقد لا يحصل بسببه إفساد في الأرض، ولكن الخضوع لله تعالىٰ وسرعة الاستجابة لأمره، ومجاهدة النفس في ترْك ما تحب وتهوىٰ ولو لزمن يسير، وتعظيم ما عظم الله من الزمان والمكان، هو الذي يظهر جليًّا في أوامر الله عَزَّوَجَلَّ هنا، وهو الذي يرتقي به العبد إلىٰ أعلىٰ درجات العبودية والاستسلام لشرع الله، أو يختار طريق إيثار حظوظ الدنيا علىٰ الآخرة فينتقم الله منه.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: والله سبحانه وتعالىٰ له العزة والمنعة في سلطانه وملكوته، لا يقهره قاهر، ولا يحتاج إلىٰ ناصر، ولا يمنعه من الانتقام ومن العقوبة مانع، فإن الخلق خَلْقه، والأمرَ أمرُه، ولا إله غيره.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

نعمة من نعم الله تعالىٰ التي لا تعد ولا تحصىٰ، نعمة فيها من النفع للعباد ما يعلمه القاصي والداني، تِلْكم هي إباحة أَكْلِ ما في البحر من الحيوانات التي لا تعيش إلا فيه.

أَحَلَّ الله لنا الانتفاع بصيد البحر، وهو ما أخذناه منه حيًّا ثم مات بعد إخراجه، وأحل الله لنا الانتفاع بطعامه، أي: ما وجدناه ميتا علىٰ ظاهر البحر أو علىٰ شاطئه.

ربنا جل وعلا من رحمته أن جعل صيد البحر قوتًا للمقيمين في أرضهم وبلادهم، وكذا للسيارة، أي: للسائرين معكم وللمسافرين، وذلك لما في صيد البحر من انتفاع الجسم بالأكل منها، ولما يحمله من لذة يجدها كثير من الناس ويطلبونها، بل هي سبب من أسباب الرزق الطيب.

وحِلُّ أكل دواب البحر مما لا يعيش إلا فيه، جاء تأكيده فيما أخرجه أصحاب السنن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَرْكَبُ البَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا القَلِيلَ مِنَ المَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ مِنَ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الحِلُّ مَيْتَتُهُ».

وأخرج البخاري ومسلم من حديث جَابِر بْن عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قصة إرسال النبي ﷺ لهم ليَرْصدوا قافلةً لقريش ويراقبوها، وكانوا ثَلَاثَ مِائَةِ رَاكِبٍ، وكان أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ أميرَهم، فأصابهم جوع شديد، فأكلوا من الحوت الذي ألقاه البحر إليهم، ألقىٰ إليهم دَابَّةً يُقَالُ لَهَا الْعَنْبَرُ، فلما رجعوا إلىٰ المَدِينَةَ ذَكَروا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «كُلُوا، رِزْقًا أَخْرَجَهُ الله، أَطْعِمُونَا إِنْ كَانَ مَعَكُمْ» فَأَتَاهُ بَعْضُهُمْ فَأَكَلَهُ.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ زيادة بيان للصيد المحظور علىٰ المحرم بالعمرة أو الحج، إنه صيد البر، أي: الذي يعيش حياته في البر ولا يعيشها في البحر، وهذا يدل علىٰ أن صيد السمك لا يُمنع منه المحرم، ولا كفارة فيه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ تأملوا كيف ترتبط آيات الأحكام بالوعظ والتذكير، وكيف ترشد إلى غاية الامتثال لأمر الله تعالى فيما أمر، وما أرقاها وأحلاها من غاية.

كل هذه الأحكام تريد منا تحصيل تقوى الله تعالى وخشيته في السر والعلن، والتقوى إنما تقوم على طاعة الله تعالى عن عِلْم وبصيرة نرجو بذلك الجنة ونخشى من النار، نتقيه سبحانه مستحضرين على الدوام أننا إليه راجعون، وبين يديه للحساب واقفون، ولن ينفعنا في تلك اللحظات إلا صدقُنا في عبوديتنا، وما أعدَدْناه من الإيمان والعمل الصالح.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٩٧﴾

أربعة أشياء ذُكرت في هذه الآية: الكعبة والأشهر الحرم والهدي والقلائد، عظمها ربنا وجعلها سببًا من أسباب قيام هذا الدين وتحقيق العبودية للناس، وسببًا لرزق أهل مكة وعيشهم ورخائهم، وكذا ما حولها، وكذا من جاءهم من الناس، مكة التي لا زرع فيه ولا ضرع، ولا حياة ولا أنيس.

الآية تنص على أن هذه الأربعة المذكورة فيها قيام للناس، والقيام هذا له بعدان: قيام توحيد ودين، وقيام رزق وعيش، وبطريقة أخرى: قيام دين ودنيا.

فالكعبة عظم الله تعالى شأنها، وأضافها إلى نفسه إضافة تكريم وتشريف على لسان خليله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، واستجاب له دعاءه فيها. قال الله سبحانه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

والقرآن وصفها هنا بالبيت الحرام، أي: بالبيت الذي من أجله عظُمت الأنفس والأموال في حرم مكة، وإن كانت مُحرمة في غير مكة كذلك.

ثم إن الشرع حرم فيها التعرض للصيد وللشجر، وجعل لها من أعمال العمرة والحج، ومن الأحكام التي تخص دخولها والصلاة فيها، ما يدل على عِظم حُرمتها عند الله.

وكأن القرآن ينادينا ويقول لنا: اذكروا نعمة الله عليكم فيها، واحذروا من وقوع المظالم والفواحش عندها، واعْمُروها قلبًا وبدنًا، وأكثروا من الصدقات والذبائح فيها، وعظموها فإن تعظيمها من تعظيم من جعلها قيامًا لأهلها.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

وأما الشهر الحرام فهو يشير إلىٰ الأشهر الحرم، وهي أربعة: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، وهي التي كانوا يتركون القتال فيها، وهي الأشهر التي خاطبنا الله تعالىٰ بسببها، وأكد لنا حرمتها في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقد تقدم الحديث عنها وعن تعظيمها عند العرب وفي الإسلام عند تفسير الآية الثانية من سورة المائدة.

والهدي هو ما يهدىٰ إلىٰ الحرم من الإبل أو البقر أو الغنم تقربًا إلىٰ الله، وما يذبحه الحاج أو المعتمر من الأنعام في أحوال عدة، وقد أمر الشرع بذبحها في حرم مكة في مسائل علمية متعددة، واشترط توزيع لحومها علىٰ فقراء مكة للتوسعة عليهم، وهذا هو وجه كونها قيامًا للناس هناك، ففي الحج مثلا تُذبح ملايين الذبائح ليهنأ بها أهل مكة ومن أقام فيها من غير أهلها، يهنؤون بها بيعًا وشراءً وطعامًا، بل أفتىٰ غير واحد من أهل العلم بجواز نقل ما زاد من اللحوم إلىٰ المحتاجين في بلاد المسلمين.

والقلائد جمع قلادة، والمقصود تلك القلادة التي يضعونها للبعير أو البقرة علامة خاصة علىٰ أنه سيهدىٰ ويذبح في الحرم المكي، وهذا أشرف أنواع الهدي للحرم، وتقليدها علامة علىٰ مكانتها في القلب فإنها لبيت الله المعظم، ولذلك لم يكن أحد من الناس قبل الإسلام وبعده يقربُها إذا كانت مقلَّدة.

انظروا كيف جعلت قيامًا لدين الناس، وسببًا لإحيائه، وعلامة علىٰ إظهار شعائر الدين وعباداته، ثم انظروا كيف جعلت طريقًا لانتفاع الناس بلحمها وتجارتها وقيام حياتهم بها.

﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

الله عَزَّوَجَلَّ جعل الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد قيامًا للناس؛ ليعلموا أن ربهم له صفات الكمال سبحانه، وأن من صفاته كمالَ علمِه الذي أحاط بكل شيء، أحاط بالسماوات والأرض ونظام العيش فيهما قبل خلقهما.

عظيمٌ علمُ ربي، رأيناه في تفاصيل قصة بناء الكعبة وحياة الناس حولها، كيف أمر نبيه إبراهيم ونبيه إسماعيل عليهما السلام برفع قواعدها، ثم أمر بالحج إليها، وعلق قلوب العابدين بها، وشرع أحكامًا تُظهر حرمتها، فكانت كما أخبر ربنا وأراد، قيامًا للتوحيد وللرزق.

وهذا لم يقتصر على بعثة محمد ﷺ بل كان قبلها وإن انحرف في هذه الأحكام من انحرف.

وثمرة هذا العلم المرجو هنا من المؤمنين أن يكونوا أقرب إلى تعظيم الرب على الوجه الذي يليق به، وأن يسارعوا في امتثال أمره واجتناب نهيه، رغبة في رحمته ورهبة من سخطه، فإنه الإله الذي أعملوا فكرهم في عظمته وعَظَمة خلقِه، فأحبوه وخافوه.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

بين الرجاء والخوف، وبين الوعد والوعيد، وبين الترغيب والترهيب، هذا هو حال المؤمن فيما يقوله ويفعله، في صلاته وصيامه ودعوته إلى الله وجهاده، في سماعه للقرآن وسعيه في الفهم والحفظ والبلاغ، في طاعته لوالديه وصلته لرحمه وامتناعه عن الكذب والنميمة والغيبة، في كل ذلك يعلم علم اليقين أن الله تعالى قد يمهل ولكنه لا يهمل، ويعلم أن كرم الله عظيم وفضلَه واسع، وأنه الغفور للزلات، الرحيم بعباده التائبين إليه.

تذكروا وأنتم تعيشون مع الآية أن الخبيث والطيب لا يستويان عند الله، وكذلك البَرُّ والفاجر والمحسن والمسيء، والمؤمن والمنافق والظالم والمظلوم، وتذكروا أن عقوبة الله تنتظر من اختار طريق الظلم والفسوق والعصيان، وأن رحمة الله قريب من أهل الإيمان والبر والإحسان.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

إنَّ الأمر في اختيار الطاعة أو المعصية، واختيار التوحيد أو الشرك لكم يا من تستمعون للآيات، وترون المعجزات الباهرات، ورسولكم أنذر وبلَّغ، وبيَّن وأرْشد، وفعل ما أمره الله به فلا تعتذروا عن كفركم وفسقكم بما لا يصح ولا ينفع.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨-٥٠].

في هذه الآية تأنيس لقلوب كل الدعاة بعد محمد ﷺ، وبيان لغاية من غايات الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وهي حصول البلاغ، وإقامة الحجة علىٰ الخلق، وقد قص القرآن علينا وكذا السنة قَصصًا لأنبياءَ ودعاةٍ قتلهم أقوامهم بعد أن كذَّبوهم، وكان تمكين الله تعالىٰ لهم بأن جعل دعوتهم تبلغ أقصىٰ مدنهم، كما في قصة القرية التي أرسل الله إليها ثلاثة من رسله، وكما في قصة الغلام والساحر التي قُتل فيها الغلام الداعية إلىٰ التوحيد علىٰ يد الملك الكافر، قُتل ولكن دعوته بَلَغت وآمن الناس جميعا.

بل لكم في رسول الله ﷺ أسوة في ذلك، ففي العهد المكي الذي امتد قرابة ثلاث عشرة سنة لم يؤمن معه إلا العشرات، ولكن دعوته بلغت ما بلغت والحمد لله، فبلِّغوا دينكم وامضُوا. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ الرسول لا يعلم سركم ونجواكم، وليست محاسبتكم إليه، فلا تظنوا به غير ذلك.

الله تعالىٰ هو الذي خلق الأنفس ويعلم ما فيها، فمن راقبه نجا واهتدىٰ، ومن راغ روغان الثعالب ضل وانتكس، فلنراقبِ الله تعالىٰ ولنصلح حالنا معه، إنه خيرٌ حافظًا.

﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠٠﴾

يقول الله تعالىٰ لرسوله ﷺ: قُلْ يا محمد ﷺ لمن يظن أن الحق يُعرف بكثرة من يتبعه، قل له: الحق يعرف بكونه حقًّا لا بكثرة فاعليه، وطرائق تفكيرنا إنما تقوم علىٰ ما يرضي ربَّنا ويسخطُه، وميزاننا هو الكتاب والسنة، فما يحبه الله تعالىٰ نفعله ونقبل عليه وإن تركه غالب الناس، وما نهىٰ الله عنه نجتنبه وإن أقبل عليه كثير من الناس، فالخير والشر والإفساد والإصلاح لا يستويان عند الله، والعبرة بحسن العاقبة في الآخرة، اللهم استعملنا فيما تحب وترضىٰ.

ولعلكم وأنتم تقرؤون تفسير هذه الآية تستحضرون ما يجري في هذا الزمن الذي نعيشه، والذي نرىٰ فيه أن أهل الفجور والرذيلة والباطل استطاعوا أن يصنعوا لأنفسهم أعوانًا وأذنابًا لا يستهان بهم، وأنهم في بعض المواطن يفوقون أهل الحق عَدَدًا وعُدَّةً، حتىٰ لبَّسوا الدِّين علىٰ عدد ممن ظاهرهم الصلاح، واستغلوا ضعف العقيدة والإيمان في قلوبهم فجعلوهم يسيرون مع الركب، ويبيعون دينهم بعرض من الدنيا.

وتأملوا قول الله في الآية: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾، وكأنها تشير إلىٰ كثرة أموالهم، وإلىٰ تلك الأموال الكبيرة التي ينفقونها في إفسادهم، وتشير إلىٰ تفننهم في تلبيس الدين علىٰ الناس في كلامهم وحركاتهم ومجالسهم وقنواتهم، وتشير إلىٰ مناصبهم العليا وجاههم الرفيع عند من هم علىٰ شاكلتهم.

وكأنها كذلك تشير إلىٰ الذين يصابون بالذهول والانبهار عندما يرون أهل الباطل يزينون باطلهم، فيخشون تذكيرَهم ووعظَهم، وتميلُ قلوبهم إلىٰ تقليدهم، ولعل أحدهم ينقلب حاله فيرىٰ المنكر معروفًا، ويدافع عن وجوده، ويعين علىٰ نشره.

ولا أتجاوز في كلامي إن قلت: إن كثرة الخبيث هذه قد تحزن أصحاب القلوب الممتلئة بالإيمان، ويتسلل بسببها اليأس إلىٰ داخلهم فيقعدون عن العمل.

لذلك: حملت الآية مفاتيح الحياة من جديد لأهل التقوىٰ والإيمان، وأعطتهم مزيد بصيرة فيما قدَّرَه الله تعالىٰ في هذا الكون لئلا يغتروا بانتفاش الباطل وأهله وكثرتهم. قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ نداء من الله تعالىٰ إلىٰ أصحاب العقول الصحيحة المستقيمة التي نَوَّر الله بصيرتها التي يَسْرع رجوعها إلىٰ الحق إذا ذُكِّرت به، والتي تدرك الأمور بمآلاتها، النداء يقول لهم: لا تغتروا بكثرة أهل الباطل وتسارعهم إليه وفيه، ولا تغتروا بكثرة أموالهم وهيبتهم الزائفة، وتسلحوا بتقوا الله في معركتكم، فإن هذا سرُّ فلاحكم في الدنيا بالثبات أمامهم ومدافعتِهم والنصرِ عليهم، وفلاحكم في الآخرة بأن تكونوا من أصحاب اليمين، ومن أهل جَنَّة رب العالمين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ﴾

لا تكاد تمر بآية من آيات كتاب الله إلا وتجد فيها من الخير العظيم ما تجد، توجيهات ربانية يخاطَب فيها أهلُ الإيمان الذين هم مَظِنة الاستجابة لأمر الله تعالىٰ والقيام به.

يا أهل الإيمان: هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، نبي يوحىٰ إليه من الله تعالىٰ، لا يكتم عن ربه شيئًا، ولم يترك خيرًا أوحاه الله إليه إلا أرشدكم إليه، فلا تتكلفوا في دينكم، ولا تستطردوا في سؤالاته مما لا يأتيكم إلا بما يشق عليكم في عبادتكم، أو يسوؤكم في دنياكم وآخرتكم، أو يشق علىٰ نبيكم وهاديكم إلىٰ الخير ﷺ من كثرة سؤاله بلا فائدة.

واعلموا أن كثرة أسئلتكم لا تأتي إلا بكثرة ما يفرض عليكم من أحكام، واطمئنوا، فإن القرآن يتنزل ولن يترك شيئًا مما يحبه الله ويرضاه إلا ويُبيِّنه لكم.

هذه الآية مما تعددت فيها أسباب النزول، وقد نص غير واحد من أهل العلم أنها تجتمع في بيان المقصود من النهي هنا، وإليكم البيان:

١- أخرج البخاري عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ أَشْيَاءَ كَرِهَهَا، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ المَسْأَلَةَ غَضِبَ وَقَالَ: «سَلُونِي»، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَبِي؟ قَالَ: «أَبُوكَ حُذَافَةُ»، ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَبِي؟ فَقَالَ: «أَبُوكَ سَالِمٌ مَوْلَىٰ شَيْبَةَ»، فَلَمَّا رَأَىٰ عُمَرُ مَا بِوَجْهِ رَسُولِ الله ﷺ مِنَ الغَضَبِ قَالَ: إِنَّا نَتُوبُ إِلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ.

وسبب غضب النبي ﷺ هنا هو أن السائلين كانت أمهاتهم قد عاشت في الجاهلية، وربما يكون أحدهم قد جاء عن طريق الزنا، فلما يسأل رسول الله ﷺ ويجيبه فإنه سيفضح نفسه علىٰ الملأ، ولذلك جاء في رواية ابن حبان أن أُمَّ السائل هنا عاتبته علىٰ هذا السؤال، ففي هذه الرواية أن عَبْدَ الله بْنَ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسٍ السَّهْمِيّ قَامَ، فَقَالَ: مَنْ أَبِي يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «أَبُوكَ حُذَافَةُ» ، فَرَجَعَ إِلَىٰ أُمِّهِ فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ الَّذِي صَنَعْتَ؟ إِنَّا كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ وَأَعْمَالٍ قَبِيحَةٍ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَدَعَ حَتَّىٰ أَعْرِفَ مَنْ كَانَ أَبِي مِنَ النَّاسِ، قَالَ (أي: الراوي): وَكَانَ فِيهِ دُعَابَةٌ (يقصدُ عبدالله بن حذافة).

٢- وأخرج مسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «فِي النَّارِ»، فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ، فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ».

انظروا في هذه الأسئلة التي تسوء صاحبها أن يعرف جوابها، وكأن كثرة السؤال والاستفصال في أمور الغيب مما لا فائدة منه قد تُظهر للناس ما يَكْرهون سماعه، وتُحدثُ في نفوسهم وصدورهم سوءًا لا يعلم قدره إلا الله، ولذلك جاء النهي هنا في الآية.

٣- أخرج البخاريُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ اسْتِهْزَاءً، فَيَقُولُ الرَّجُلُ: مَنْ أَبِي؟ وَيَقُولُ الرَّجُلُ تَضِلُّ نَاقَتُهُ: أَيْنَ نَاقَتِي؟ «فَأَنْزَلَ الله فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ كُلِّهَا».

يعني: هذا صنف من الناس فهم الوحي على غير مراده، وكأنه يستهزئ بالشرع، ولم يدرك أن الهداية وإرشاد الناس إلى الصراط المستقيم هي الغاية العظمى من نزوله على قلب محمد ﷺ، وليس اللهو والعبث واللعب.

٤- ثم إن كثرة السؤال والاستفصال في أمور الدين مما يكون ظاهره التكلف والتعنت، قد تؤدي إلى تكاليف وأوامر جديدة من عند الله، فيشقُّ على المكلفين القيام بها، فتسوؤهم ويقعون في الحرج والمشقة والتضييق بعد أن كانوا في سعة من أمرهم.

أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ الله عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا» ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ الله؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ»، ثُمَّ قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ».

وأخرج البخاري عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا، مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ». وهذا الحديث جاء في ذم من يسأل بقصد الإيقاع في الحرج، أو على سبيل العبث، أو من قصد بسؤاله الأذى.

وهذا بخلاف من سألَ لحادثة وقعت لَهُ وحصلت، ويريد حكم الله تعالى فيها، أو قامت الحاجة إليها لسبب من الأسباب كالتَّفقُّه، فهذا مما يدخل في قول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

ولكم أن تنظروا في سرعة استجابة أصحاب النبي ﷺ لهذا النداء الرباني، وكيف أنهم امتنعوا عن كثرة السؤال وإن كانت لهم رغبة فيه، وقد صح أنهم كانوا ينتظرون الأعراب الذين يأتون من خارج المدينة ليسألوا، كما دل على ذلك ما أخرجه مسلم عَنْ نَوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَقَمْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِالْمَدِينَةِ سَنَةً مَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْهِجْرَةِ إِلَّا الْمَسْأَلَةُ (يعني: إلا حرصي على السؤال)، كَانَ أَحَدُنَا إِذَا هَاجَرَ لَمْ يَسْأَلْ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ شَيْءٍ، قَالَ: فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ».

والمتأمل في سؤالاتهم للنبي ﷺ يجد أنها لا تخرج عن نفعٍ، وعن مزيدِ بيان لما لا بد لهم منه في دنياهم وعاقبة أمرهم.

وإتمامًا للفائدة هنا، أقول: لا تظنوا أن ما أرشدت إليه الآية لا يُنتفع به بعد موت النبي ﷺ، بل قد يستفاد من حكمها في واقعنا، فقد يسأل أحدهم أهل العلم لإيقاعهم والتغرير بهم، أو للاستهزاء بهم وبما يقولون، وقد يتطاول أحدهم في السؤال وطلب التفصيل حتى يصل إلى هَتْكِ سِتْرِ مُسْلِمٍ أَوْ إِشَاعَةِ فَاحِشَةٍ، وقد يتنطع أحدهم ويتكلف في معرفة ما هو نجس مما هو طاهر، وقد يستغرق أحدهم في مسائل افتراضية لا وجود لها، وانظروا فيمن يُكثر المراء والجدل كيف يكون حاله وحال من يسمعه.

ولا تظنوا كذلك أنه إذا نزلت بالمسلمين نازلة واحتجنا لحكمها، أن نتوقف عن الاجتهاد والفهم ومحاولة الوصول للحكم امتثالًا لما أمر الله به في الآية هنا، فإن الآية لم تُرِدْ ذلك، وإنما أرادت ما يسوؤُنا ولا ينفعنا كما تقدم.

﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ يرشدهم كلام الله تعالى إلى أن ينتظروا نزول الوحي بالقرآن، ففيه ما يصلحهم ويكفيهم، وإن كان في آيات القرآن ما يحتاج إلى مزيد بيان فليسألوا حينها، هذا أنفع لهم.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ لن يؤاخذكم الله بما كان منكم قبل هذا النهي، فلا ترجعوا إلى ما لا فائدة منه والزموا. ومن أهل العلم من قال: عفا الله عنها، أي: سكت الشرع عن بيانها وذِكرها رحمة بكم فلا تسألوا عنها.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ سبحانه، عظيم الغفران والحِلْم، استغفروه وتوبوا إليه، واذكروا فضله بما علَّمكم، واشكروه على إمهالكم وإرشادكم.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

هؤلاء القوم لم يسألوا على وجه الاسترشاد والحرص على ما ينفعهم، ولذلك لما أجابهم الله عما سألوا ونزلت عليهم التكليفات فيما سألوا أنكروا ذلك ولم يطيعوا، وجحدوا وكفروا واعتذروا بما لا ينفعهم.

ومنهم من كان يسأل نبينا ﷺ أن ينزل عليهم الآيات والمعجزات ليزدادوا إيمانًا، فجاءت الآية هنا تذكرهم بأن أقوامًا سبقتهم سألوا أنبياءهم ورسلهم آيات ومعجزات من عند الله، فلما أجابهم إلى ما طلبوا كفروا بها، كما حصل مع قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما طلبوا من نبيهم آية، فلما جاءتهم الناقة عقروها.

آيات وأمثال يضربها القرآن ليحذر أهل الإيمان والتقوى من الدخول فيما دخلت فيه الأقوام السابقة، ولئلا يسلكوا مسالك لا تأتي إلا بالعنت والمشقة، ولئلا يفهموا شرع الله ودينه على غير ما هو له.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

المشركون قبل بعثة النبي ﷺ حرفوا دين التوحيد، حرفوا ما جاءهم به أبوهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وشرعوا لأنفسهم ولأقوامهم شرائع وأحكامًا لم يأذن الله بها، وافتروا على الله الكذب، ولم يُعملوا عقولهم فيما يفعلون، بل قلدوا واتبعوا آباءهم في ذلك بلا حجة ولا برهان، فأنكر الله عليهم ما ابتدعوه، وبيَّن سبحانه أنه ما شرع ذلك ولا أَذِنَ به، ولكن غاية ما شرعوه يعود بالضرر عليهم في عقيدتهم.

الآية تذكر شيئًا مما شرعوه من أحكام تتعلق بإبلهم وأغنامهم التي وقفوها على آلهتهم، وجعلوها هدية لها، وحرَّموا انتفاع أصحابها بها، كل هذا مما لم يأذن به الله سبحانه، ولم تأت به شريعة، وإليكم البيانُ:

﴿مِن بَحِيرَةٍ﴾ وهي الناقة إذا أنتجت خمسة أبْطُن نظروا إلى الخامس، فإن كان البطن الخامس ذكرًا ذبحوه للآلهة وأكله الرجال دون النساء، وإن كان أنثى فإنهم يُبْحرون أذنها، أي: يقطعونها ويشقونها شقًّا واسعًا، ثم يقولون: هذه بحيرة، فلَا تُرْكَبُ وَلَا تُنْحَرُ، وَلَا تُمْنَعُ عَنْ مَاءٍ وَلَا عَنْ مَرْعًى، وَيَكُونُ لَبَنُهَا وقفًا لأَصْنَامِهِمْ ينتفع بها القائمون عليها، وكذا عابرو السبيل.

﴿وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ كان الرجل منهم إذا قُضيت حاجته، أو عُوفي من مرض، أو كثر ماله، أو بنى بناءً، أو قدم من سفره؛ سيّب شيئاً من الأنعام للأوثان والآلهة، أي: أخرجها من ملكه وجعلها وقفًا على الآلهة، وكان يُسَلِّمها إلى سدنة البيت وحراسه والمسؤولين عنه.

وكان من أحكامها أنها ترعى حيث شاءت، ولا يُحمل عليها شيء، ولا يُجز وبرها، ولا يُحْلَبُ لَبَنُها إلا لضيف، وكان صوفها وأولادها للرجال دون النساء.

﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ هذه من الغنم إذا ولدت سبعة أبطن؛ فإن كان الولد السابع جِدياً ذبحوه لآلهتهم، وكان لحمه للرجال دون النساء، وإن كانت عناقاً (أي: أنثى)، كانوا يستعملونها بمنزلة سائر الغنم، وإن كان جدياً وعناقاً في بطن واحد، قالوا: إن الأخت قد وُصلت بأخيها، فيحرمان جميعاً ولا يذبحون الذكر للآلهة، وكانت المنفعة للرجال دون النساء، وإن ماتا تشارك الرجال والنساء.

﴿وَلَا حَامٍ﴾ وأما الحامُ فهو الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن،فيقولون: حمَىَ ظهره فلا يُحمل عليه ولا يمنع من ماءٍ ولا مرعى. ومن أهل العلم من قال: هو الفحل من الإبل إذا كبر ولده وصار يركب. قالوا: قد حمى ظهره فيُهمل ولا يحمل عليه ولا يركب، ولا يمنع من المياه، ولا عن المراعي، فإذا مات أكله الرجال والنساء.

وفي تفسير بعض هذه الألفاظ خلاف عند العلماء، لكنها لا تخرج عن فكرتها.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذه حقيقة ما زعموه وألبسوه ثوب الدين: هذا ظلم وافتراء على الشرع، وهو جهل لا نَقْل فيه ولا عقل.

وقد كان أول من أدخل هذه الخرافات إلى جزيرة العرب رجل يقال له عمرو بن لُحَيٍّ الخزاعي، وهو الذي رآه ﷺ لما صلى الخسوف بالناس، وقال فيه كما أخرج البخاري ومسلم: «وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

في الآية قبلها افترىٰ أهل الشرك علىٰ دين التوحيد، وشرعوا لأنفسهم وأقوامهم أحكامًا شرعية ما أنزل الله بها من سلطان.

هؤلاء: إذا دعوا إلىٰ دين الله وشرعه ليتأملوه، وإذا دعوا إلىٰ ما أنزله علىٰ نبيه من عقائد وأحكام، كابَروا وامتنعوا ولم يقبلوا، وتمسكوا بما هم عليه من الخرافات والضلال، وعطَّلوا عقولهم وقلدوا، وقالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباءَ والأجداد من طرائق العبادة والأحكام، وإن كان دينًا غير صحيح.

واحتجاجهم بما كان عليه الآباء تعدَّدَ ذكره في كتاب الله، وبيَّن القرآن أن المُتْرفين منهم وأصحابَ الحَظِّ والغني كانوا يعتذرون عن إيمانهم بذلك. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣].

وهذه الحجة لا يقتصر عليها أهل الشرك فقط، بل نجد من أبناء الإسلام من يُسَوغ معصيته، ويعتذر عنها بأنه تَربَّىٰ في بيئةٍ الكل فيها يفعل ذلك، وينسىٰ أن هذا الدين دينُ مبادئ وليس دينَ تقاليد، فالعبودية لله تعالىٰ عقيدة لا يليق بالعبد أن يتخلىٰ عنها من أجل ما يفعله غيره أيًّا كان.

وكأن الآية تخاطب الذين يستدلون علىٰ سوء صنيعهم بفعل آبائهم وتقول لهم: تحرَّروا من هذه الطريقة في التفكير، وأبْحِروا في فهم ما يأتيكم من خبر السماء، وانظروا في الآيات من حولكم لتهتدوا وتكونوا من أهل الثبات حتىٰ الممات، ولعل الله تعالىٰ ينفع بكم أهليكم.

كم من شاب نشأ في بيئة لا تُعظم ربها، وكم من فتاة حال أهلها وقرابتها دون إقبالها علىٰ طريق سعادتها، ولكنهم لم يستسلموا للبؤس والشقاء الذي يرونه في أحب الناس إليهم، فصدقوا الله تعالىٰ في التزامهم وتوبتهم، وعاهدوا الله تعالىٰ أن يكونوا عبيدًا له وحده لا لسواه، ثم تسلحوا بالعلم والدراية، ورجعوا إلىٰ أهليهم بالدعوة والوعظ والإرشاد، وصبروا أول الأمر علىٰ الغمز واللمز، أو علىٰ الإيذاء والوعيد، ثمَّ إنَّ الله تعالىٰ ربط علىٰ قلوبهم وأذاقهم حلاوة طاعته، ولربما أكرمهم بهداية أهليهم فأرضاهم في الدنيا قبل أن يرضيَهم في الآخرة.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ كيف تتبعون آباءكم دون معرفتهم للحق واتباعه، آباؤكم لم يهتدوا للتوحيد فلا تكونوا على خطاهم، آباؤكم كانوا يعبدون الأصنام، ويئدون البنات، ويظلمون النساء واليتامى، وكانوا أرذل الأمم وأضعفَها، آباؤكم أمضوا زمانهم في نزاعات وحروب بينهم، ولم تكن لهم شريعة واضحة ومبادئ يسيرون عليها، كانت خلاصة أحوالهم في ذلك: أسياد يشرعون وعبيد يطيعون.

وهذا الأسلوب القرآني فيه إنكار وتوبيخ، وفيه تعجب من جهلهم وتقليدهم الأَعمى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

جاءت هذه الآية تحمل نداءً من الله تعالى لأهل الإيمان بعد بيان مكابرة أهل الشرك وإعراضهم، هذا النداء فيه توجيه رباني لهم بأن يصلحوا أنفسهم، ويجتهدوا بطاعة ربهم بفعل الخيرات وترك المنكرات، وألا يضرَّهم ولا يُثنيهم عن طريق الحق فسادُ من فسد من الناس، وضلالُ من ضل منهم، فإن العبد متى سار في طريق الهداية وأطاع ربه وعمل بما أمره به، فلن يضرَّه كيد الكائدين ولا إعراض الغافلين، وهذا فيه تثبيت لهم وإعانة على طريق الاستقامة.

ولا يفهم أحد من هذه الآية أنها تدل على ترك الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إن المؤمن لا يكون مؤمنًا حتى يوصل خيره للناس ويأمرهم وينهاهم، ولكن مقصود الآية أنك إن اهتديت فيلزمك أن تدعو إلى الله وتبلغَ دينك للناس، وأن تذكر غيرك بالخير ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وأن تبذل الغالي والنفيس في سبيل بذل أسباب الهداية له، وأن تجتهد في طرائق دعوته مستعينا بالله ومتوكلا عليه.

أخرج أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ».

وفي فضيلة الدعوة إلى الله وتبليغ الناس الخير قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فإذا وصل حال من دعوته إلى الإصرار على الكفر والجحود والإعراض، وأبى إلا طريقَ الغواية، ثمَّ غلب على ظنك عدم استجابته فلا تغتم ولا تأسف، والزم طريق الهدى، ووكِّل أمرك لمقلب القلوب جل وعلا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القَصَص: ٥٦].

هذه الآية نحتاجها كثيرًا في دعوتنا، نحتاجها مع صنف يُقفل علينا كل أبواب دعوته، صحيح أننا لا نيأس منه ومن محاولة الوصول إلى قلبه، لكن صدوده يكون عجيبًا، وقد لا نستطيع التغيير معه باليد أو باللسان، ولربما نصب العداء لنا، وأصبح من الذين يكيدون لدعوتنا، ويعملون على إيقافها، ومثل هذا الصنف من الناس لا يُوقفنا عن الطريق، ولكنْ، نسيرُ في دعوتنا ونمضي فيها ونثبت عليها، فإنها قلوبٌ بيد من خلقها سبحانه.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سيجمع الله أهل الهداية والغواية في صعيد واحد في أرض المحشر، ويجازي كل عامل بعمله، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر، وهذا فيه وعد للمهتدين، ووعيد للضالين، ولا يُؤَاخذُ أَحد بذنب غيره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

بيانٌ لأحكام الشهادة على الوصية التي قد تكون في صحة الإنسان في حياته، وقد تكون حال شعور المرء باقتراب أجله وهذا هو الغالب.

والموصي إذا حضره الموت، وظهرت علامات قربه، وأحس بِدُنُوِّ أجله، فإنه يوصي ويُشهد على وصيته من ائتمنه، سواء أكان في حضر أم كان في سفر.

وأهل العلم نصوا على أنه إذا كان على المرء حقوق للناس وليس هناك شيء يثبتها، فإن الوصية في حقه واجبة لئلا تضيع الحقوق على أصحابها، والإيصاء بها مطلوب وإن كان صاحبها على سفر، وعليه أن يتحرى في شهادته فيختار الأصلح فالأصلح، فإنها حقوق.

وقد تكون الوصية مستحبة إذا جرى فيها التبرع بجزء من المال لمن كان عنده مال كثير، ولم يكن ورثته بحاجة إليه، فيوصي بالثلث أو أقل في أعمال البِرِّ كبناء المساجد، أو إطعام الفقراء، أو كفالة الأيتام، أو كفاية طلبة العلم النافع، أو الوصية لمن لا يرث من قرابته، أو غير ذلك.

والوصية فيها حقوق للآخرين لا يعلمها إلا من شهد عليها، ستَظْهر لكم قيمة هذه الحقوق في الشرع في هذه الآية، فتأملوا:

نداءٌ من الله للمؤمنين يخص شهادة بعضهم على بعض في الوصية، نداءٌ يرشدهم إلى أن يحرصوا على أن يَشهد على وصيتهم اثنان منهم، يعني: من أهل الإسلام، متصفان بالعدل والتقوى، لا من أهل الفسق والفجور.

﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: آخران من غير المسلمين متصفان بالعدل وأداء الأمانة، وذلك إذا كنتم في سفر، ولم يكن معكم شهود مسلمون.

وجواز شهادة غير المسلم على المسلم في السفر أخذ بها الحنابلة، وأجازوها إذا لم يكن هناك شهود من المسلمين، وكان الشهود من أهل الذمة، وكان الموصي في سفر فإن السفر مظنة قلة الناس والصحب.

واستدلوا على ذلك بالآية هنا، وجعلوا هذا الحكم استثناء من الأصل العام عند أهل العلم، وهو أن غير المسلم لا يجوز له أن يشهد على المسلم، لأن كفره أسقط عنه صفة العدالة التي تدور عليها الشهادة، ولأنه ليس من أهل الولاية علينا.

أما جمهور أهل العلم من الحنفية والمالكية والشافعية فإنهم لا يجيزون شهادة غير المسلم على المسلم حتى في الوصية في السفر، وحملوا هذه الآية على محمل آخر، فمنهم من قال: هذا الحكم منسوخ بقول الله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، وقول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أَيْ الْمُسْلِمِينَ.

ومنهم من قال: الآية محمولة على قبول تحَمُّله للشهادة وهو كافر، لكنْ لا يُقبل منه أن يؤديَها إلا إذا أسلم، يعني: نقبل أن يحضرَ الموصي ويسمعَ وصيته وهو كافر، ولكن لا يُقبل منه في مجلس القضاء والحكم إلا إذا أسلم. ومنهم من فسر قول الله تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، أي: من غير عشيرتكم وقرابتكم، فحملها على العشيرة لا على الدين.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية عند البخاري تعليقًا، قولُ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ مَعَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، وَعَدِيِّ بْنِ بَدَّاءٍ، فَمَاتَ السَّهْمِيُّ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا مُسْلِمٌ، فَلَمَّا قَدِمَا بِتَرِكَتِهِ، فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مُخَوَّصًا مِنْ ذَهَبٍ (يعني: إناءً مخلوطًا ومنقوشًا بالذهب)، «فَأَحْلَفَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ» (يعني أنهما ما كتما ولا اطلعا ولا يعرفان شيئا عنه)، ثُمَّ وُجِدَ الجَامُ بِمَكَّةَ، فَقَالُوا: ابْتَعْنَاهُ (أي: اشتريناه) مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ، فَقَامَ رَجُلاَنِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ (من أولياء السهمي)، فَحَلَفَا لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا، وَإِنَّ الجَامَ لِصَاحِبِهِمْ، قَالَ: وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾».

ملخص هذه القصة أن رجلًا من بني سهم سافر مع تميم بن أوس الداري قبل أن يسلم تميم فإنه كان على النصرانية، وكان مع هذا الرجل السهمي نصراني آخر اسمه عدي بن بداء وهذا لم يسلم.

القصة أنهما خرجا معه في هذا السفر، فأدركه الموت في الطريق، فأوصاهما وكانا على النصرانية، أن يعطوا أمواله التي معه لورثته، فأوصلا أمواله إلى الورثة إلا جامًا من فضة مخوصًا بالذهب، أخذاه وكتماه وحلفا للنبي ﷺ أنهما ما أخذاه فخلا سبيلهما، ثم وُجد الإناء في مكة، ولما سألوا عمن باعهم إياه، ذكروا تميمًا وعديًّا، فحلف أقارب الرجل السهمي الذي مات أن الإناء كان له، وقد جاء في بعض الروايات أن تميمًا دفع لأهل السهمي نصف المبلغ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أشهدوا على وصيتكم إن سافرتم وأصابتكم مصيبة الموت، أي: أدْرَكَتكُم الوفاة وشعرتم بدنوها؛ كأن تكونوا مريضين مرضا مُميتًا، أو أصابتكم جراحة لا تعيشون معها غالبًا، أو نفذ ما معكم من الطعام والشراب، وغير ذلك.

وتأملوا كيف سمى القرآن الموت مصيبة، وهو كذلك وَرَبِّي، ومصيبته تكون على الميت الذي غادر الدنيا وهو على شر حال من الشرك، أو مِن ترك الصلاة وعقوق الوالدين، أو مِن الانغماس في شهوات الزنا والربا وشرب الخمر، ونحو ذلك.

والموت مصيبة كذلك على من غادرهم الميت بلا رجعة إلى الدنيا، مصيبة على أهله وأحبابه، وهم الذين جاءتهم توصية من الشرع بأن يصبروا ويحتسبوا، ويدركوا أنه طريق سيسلكه كل الناس. اللهم أحسن خاتمتنا.

﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾

هذان الشاهدان على الوصية، إما أن نثق بهما ولا نرتاب، فنقبل شهادتهما بدون يمين ولا إحضارٍ أمام الناس، ونعمل على تنفيذ الوصية بشروطها.

وإما أن يرتاب ورثة الموصي وأهله، ويشكُّوا في الشاهدين أنهما بدَّلا أو غيَّرا أو حرَّفا في الوصية ليشتروا به ثمنًا، أي: ليحصلوا على منفعة تخصهم أو تخص قرابتهم، ففي مثل هذه الحال ترشد الآية إلى أن نطلب إليهما أن يشهدا بعد الصلاة في المسجد أمام الناس، ويقسمان على صحة قولهما، وذلك لتعظيم أمر الشهادة والحقوق المترتبة عليها، فإنَّ من شهد في وقت اجتماع الناس في مكان يعظمه الناس كان أحرص على أن يأتي بالشهادة كما هي. أخرج أحمد وابن ماجه واللفظ لأحمد، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَيُّمَا امْرِئٍ مِنَ النَّاسِ حَلَفَ عِنْدَ مِنْبَرِي هَذَا عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ يَسْتَحِقُّ بِهَا حَقَّ مُسْلِمٍ أَدْخَلَهُ الله النَّارَ، وَإِنْ عَلَى سِوَاكٍ أَخْضَرَ».

يقسم الشاهدان بالله أننا لا نكذب، ولا نُقدم مُتع الدنيا على صِدقنا وأداء أمانة الشهادة، ولو كان القَسَمُ يحقق مصلحة لبعض أقاربنا.

ويقول الحالفان في يمينهما: ولا نكتم الشهادة التي أَمر الله تعالى بإقامتها؛ فإنا إذا اشترينا بالقسَمِ والشهادة ثمنًا من أثمان الدنيا، أَو راعينا فيه منفعة قرابةٍ فكذَبْنا وكتَمْنا وبدَّلنا، كُنَّا من الواقعين في الإثم، المستحقين للعقوبة من الله، ونحن لا نرضى ذلك. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

هل تأملتم قيمة الحقوق في الدنيا، وهل رأيتم كيف ارتبطت بالإثم والمغرم في الدار الآخرة، وهل انقدح في ذهنكم صنف ممن حولنا يأكل حقوق الناس كذبًا وزورًا وبهتانًا، دون أن تهتزَّ له شعرة في ذلك، وتجدونه يبذل أوْجهًا من الحيل لا تخطر إلا على بال من ضعف الإيمان في قلبه أو ذهب، وإلى الله المشتكى.

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

فإن علمنا وتبين لنا بالقرائن أن الشاهدين الحالِفَيْنِ استحقَّا إثمًا، يعني : كذبًا، أو أنهما كَتَما وخانا في الشهادة، فيحلف بدلًا منهما عدْلان آخران من ورثة الميت، أو من أوليائه، وذلك بحسب الحال.

يقوم آخران استحق عليهم الأوليان، أي هما أولىٰ الناس بماله ووصيته، هما أولىٰ بالشهادة ممن ظهر منهما الغش والخداع، وهما أقرب إلىٰ الميت، وقد استحقا إرثه وما ترك.

يحلفان بالله أن هذا المال للميت وأنه تركه بعد وفاته، ولمن يكن منه بيعٌ قبل ذلك، ولا وصيةٌ، ولا وَهبهُ لأحد.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

هذان الشاهدان من ورثة الموصي أو من أوليائه يحلفان بالله قائِلَيْن: لَشهادَتنا أَحَقُّ وأَولىٰ بالقبول من شهادة الشاهدَين الآثمَين الكاذبَين السابقَين، وما تجاوزنا الحق فيما شهدنا به وأَقسمنا عليه، ولا شهدنا بالباطل والزور، إنا إن فعلنا ذلك لنكونن من الظالمين.

والظلم هنا ظلم للنفس بتعريضها لسخط الله وعقوبته، وظلم كذلك للشاهدين بالكذب عليهما، فإن فعلا ذلك وحلفا فإن المال يرد إلىٰ ورثة الميت، ويقسم بينهم بحسب ما شَرَعه الله.

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

هذا البيان في مثل هذه المسألة ينفع الناس، ويجعلهم حريصين علىٰ تأدية أيمانهم وشهاداتهم علىٰ وجه الحق والعدل بلا تغيير أو تبديل. فالشاهدان اللذان كانا مع الموصي يكون عندهم خوف من أن تُردَّ أيمانهم علىٰ الورثة الأقربين، فيفتضح أمرهم ويُشهَّر بهم وتسوء سمعتهم، وحَلِفُهما بعد الصلاة أمام الناس فيه تعظيم لله وخشية له، فيحرصون علىٰ الصدق وإن خالف هواهم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ أي: امتثلوا أمر الله وراقبوه وخافوه، واسمعوا وأَطيعوا ولا تخرجوا عن طاعته، واحذروا أَن تحلفوا كاذبين في أَيمانكم، أَو أَن تخونوا في الأَمانات التي تحت أَيديكم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فإن لم تتقوا ولم تسمعوا ما أُمرتم به وما نهيتم عنه، كنتم من الفاسقين المُعْرضين، الخارجين عن طاعة الله، الذين حرموا الهداية بما كسبوا، وحرموا كثيرًا من الأعمال الصالحة بما قالوا وعملوا.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾

سورة المائدة من السور التي حوت معالم الدعوة إلىٰ توحيد الله جملةً وتفصيلًا؛ ففيها عدد من الآيات التي تشير إلىٰ كفر من أشرك مع الله غيره، وأخرىٰ تبين وظيفة الرسل وحقيقة دعوتهم، وآيات تبين جملة من الأحكام الشرعية التي أُمر الرسول بتبليغها كغيره من الرسل، عليهم صلوات ربي وسلامه.

جاءت الآية هنا تذكر العباد جميعًا، أنهم مجموعون ليوم لا ريب فيه، وأن الله تعالىٰ سيسأل الرسل عن استجابة أقوامهم لهم: هل آمنوا أم صدوا عن دين الله؟ هل طبقوا شرعه والتزموا أوامره أم تركوها وراء ظهورهم؟.

وسؤال الله تعالىٰ لا يقتصر في هذا الموقف العظيم علىٰ الرسل، بل إن الله تعالىٰ يسأل الأمم كذلك عما كان منهم، ويسأل العباد عن حالهم مع كتب الله ورسله. قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وقال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، وقال ربنا جل وعلا: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

وسؤال الله تعالىٰ للرسل هنا ليس سؤال استفهام وطلب للعلم، فإن الله سبحانه هو العليم بخلقه وبما كان منهم، ولكنه سؤال توبيخ لأممهم التي عاندت وكفرت، وسؤال إقامة للحجة عليهم، ولا يظلم ربك أحدًا.

ومعلوم لديكم أن الأشهاد يقومون يوم القيامة فلا فرارَ ولا كذبَ ولا تزويرَ، الجوارح تشهد والملائكة تشهد والرسل تشهد، ومحمد ﷺ يشهد. قال الله تعالىٰ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤١ - ٤٢] ، وقال ربنا: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النحل: ٨٩].

واستحضار مثل هذه المعاني، فضلًا عن استحضار الوقوف بين يدي الرب جل في علاه، يورث صاحب القلب الحَيِّ خشيةً وتوبةً وإنابةً وثباتًا.

قالت الرسل لربها ومولاها الذي أرسلها لما سألها: نحن لا نعلم من حال أممنا إلا ما علمتنا، فكان مرد العلم إليك سبحانك.

الرسل تقولوا: ظهر لنا حالُ من عشنا معه ورأيناه، ورأينا من آمن بلسانه، وظهرت على جوارحه الخيرات، ورأينا من ظهر منه التكذيب والصدود، وظهرت على جوارحه السيئات، ولكن الإحاطة بما في قلوبهم من صدق وكذب، ثم الإحاطة بجميع من أرسلنا إليهم وبما أحدثوه بعدنا، والإحاطة بمن جاء بعدهم بعد مماتنا، كل هذا مما لا ندركه ولا نحيط به يا ربنا، ولكنها لك، إنك أنت علام الغيوب، ومالك الملك، لا إله إلا أنت.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

ربنا يجمع الرسل في اليوم الآخر في أرض المحشر، ويوقفهم للحساب والسؤال، ويسأل ربنا نبيَّه عيسى ابن مريم عليه وعلى أمه السلام، يسأله ربنا سؤالًا يُبطل به ما حرفه النصارى في عقيدتهم، ويُبطل ما نسبوه له سبحانه وتعالى، ويوبخهم على كفرهم وشركهم.

ولكن، من جمال القرآن وروعته أنه يبين لنا شيئًا من رحمة الله بنبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويذكر لنا شيئًا من لطف الله بقلبه في يومٍ تضطرب فيه القلوب وتخاف.

ربنا جل وعلا قبل أن يسأل نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويشهده على وحدانيته يُطمئن قلبه بتذكيره ببعض ما امتن به عليه وعلى والدته عليها السلام، ومن ذلك:

﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ الله تعالىٰ أيده يوم كان في المهد صغيرًا وقواه وحفظه، وأيده بروح القدس، وهو جبريل المقدس المُطهَّر عن العيوب والنقائص عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والذي هو رسول الله تعالىٰ إلىٰ أنبيائه ورسله، أيده به لينزل عليه بالوحي ، ويثبته في مواطن المشقة في دعوته إلىٰ الله.

ثم إن الله تعالىٰ جعله آية من آيات عظمة الله، وقدَّرَ سبحانه أن تكون طريقة مولده مقدمةً لنبوته واصطفائه وعلامَة عليهما، فإنه ولد من أمٍّ بدون أب، وأنطقه الله تعالىٰ يوم كان صغيرًا في المهد، أنطقه بكلام برَّأ فيه أمه الطاهرة من الفاحشة ودافع عنها، وأعلم قومها باصطفاء الله له، وقد كان ذلك لأمه برهانًا عظيمًا علىٰ حفظ الله لقلبها وتثبيته، وعلىٰ أن غلامها الذي خافت قومَها بسبب طريقة ولادته سيكون له شأن عظيم في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٢٧-٣٣].

ثم إن الله تعالىٰ حفظ سيدنا عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كهلًا؛ أي: لما كبرت سنه وصارت ثلاثين، أرسل إليه جبريل، وجعله نبيًا داعيًا إلىٰ الله، وقوَّاه وربَطَ علىٰ قلبه بدعوته، وأيده بالمعجزات، وأكرمه بالصبر علىٰ أذىٰ من أُرسل إليهم، ومنع عنه كيد اليهود ومن كفر معهم، حتىٰ رفعه إليه.

﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ﴾ ومما امتن الله تعالىٰ به علىٰ عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أن علمه ما اشتملت عليه الكتب السابقة من أصول العقيدة، وعلمه الحكمة وهي الفهم وسداد الرأي وإصابة الحق، وعلمه التوراة التي أنزلت علىٰ موسىٰ بن عمران عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وآتاه الإنجيل وأنزله عليه وعلمه إياه.

﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِي﴾ من المعجزات التي أكرم الله بها نبيه عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أنه كان يخلق من الطين علىٰ هيئة الطير، أي: كان يجعل من الطين صُورَةً كَصُورَةِ الطَّيْرِ ويُشكِّلها كهيئته، ثم ينفخ سيدنا عيسىٰ بنفسه في تلك الصورة فتكون طيراً ذا روح، وتحصل الحياة له بإذن الله وقدرته وأمره.

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ وكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يبرئ الأكمه ويشفيه فيصبح بصيرًا يرى بإذن الله الذي لا يشفى أحد إلا بقدَره وأمْره وإذنه، والأكمه هو من ولد أعمى.

وكذلك يبرئ الأبرص، والبرص مرض يصيب الجلد، ويكون على شكل بُقَعٍ بَيْضَاء شَدِيدَة الْبَيَاضِ تَظْهَرُ عَلَى الْجِلْدِ.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم، فتكلمُهم ويرجعون أمواتًا؛ كل ذلك بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك وعصمتي لك، حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك، فكذبوك واتَّهموك بأنك ساحر تمهيدًا لقتلك، فحفظتُك حتى بلغت رسالتك.

اليهود سعَوْا في قتله وصلبه فنجاه الله منهم ورفعه إليه، وطهَّره من دنسهم، وكفاه شرهم. قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

عيشوا مع هذا الخطاب الرباني في أرض المحشر لعبده ونبيه عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتأملوا ظلاله العجيبة في تلك اللحظات، وانظروا في بقية الخطاب لعلنا ندرك شيئا من عظم ما يفتريه النصارى على الله، وندرك شيئًا من جمال التوحيد الذي رسخ في قلوبنا.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ۖ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

وهذه نعمة أخرى أنعم الله بها على نبيه عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، نعمة عظيمة لا يستغني عنها داعية إلى الله تعالى، نعمة الأصحاب والأنصار والأتباع والأعوان، بهم يتقوى الداعية وتنتشر دعوته.

هؤلاء الحواريون لولاهم لما نُشرت رسالة سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولما حصل اهتداء من اهتدى بعد رفعه إلى السماء.

أوحىٰ الله إلىٰ الحواريين وهم الأنصار للنبي في سرِّهم وجهرهم والمخلصون له، أوحىٰ إليهم عن طريق نبيه عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طالبًا إليهم الإيمان بوحدانية الله تعالىٰ وبرسالة عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ومن أهل العلم من قال: أوحىٰ إليهم بمعنىٰ: أَلقىٰ الله في قلوب الحواريين الإيمانَ به وبرسوله عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وشرح صدورهم للتصديق بما جاء به، كما أشار إلىٰ هذا المعنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

الحواريون استجابوا لأمرالله تعالىٰ وسارعوا فيه، وقالوا: آمنا بالله وبرسوله، واشهد يا نبيَّ الله بأَننا مستسلمون لأمر خالقنا ومولانا ومخلصون له.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

هذه قصة المائدة، وبها تسمىٰ السورة فيقال: سورة المائدة، وهي مما امتنَّ الله به علىٰ عبده ورسوله عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما أجاب دعاءه بنزولها، أنزلها الله تعالىٰ معجزة باهرة، وحجة قاطعة، وآية لمن طلبوها ولقومهم.

الحواريون قالوا لنبيهم: يا عيسىٰ بن مريم، هل يستجيب لك ربُّك إذا سأَلته أَن ينزل علينا مائدة عليها طعام من السماءِ؟ وسؤالهم هذا ليس فيه سوءُ أدب، ولا يدل علىٰ أنهم يشكُّون في قدرة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ إنزال مائدة وأنهم غير مؤمنين، وإنما هو أسلوب تلطف يرجون فيه استجابة الله تعالىٰ لهم لفوائد أرادوها دلت عليها الآية التالية.

﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وكأن سيدنا عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ظن في هذا الطلب غير ما أرادوا، وكأنه فهم أن كلامهم لا يدل علىٰ كمال انقيادهم واهتدائهم، وأنهم يريدون أن يجربوا قدرة ربهم، فأجابهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قائلًا: لا حاجة لكم بذلك ما دمتم مؤمنين، فاتقوا الله ولا تطلبوا مثل ذلك.

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

قال الحواريون لنبيهم مُظهرين حسن نيتهم وسلامة مقصدهم: نطلب المائدة لأربعة أَسباب:

الأول : أَن نأْكل منها لحاجتنا إلىٰ ذلك، أو لتشريفنا بأكل طعام نزل من عند الله.

الثاني: أَن تطمئنَّ قلوبُنا بأَننا علىٰ الحق برؤيتها تنزل من السماء رزقًا لنا، فنزداد يقينًا علىٰ يقين، نريد أن ننتقل من الإيمان بقدرة الله تعالىٰ علىٰ إنزال مائدة إلىٰ رؤية ذلك والأكل منه، كما طلب سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من ربه أن يريَه كيف يحيي الموتىٰ. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومن هنا نفهم عظمة خالقنا كيف يطلعنا في كل زمن ووقت علىٰ مظهر جديد من مظاهر عظمة خلقه، كيف ييسر للعلماء في فنون شتىٰ اكتشافاتٍ جديدةً وظواهرَ عجيبةً تجعل الواحد منا لا يتجاوز لسانه قولَ: سبحانك ربي ما أعظمك، وتجعل القلب يزداد قربًا من الله، وكأن الخشية تجلت عليه من جديد، اللهم نور بصائرنا.

الثالث: وأن نرىٰ معجزة جديدة تدل علىٰ أَنك قد صدقتنا فيما جئتنا به.

والرابع: وأن نشهد عند الذين لم يَرَوْها من قومنا أنها آية من عند الله، وأنها دلالة علىٰ نبوتك وصدق ما جئت به، لعل كافرهم يؤمن وليزدادَ الذين آمنوا إيمانًا.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

لما علم نبي الله صدق طلبهم وسلامة ما في صدورهم دعا ربنا أن يستجيب لهم، وأن ينزل عليهم مائدة طعام ليتخذوا يوم إنزالها عيدًا يذكرونه كل عام، ويعظمه أولهم وآخرهم، أي: هم ومن جاء بعدهم من الأجيال.

ونطلبها منك يا ربنا لتكون دليلًا علىٰ عظمتك وقدرتك، ودليلًا علىٰ صدق نبيك عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في دعوته، وكذلك لتكون رزقًا جاءنا بلا كلفة ولا تعب، إنك ترزق من تشاء الرزق الوافر الطيب الكثير.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

هذا دليل استجابة الله لهم دعاءهم، وإنزاله المائدة عليهم، فإن الله تعالىٰ لا يخلف وعده، وهذا قول جمهور المفسرين.

وذهب بعض أهل التفسير إلىٰ أنهم خافوا ورجعوا عن طلبهم، فلم تنزل عليهم المائدة؛ بسبب ما جاء في تتمة الآية:

﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إنزال المائدة عليكم له شرطه الذي لا بد أن تفقهوه عن الله، ربكم القادر علىٰ كل شيء أراكم من قبلُ آيات وآيات، وسيريكم آية طلبتموها، فمن كذَّب بعد إنزالها منكم، وانتكس عن طريق العبودية فسيلقىٰ عذابًا لا نظير له في عذاب أهل الكفر من زمانهم، أو من العالمين جميعًا؛ ذلك أنه أنكر معجزة ربانية محسوسة لا اشتباه فيها ولا تأويل، بل إنه طلبها بنفسه وعاهد الله علىٰ أن تكون سببًا في زيادة يقينه وإيمانه.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾

النصارىٰ حرفوا دين التوحيد الذي جاء به نبيهم عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فزعموا أن الإله حل في عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأن عيسىٰ صار إلهًا بذلك.

ثم إنهم أشركوا مع الله تعالىٰ كذلك بنسبة أم عيسىٰ مريم عليها السلام للألوهية، فقد عُرفت عبادتها عند طائفة «المَرْيَميين»، وصرفوا لها عددًا من الطاعات كالاستغاثة، والاستشفاع، وكصيام ينسب إليها يسمىٰ صيام العذراء، وخصُّوها بخضوع وخشوع لذكرها ولصورها ولتماثيلها.

وفي العصر الحديث يُنكر كثير من النصارىٰ أنهم يتخذون مريم إلهًا، مع أنهم في صلواتهم يقدمون له دعوات وتوسلات وتضرعات مباشرة من دون الله.

في الآية توبيخ للنصارىٰ، وإظهار لكذبهم، وإعلان لافترائهم أمام العالمين يوم القيامة، هنا خطاب من الله تعالىٰ يوم يجمع الرسل والخلائق في أرض المحشر، يخاطب به عبده ورسوله عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قائلًا له أمام من اتخذه وأمه إلهين: أأنت قلت ذلك لهم أم هو افتراء من عندهم، وهو أعلم بحالهم سبحانه.

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ يتبرأ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من مقالتهم التي سئل عنها، وينزه الله تعالىٰ عن الولد والشريك وعن صفات النقص، ويقول لربه وخالقه وسيده ومولاه: تنزهتَ إلهي عن الكلام القبيح الذي يقولون، وما كان لي أن أفتري عليك، فإن هذا ليس حقًّا لي، ولا يقوله مثلي فإني معصوم من ذلك بفضلك علي وكرمك، وإنما أنا عبدٌ من عبادك، وكل عبادك خاضعون لك، فقيرون إليك، لا يقدمون بين يدي أمرك شيئًا ولا يؤخرون.

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ﴾ أيُّ تأدب مع الله تعالىٰ هنا في الخطاب، نبي الله عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يقل لربه: أنا لم أقل ذلك، وإنما يقول: إن كان صَدَرَ مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفىٰ عليك شيء مما قلته، ولا مما أردته، ولا مما أخفيته في نفسي.

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾

عِلْمكَ يا رب واسِع محيط بكل شيء، تعلم سِرِّي وما أعتقده بقلبي وعقلي، ولا أَعلم شيئًا مما استأْثرتَ به في ذاتك من غَيْبك وعلمك، إلا بِقَدْرِ ما تُظْهِره لي وتُطْلعني عليه بالوحي سبحانك.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾

يا رب، أدَّيتُ أمانة التبليغ كما أردت، وما دعوتهم إلا إلىٰ الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه، من توحيدك وصرف العبودية لك وحدك لا شريك لك، وقد عَلَّمتهم أنك أنت ربي وخالقي ومالكي ومدبرُ أمري، وأنك أنت خالقهم ومالكهم ومدبرُ أمرهم.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: كنت أشهد علىٰ أعمالهم حين كنت بين أظهرهم، فلم يقولوا كلمة الشرك وأنا معهم، فلما ألقيت عليَّ النوم ورفعتني إليك كنت أنت الرقيب علىٰ من بقي منهم علىٰ التوحيد، وكنت أنت الرقيب علىٰ من بَدَّل منهم وغَيَّر وحَرَّف.

وقد مر معنا دعوة نبي الله عيسىٰ لقومه وما قاله لهم، وذلك في قول الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ولا يقولن قائل: إن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وصف نفسه بأنه توفي، أي: مات، ولم يقل: إنه قد رفع إلىٰ السماء، فإن المقصود بالوفاة هنا النوم وليس الموت، وهو النوم الذي ألقاه ربنا علىٰ نبيه عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبل أن يرفعه إليه.

وتسمية النوم وفاة معلومة ومعهودة في اللغة، بل قد جاءت بهذا المعنىٰ في عدد من آيات كتاب ربنا كما في قول الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، أي: يتوفاكم الوفاة الصغرىٰ في الليل وهي النوم، وَقَوْلِهِ سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، فالله يتوفىٰ الأنفس في منامها ولكنها وفاة صغرىٰ ترجع الروح فيها إلىٰ بدن صاحبها إذا استيقظ، وتكون مفارقة الروح في النوم علىٰ حال مخصوصة ليست كمفارقتها في الوفاة الكبرىٰ، وهي التي تغادر الروحُ فيها البدنَ بلا رجوع، اللهم أحسن الختام.

وقولُ سيدنا عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذا، يستعمله نبينا محمد ﷺ غدًا في أرض المحشر لمَّا يطَّلعُ علىٰ ما كان من عدد من أبناء أمته، كما دل علىٰ ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « تُحْشَرُونَ حُفَاةً، عُرَاةً، غُرْلًا (أي: غير مختونين)، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَىٰ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ يُؤْخَذُ بِرِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِي ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٧ - ١١٨]، قَالَ: مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الفَرَبْرِيُّ، ذُكِرَ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله، عَنْ قَبِيصَةَ، قَالَ: «هُمُ المُرْتَدُّونَ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ فَقَاتَلَهُمْ أَبُو بَكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ».

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾

أخذت هذه الآية موقعها من قلب رسول الله ﷺ، دل على ذلك ما أخرجه النسائي وابن ماجه عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا» وَالْآيَةُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وأخرج مسلم عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: تَلَا قَوْلَ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] ، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ الله: «يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوؤُكَ».

عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يعظم ربنا تعظيمًا يليق بجلاله وكماله، ويفوض إِلَى الله أمرَه وأمرَ قومه، فَهُوَ أَعْلَمُ بهم وبما يكون لهم من الثواب والعقاب.

عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول في ذلك الموقف المهيب: يا رب، أتبرأ إليك ممن كذب عليك وعلى دين أنبيائك، والعباد عبادك؛ إن عذبتهم فبعدلك، وإن غفرت لهم فإنك تغفر عن عزة وحكمة ومقدرة، وعن علم بمن يستحق ذلك سبحانك، أنت أرحم بهم من أنفسهم، ومحيط بجميع حالهم، ولك في كل ما تفعل الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

يا رب، أفوض أمرهم إليك، فإنك أَنْتَ الْعَزِيزُ الَّذِي يَغْلِبُ وَلَا يُغْلَبُ، وَيَمْنَعُ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ وَلَا يُمْنَعُ، وأنت الْحَكِيمُ الَّذِي تَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، ولا يُظلم عندك أحدٌ.

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩ ﴾

يقول تعالىٰ مجيبًا لعبده ورسوله عيسىٰ ابن مريم فيما قاله من عبارات تحمل أعلىٰ درجات الانكسار بين يدي الله، وأعلىٰ درجات تعظيم الرب جل وعلا، يقول الله تعالىٰ مبينًا جمال الصدق في العقيدة والعبودية والتوحيد: هذا اليوم الذي يظهر الله فيه ما أعدَّه للصادقين في توحيدهم وعبوديتهم، فإنه سبحانه قد أعد لهم جنات تسير الأنهار بسرعة من تحت أشجارها وغرفها، وهذا من كمال النعيم في الجنات، أن تجري المياه فيها وبينها ومن تحت قصورها.

سبحان من أودع في النفوس حب ذلك، وسبحان من استعملهم في الدنيا بطاعته ورزقهم الصبر علىٰ ذلك لينالوا الأجر العظيم في الآخرة، ثم هم ماكثون فيها لا يَتحولون ولا ينتقلون، ولا رغبة لهم بذلك.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ هذا من تمام النعيم المعنوي في الجنة، هنا يتجلىٰ الفوز العظيم برضا الله عنهم ورضاهم عما أعدَّ لهم من كرامة، ولست أدري: هل يريد المؤمن منا أن يفوز بأمر أحلىٰ وأرقىٰ من أن يرضىٰ عنه الله، ولكم أن تجيلوا فكركم: كيف سيُرضي الله عبدًا رضي عنه.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا». قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ هذا هو الفوز الكبير الذي لا أعظم منه، هنا يجتمع نعيم البدن ونعيم الروح، هنا السعادة التي لا شقاء بعدها، هنا دار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، هنا المكان الذي لا ظُلم فيه ولا نَصَب ولا نكد، هنا النعيم الذي لا خسارة فيه ولا بعده. قال الله تعالىٰ: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾

ختام عظيم لسورة عظيمة، وكل القرآن عظيم، ختام يعطي القارئ خلاصة الحياة وما بعدها، ويجعله يدرك ما يجري حوله من أقوال وأفعال وأحوال.

آية تنزل السكينة معها على قلب من قرأها ووعاها، ومع تدبرها تطير الروح شوقًا للقاء من له ملك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، ومن خلق الأشياء كلَّها وملك التصرف فيها.

سبحانه، الجميع مُلْكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير ولا عديل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، ولا يملك معه في هذا الكون أحد شيئًا، لا من الملائكة ولا من الرسل، لا إله غيره ولا رب سواه.

ختامًا: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، واجعلنا من عبادك المخلِصين المخلَصين يا أكرم الأكرمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى إخوانه من الأنبياء والرسل أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

تم الانتهاء بفضل الله تعالى وكرمه وجوده من تفسير هذه السورة في تمام الساعة الرابعة من بعد عصر يوم الجمعة الموافق للخامس عشر من جمادى الأولى من العام الهجري الواحد والأربعين بعد الأربعمائة والألف، الموافق للعاشر من الشهر الأول من العام الميلادي العشرين بعد الألفين، وهو شهر كانون الثاني.

التفسير الوعظي لسورة المائدة

لسورة المائدة

+962 6 56 58 787
darfan.com